إليا ترويانوف Ilija Trojanow

السياحة عنوان عصرنا

ماهو الأسلوب الصحيح للسفر؟

"مَنْ يحب وطنه، هو إنسان مبتدىء ما زال في مهده؛ أما ذاك الذي يكنُ لكل موضع في العالم ما يكنه للمكان الذي ولد فيه، فإن هذا هو الذي قطع شوطاً لا بأس به على درب النضوج؛ ولا يكون الإنسان ناضجاً بالكامل إلا بعدما يصبح العالم أجمع مكاناً غريباً عنه." (هوغو فون سانت فيكتور، عالم لاهوت مسيحي عاش بين العامين ١٠٩٧ و١١٤١ تقريباً).

لم يحدث أبداً في سابق الزمان أن سافر بنو البشر، طواعية، بالكم الذي نشاهده حالياً. ففي كوكبنا الأرضي يكاد لا يوجد موضع واحد بمنأى عن السياحة؛ لقد صارت السياحة في ربوع العالم الفسيح عنواناً على عصرنا، عصر الحداثة المتأخرة. فنحن لم نعد نهجم على مدن الشمس هجوم الجراد على المحاصيل الزراعية فحسب، بل أمسينا نغوص في أعماق المحيط لنعثر على بقايا الباخرة تايتانك، وصرنا نتأرجح في الهواء بمناطيد تعمل بالهواء الساخن لنستكشف المراعي ونستطلع السهوب، وأبينا إلا أن نقتلع الصخور الجليدية من أمامنا لتتفتح لنا طرقاً توصلنا إلى مجاهل الجليد الأبدي. وبعبارة واحدة، لم تعد ثمة زاوية واحدة من زوايا عالمنا الفسيح بمنأى عن فضولنا وشغفنا بالاستكشافات.

وتبدأ رحلاتنا من على الخريطة ومن صفحات الكتالوجات. فهاهنا العالم برمته معروض بنحو واضح وجلي وبأسلوب مغر، زاه بالألوان، ومصغر بمقياس الرسم، بحيث صار كل سنتمتر مربع يشتمل على معلومات لا حصر لها، على معلومات بلغت من الكثافة بحيث سدت كل فراغات شبكة العالم التي نتأرجح بين ثناياها، معلومات صارت سندنا المنيع الذي يقينا من مغبة السقوط أو الضياع في متاهات العالم المترامي الأطراف. وإذا اختلطت علينا الأمور برغم كل المعلومات، فإن الابتكار الذي مَنَّ به علينا عصر الحداثة، أعني الجهاز المسمى اختصاراً «GPS»، النظام العالمي لتحديد المواقع بواسطة الأقمار الصناعية، هو ملجأنا الأخير والأكيد. فمن قبل أن نبدأ رحلتنا، فإننا على علم وثيق باسم المكان الغريب وموقعه في هذا العالم الواسع الأرجاء والطريق الذي ينبغي أن نسلكه إليه وأي مخارج الطريق السريع توصلنا إليه. إن لرحلتنا معالم واضحة، فهي مظللة بألوان البضائع التي تُعرض بالأسعار السخية، بألوان النصائح الموجهة إلى الصديق الغالي، وبالألوان التي تناسب المناظر والأماكن التي ينبغي بالسائح زيارتها. ومن قبل أن نغوص في المكان الغريب، لا مندوحة لنا من أن نرتدي الملابس الخاصة بالغوص في أعماق البحار ونتزود بالأوكسجين بأكثر من حاجتنا. إننا نسافر إلى كل ما في العالم من مجاهل غريبة لا لشيء إلا لأنه لم يعد ثمة خطر يتهددنا في هذه المجاهل.

إن ما يخيم علينا عند السفر من انفعال غريب الملامح عذب المذاق ينبع في الواقع من الحدود الموضوعة بنحو تعسفي بين ما هو معتاد وما هو غريب عنا. فبالنسبة لمواطن يقيم في المقاطعة الألمانية بافاريا لا يعني الاحتفال السنوي الذي تنظمه مدينة ميونخ باسم «احتفال أكتوبر»، أكثر من فرصة مناسبة للتسلية والتهريج. أما بالنسبة للمواطن الأسترالي لا ريب في أنه سيرى في هذا الاحتفال نشوة فريدة لن يعثر عليها في مكان آخر من العالم أبدا - سيرى فيها نشوة تهز أعطافه وإن كان الاحتفال لا يتميز بشيء آخر غير حضور أعداد غفيرة من بني البشر واحتساء الجعة بكميات غير مألوفة والترنح على أنغام موسيقى لا فن فيها ولا ذوق، أي أنه سيرى في هذا الحفل شيئاً فريداً وإن كان هذا الحفل مجرد احتفال يجري بنحو أو آخر في الكثير من مدن العالم. ويمر المواطن الأوروبي بمعايشة مشابهة حين يشاهد الطقوس الدينية المسماة «الكومبه ميلا»، هذه الطقوس التي يمارسها الهندوس في شمال الهند كل اثني عشر عاماً؛ فحتى وإن تجمع من حول المواطن الأوروبي هاهنا ما يقرب من ثلاثين مليون فرد للتطهر في مياه نهر الغانغ ونهر جامونا؛ أي حتى وإن كان يعايش احتفالاً جماهيرياً بكل معنى الكلمة، إلا أنه يظل، مع هذا، يشعر بأنه هو وحده الذي يعايش هذه المغامرة.

وحين نحط رحالنا في الغربة، فإننا نختبر في الحال ما إذا كانت الصورة التي رسمتها عنها البرامج التلفزيونية تعبر فعلاً عن الأوضاع السائدة فيها. وغالباً ما تنتابنا خيبة الأمل من جراء ما تبديه المجموعة السياحية من عدم مبالاة أو من جراء ما قد يصادفنا من باعة متجولين لا يتخلص السائح منهم إلا بمشقة الأنفس، أو من جراء ترميمات تعوقنا من الدخول إلى الأماكن التي تطلعنا لزيارتها بشغف كبير. كما ترهقنا الضوضاء ويزعجنا الجوُ الباردُ أو الإسهالُ. إلا أن خيبة الآمال هذه غالباً ما تؤكد توقعاتنا - لا سيما أن الكتب المؤلفة من قبل المرشدين السياحيين وصفحات الإنترنت قد أشارت بما فيه الكفاية إلى هذه السلبيات. من هنا، فإننا نلتجئ إلى ذلك العرين الذي يسبغ علينا الأمان الذي نجده في حياتنا المعتادة: نلتجئ إلى الحافلة المكيفة أو الفندق الراقي أو إلى المياه المنعشة في حوض السباحة.

إننا نجوب أرجاء فسيحة من العالم، ولكن ما مقدار إحاطتنا بحقيقة هذه الأرجاء؟ يكاد كل واحد منا أن يكون في طريقه إلى مكان ما، ولكن مَنْ هو ذاك الذي يرتحل فعلاً؟ مَنْ هو ذاك الذي يسوح حقاً؟ فالسياحة ليست بضاعة من البضائع التي يعرضها النادي الوطني للسيارات، إن السياحة أكثر من تغيير المكان - السياحة يمكن أن تنطوي على فعل يسمو على الأمور المادية، على فعل مساوٍ لنيل المعرفة واكتساب التجربة. إن مَنْ يسافر في أرجاء هذا العالم الفسيح هو فقط الذي يحيط علماً بالقيمة الحقيقية للإنسان، كما يقول مثل عربي من الأندلس.

إن أغلب الأديان تعتبر السفر أسلوباً صائباً للحياة، تعتبره وسيلة لإنعاش الروح، وسيلة لتنوير العقول وانشراح الصدر. وجاء في أحد كتب الهندوس، أعني كتاب آيتاريا برهمانا: "لن يسعد مَنْ لا يجوب العالم. فبمعية الجماعة يتحول حتى أفضل البشر إلى مذنب ... لذا عليكم بالتجوال! إن أقدام المتجول تشبه وردة ريانة: فروحه تنمو، وتقطف الثمار؛ وتحرق مشقته ذنوبه. لذا عليكم بالتجوال! فحين تكف عن التجوال، تكف السماء أيضاً عن إسباغ النعم عليك؛ فهذه النعم تنهض حين تنهض أنت نفسك، وتغفو حين تغفو أنت نفسك، إنها تتحرك حين تتحرك أنت ذاتك. إن الله ولي المسافرين. لذا، انهض وتجول." وعلى نحو مشابه لما كان يقوم به في سالف الزمن الرهبان الرحل من النصارى، يجوب اليوم الزهاد الهنود البلاد

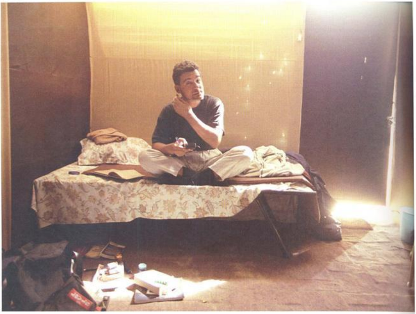
طولاً وعرضاً. هذا ولا يقضي المتزمتون منهم ليلتين في مكان واحد. فالاستيطان في مكان واحد يحمل في طياته كافة الذنوب، يحمل في طياته الجشع والأنانية والمادية والعنف وما سوى هذا كله من ذنوب أخرى كثير.

ويعثر المرء على ما يشبه هذه التقاليد والمعتقدات في الإسلام أيضاً. فالسفر أحد أنماط الحياة القويمة عند العلماء المسلمين. فالغزالي، الفقيه الكبير في العالم الإسلامي ومنظر المذهب الصوفي، غادر وطنه إيران وراح يتجول في ربوع بغداد ودمشق والقدس، هذا ناهيك عن رحلاته إلى مكة والمدينة لأداء مناسك الحج. أما ابن عربي، فقد غادر قرطبة ليذهب عبر اشبيلية وفاس وتلمسان وتونس والقاهرة والقدس ومكة وبغداد والموصل وقونية إلى دمشق حيث تم إعدامه بتهمة الهرطقة والإلحاد. وكان ابن خلدون قد سلك الطريق ذاته تقريباً وهو يتجول في ربوع العالم الإسلامي.

ولكن، ما هي التدابير الصحيحة التي ينبغي بالمرء أن يتخذها حين يروم التجول في أرجاء عالم صارت العولمة عنواناً عليه؟ ما هو الفرق بين بقائنا في مكان واحد بلا نفع يذكر والقيام بسفرة ما عاد واحد منها إلى وطنه المعتاد إلا وقد تغير بنحو ملموس من كثرة ما تعلمه في البلد الغريب؟ إنني كلما أفيض في إمعان النظر في هذا السؤال، ازداد اعتقاداً بأن الجواب على السؤال يكمن في ثلاثة عناصر لا غير، في ثلاث نصائح جوهرية وغاية بالبساطة في ذات الوقت، نصائح نادراً ما يصغي إليها المسافر. إن جوهر هذه النصائح يمكن إجماله بجملة واحدة مفادها: سافر لوحدك، سافر بلا أمتعة وسافر على قدميك. إن مَنْ يسافر بهذا النحو هو الشخص الذي عقد العزم على التفتيش عن ظلال الحقيقة القائمة.

وحسب ما كتبه ف. س. نايبول: "حين تتعرض حقيبتك لخطر ما، فإن هذا هو المؤشر الذي يُخبرك بأنك قد وضعت قدميك على أرض الهند." وإذا جرد المرء هذه الجملة من العنصرية الرهيبة التي اتصفت بها روح هذا الكاتب، فلا ريب في أن بوسع المرء أن يغير المقصود من هذا القول المأثور ليفهم منه أن تعرض الحقيبة إلى المخاطر يجسد في الواقع أعظم حسنات اللقاء بالبلد الغريب. فعندئذ سيكون المقصود هو محتوى الحقيبة، أي ذلك المحتوى الذي يتكون، بمعنى مجازي، مما في جعبة المواطن الغربي المعاصر من تحيز غير منصف وانتقاد لكل شيء وادعاء معرفة كل الأمور، أي ذلك المحتوى الذي يجسد ضياعُه حسنةً عظيمةً فعلاً. بيد أن الملابس التي يأخذها المرء معه في السفر تُثير له، هي الأخرى أيضاً، منغصات ومضايقات في البلد الغريب. فهي غالباً ما تؤكد صدقية كل تلك المزاعم التي لا قدرة للمرء على تفنيدها، أي أنها لا تمنح المسافر الفرصة المناسبة لأن يتميز عن أبناء جلدته بشخصيته وبملابسه، وبالتالي فأنه غالباً ما يكون عرضة لأن تنسحب عليه التعميمات السطحية الدارجة في البلد الغريب. ولهذا السبب فإن نصيحتي هي ـ سافر بأقل قدر ممكن من المتاع، فإن هذا يقلل من مقدار الهموم المقلقة والتحيز غير المنصف والتوقعات الزائفة.

وينطوي السفر مع مجموعة من الأفراد على مخاطر مشابهة. ولا أزال أتذكر بكل سعادة الساعات الكثيرة التي قضيتها في مدينة موبتي النيجيرية متجولاً بين أزقتها الضيقة، مستغرقاً في الحياة السائرة على سجيتها البسيطة، مسترق السمع لكل الأصوات الغريبة عني بالكامل. وعندما انحرفت عن الزقاق ودخلت زقاقاً آخر قابلتني فجأة مجموعة سائحين اكتظ بهم الزقاق فلم يعودوا قادرين لا على التقدم ولا على الرجوع إلى الخلف. ولأن هذه المجموعة قد أحدثت الكثير من الضوضاء والضجيج ـ من كثرة كاميراتها ونداءات مرشدها السياحي واختلاط أصواتها المضطربة ـ لذا فإنها ما كانت قادرة على التمتع برؤية المجوهرات التي زينت بها النسوة النيجيريات آذانهن ومعاصمهن. على خلفية هذا كله، لقد رثيت لهؤلاء السياح



إليا ترويانوف
Photo: Thomas Dorn

انشغالهم بأنفسهم وعدم تركيزهم على المشاهد الموجودة من حولهم. وأجبرتني هذه المعايشة على أن أعود بذاكرتي إلى مونغو بارك، المواطن الإسكوتلندي الذي كان قد عزم قبل ما يزيد على قرنين من الزمن على استكشاف النيجر وإزاحة الستار عن كافة مجاهله. وكان بارك، في رحلته الأولى إلى النيجر، وحيداً تقريباً؛ فلم يكن معه سوى مترجم واحد وخادم يسهر على تلبية متطلباته. وتتوجت هذه الرحلة بنجاح فائق وتجارب كان قد دونها في تقرير استقطب الأنظار بمادته الدسمة. وفي رحلته الثانية إلى النيجر كان بارك يقود ثلاثين جندياً بريطانياً إلى هذا البلد الواقع في غرب القارة الأفريقية. من هنا لا عجب ألا يعود بارك حياً إلى وطنه أبداً.

وعندما أمعن النظر في الكثير من تجاربي الشخصية يبدو لي الآن أن التجوال على القدم هو الأسلوب القويم للسياحة واستكشاف العالم الغريب. فالسير على القدم يعني أن المرء يظل يقظان متنبهاً لما من حوله. فالمرء يواجه، عندئذ، واقعاً حياً يعبر عن نفسه في كل حجر يدوس عليه بقدمه، واقعاً حياً يتجسد من خلال تزايد آلام الأطراف وعرق الجبين والوسخ مع كل خطوة يخطوها. وبهذا المعنى، فإن المسافر بالسيارة أو بالحافلة أو بالقطار أو بالدراجة البخارية يرى مناظر الطبيعة بعينيه. أما الذي يتجول على قدميه، فإن ذاك هو الذي يرى ما حوله بكل أحاسيسه وبكل جسده. أضف إلى هذا أن المتجول على قدميه يعطي السكان المحليين الانطباع بأنه على شبه كبير بهم. كما إنه يندرج في صنف الجوالين المرهقين، الذين يثيرون شفقة السكان المحلين في كل أرجاء العالم ويستفزونهم لأن يكرموهم عن طيب خاطر وتعاطفاً مع بلائهم في تحمل المشقات. أما من داخل السيارة فإن البلد الغريب يبدو دائماً بصورة مختلفة عن الصورة التي رسمها السائح في ذهنه من قبل وصوله إليه. وثمة شيء آخر لا مندوحة ليَّ من التأكيد عليه: لا تسافر إلى البلد الغريب ذهاباً وإياباً على جناح السرعة، بل اجعل من البلد الغريب موطناً ثانياً. ضع في ذهنك دائماً وأبداً أن الجذور لا تضرب في الأعماق إلا بعد مضي ردح من الزمن؛ وأصغي إلى قول الشاعر الصوفي الكبير جلال الدين الرومي: "سافر، يا صاحبي، من الأنا إلى باطن الذات". فسفرة من هذا القبيل تحول العالم إلى موطن غريب، معطاء عطّاء، إلى منجم للتبر.

ترجمة: عدنان عباس علي

إليا ترويانوف: مواليد بلغاريا عام ١٩٦٥. يقيم في ألمانيا ويُعتبر أحد أشهر أدباء جيله. تُرجمت روايته «جامع العوالم Weltensammler» إلى العديد من اللغات.

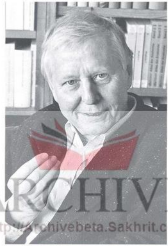
هانس ماغنوس إنسنسبرغر Hans-Magnus Enzensberger

الحنين الرومانسي للبعاد وإحباطاته

نظرية عن نشأة السياحة وتطورها

يعد السفر من أقدم ظواهر الحياة الإنسانية وأكثرها عمومية، إذ يمكن تقفي آثاره حتى في الأساطير البشرية الأولى. لقد ارتحل الناس على مدى الأزمان، فبأي حق يعزل ما نسميه السياحة نفسه تاريخيا ويعتبر نفسه مميزا عما كان موجودا دائما في السابق؟

كانت الفاقة، والظروف البيولوجية والاقتصادية القاهرة طيلة الوقت، هي ما يدفع البشر للترحال، فتنقلات البدو لها أسباب جغرافية ومناخية. كما أن الشعوب القديمة لم تكن تقوم بحملاتها الحربية لمجرد الرغبة في الترحال. التجار هم أول من قرروا السفر بمحض إرادتهم. في العبرية القديمة كانت كلمة «تاجر» مرادفا لكلمة «مسافر». باستثناء وحيد (سيشغل اهتمامنا لاحقا) كان السفر من البداية وحتى القرن الثامن عشر شأنا خاصا بالأقليات الصغيرة، وخاضعا لأغراض معينة وملموسة. الجنود ورسل البريد ورجال الدولة والعلماء والطلاب والشحاذون والحجاج والمجرمون، كانوا هم من يرتادون طرق الترحال، وأخيرا وليس بآخر، التجار ببضائعهم من توابل ومُر، وذهب وحرير، وأسلحة ولآلئ.



هانس ماغنوس إنسنسبرغر

Photo: Isolde Ohlbaum

أما السفر لأجل السفر، أو باعتباره مغامرة فلم يكن معروفا إلى أواخر القرن الثامن عشر. وحتى عوليس بطل الإوديسا والتجسيد الأسطوري لكل الرحالة في العصور التالية، كان يُنعت في الملحمة بـ «المثابر العظيم» الذي ضل طريقه بعد تدمير طروادة المقدسة ورأى الكثير من المدن والناس وتعلم عادات كثيرة وعانى من مشاق جمة في ترحاله البحري... وحتى عندما جاء العام الذي قدرت له الآلهة أن يتوجه صوب موطنه إيثاكا، لم يعن ذلك أن البطل أنهى رحلته المضنية، ولا وصل حتى إلى ذويه. ولذا تتحسر عليه الآلهة: "الصبور الجَلِد الخائف.. الذي ظل طويلا بعيدا عن ذويه، اعترته الكآبة ولا ينشد سوى رؤية الدخان يتصاعد من تلال إيثاكا، ثم يموت بعدها." (هوميروس، الأوديسا، النشيد الأول).

البعاد نفي، والسفر تيه، «الرحلة المضنية» منفى وستظل كذلك حتى إلى أيام روبنسون كروزو. الحنين المشبوب للبعاد ضرب من الرومانسية. والبريق الذي يغلف شخوص الفترة البطولية للاكتشافات الجغرافية ليس سوى خداع نظر. يكتب الإنكليزي كاديش الذي يعد من أوائل من طافوا حول العالم بحرا، بعد عودته: "أتاح لي الرب القدير، أن أجوب الكرة الأرضية بأكملها... في هذه الرحلة اكتشفتِ كل بقاع العالم الغنية التي لا يدركها إلا أتباع المسيح، أو على الأقل حصلت على معلومات أكيدة عنها. لقد أبحرت بطول سواحل شيلي وبيرو وإسبانيا الجديدة وجمعت غنيمة كبيرة. أحرقت وأغرقت تسع عشرة سفينة شراعية، صغيرة وكبيرة. وقمت بنهب وحرق كل القرى والمدن التي نزلت ببرها".

لكن إسقاط التخيلات والأحلام الخاصة على المكتشفين والغزاة جاء في فترة ما بعد رومانسية. فهدف هؤلاء المكتشفين لم يكن إشباع حنينهم لشيء ما، بل كان شيئا ملموسا بقدر أكبر، لقد كانوا أداة للسياسة. ولاحقا أضفت عليهم السياحة هالة، أحاطت بها نفسها في بداياتها.

خلال القرن الثامن عشر بدأت الغرضية الصارمة المرتبطة بالأسفار تتراجع. بل وقبلها كانت رحلات النبلاء إلى بلاط الملوك والأمراء مرحلة من مراحل تثقيفهم، وفي

الطبقات الراقية صارت الرحلات إلى المتجعات للعلاج أمرا معتادا. وكان هذان الدافعان للسفر قد فقدا في تلك الفترة شيئا من جديتهما وأهميتهما، ولا تزال تأثيراتهما على تطور السياحة ملموسة إلى يومنا هذا، برغم أن الغرض التثقيفي قد تغير تماما. فبالنسبة للنبيل الشاب كان العالم، الذي يسعى للتعرف عليه هو المجتمع الراقي، وليس الآثار الثقافية المتعارف عليها حاليا. كما يشهد التقدير الكبير لأماكن سياحية كبادن بادن أو سبا أو إيكس ـ لي ـ بان على استمرار تأثير الرحلات إلى هذه المنتجعات في الماضي، حتى وقتنا الحاضر.

وعموما فقد قدم أحد ممثلي الاقتصاد الوطني، الذي كان لا يزال فرعا علميا ناشئا، في عام ١٧٩٢ اقتراحا جديا بفرض ضريبة على السفر. وبرر ماربرغر وهو أحد أنصار النظرية المركانتيلية في مقالته «ملاحظات عن السفر إلى بلدان أجنبية» مقترحه بأن المسافرين يحملون أموال البلاد إلى الخارج. وهذا القلق يجعلنا نستنتج أن حركة المسافرين قد بدأت في الازدياد في تلك الفترة. مع ذلك فالسفر بغرض الاستمتاع المحض لا يرجع إلى عهد بعيد، فدليل الرحلات الأوسع انتشارا في أوروبا في تلك الفترة Guide des Voyageurs من تأليف رايشارد لا يتطرق إلى المناطق ذات الطبيعة الخلابة ولا إلى المعالم السياحية، بل يقدم وصفا مجردا لأقصر الطرق وشبكات البريد والأسعار وإمكانيات المبيت وتعليمات السلطات المحلية، وباختصار فهو ينظر إلى السفر باعتباره شرا لا بد منه. لذا لا عجب أن يشعر المسافر بالإنهاك التام بعد يوم سفر على طريق البريد، هذا إن وصل إلى غايته بسلام. وينصح رايشارد المسافر بضرورة أن يحمل معه مسدسين محشوين بالطلقات. وقد ظهر كتابه بعد عشر سنوات من نشر مسرحية «اللصوص» لشيلر. كما كانت هناك أدلة أخرى تنصح المسافر قبل بدء رحلته ومن أجل نهاية سعيدة لها أن يقيم قداسا في الكنيسة. فعمليات السطو على طرق السفر لم تكن شيئا غير مألوف. وبعد ذلك بأربعين عاما شهد السفر تحولا كبيرا، ألا وهو ولادة السياحة. طاف الإنكليزي جون موراي بالقارة لجمع مادة لكتابه الأساسي، الذي ظهر عام ١٨٣٦ واكتسب شهرة كبيرة، فالكتاب الأحمر الأول يصف المعالم السياحية لهولندا وبلجيكا ومنطقة الراين وينصح السائح بالطرق الرومانسية ذات المنظر الجميل. وإلى جانب كونه من أنبياء السياحة الأوائل فقد اخترع موراي نظام تقييم المنشآت السياحية بالنجوم، وأن تُقدر أسعارها على هذا الأساس. وبعد ذلك بثلاث سنوات أصدر كارل بيديكر دليله الأول لمنطقة الراين. وبذا صار للحركة الجديدة كتبها «المقدسة» وبدأت تحقق انتصاراتها الأولى.

ولم تأت هذه الانتصارات من فراغ. بل نشأت نتيجة لوضعية تاريخية معينة. ويكفينا هنا أن نعرض للعناصر المكونة لهذه الوضعية. ويمكننا أن نترك السؤال عن أيٍ من هذه العناصر كان هو السبب الحاسم وراء هذا التطور، بلا إجابة. سنقوم بعرض الموقف التاريخي الذي انبثقت منه السياحة بوصفه ظاهرة ذات ملامح سياسية واجتماعية واقتصادية وتقنية وفكرية، والطابع الثوري هو العنصر المشترك بين كل هذه الجوانب.

رسخ انتصار الثورة البرجوازية لدى الفرد وعيا بحريته سيتحطم على يد المجتمع الذي نشأ داخله. فأي خرق ثوري لجدار نظام المجتمع ينغلق ثانية مخلفا ذكرى، لا تستطيع الرضا بعملية الترميم: ندبة تظل باقية في الوعي، ولا يمكن لها أن تشفى تماما دون أن تخلف أثرا. كانت الثورة السياسية معادلا لثورة في طريقة الإنتاج. نظمت الطبقة الحاكمة الجديدة أي البرجوازية عالم العمل والسوق العالمي المرتبط بها. وإن لم يكن للوضع الجديد تأثير مباشر على تحقيق التجانس الاجتماعي، فقد كان أثره جليا على تحقيق التجانس المكاني. فقد أتاح التطور التكنولوجي وخصوصا اختراع السكك الحديدية والبواخر للرأسمالية أن توسع شبكة مواصلاتها بالشكل الذي يحقق التجانس المكاني المطلوب.

ومن هنا يمكننا فهم الاستثناء التاريخي الذي تحدثنا عنه في البداية. هذا الاستثناء هو روما في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية، ففي القرون الأخيرة من عهد الإمبراطورية كان هناك بالفعل سياحة سبقت السياحة المعاصرة. ويذكر فريدلندر في كتابه «تاريخ العادات الرومانية» أن عدد المسافرين في أوروبا حتى مطلع القرن التاسع عشر لم يتجاوز عدد المسافرين في تلك الفترة. كان الساحل الغربي الإيطالي من شواطئ توسكانا حتى خليج ساليرنو مرتعا للسياح. واستقبلت النزلاء فيلاتٌ مبنية من الرخام وفنادق فاخرة. اليونان ورودوس وآسيا الصغرى ومصر كانت هي أماكن الاستجمام المفضلة. وكانت هناك رحلات سفن منتظمة ومكاتب للسفر وللصرافة ومهرجانات بل وكان الاهتمام بالمتاحف الذي يعد سمة مميزة للسياحة المعاصرة، موجودا في تلك الفترة.

من هذا المنطلق يمكننا مقارنة مبادئ السياحة القديمة بتلك المعاصرة. في المجتمع الروماني فرض توجه نحو قدر معين من المساواة نفسه وأصبح إلى حد ما شائعا. الملامح الرأسمالية لهذا التوجه معروفة. فالظروف السياسية وكذا الاقتصادية تطلبت تحقيق التجانس المكاني داخل الإمبراطورية. وتم التوصل لذلك تقنيا من خلال بناء شبكة الطرق الرومانية الضخمة التي لا يزال من الممكن ليومنا هذا تعقب آثارها حتى حدود الإمبراطورية في كل أنحاء أوروبا. في المقابل تغيب الملامح الثورية عن صورة السياحة

الرومانية. إنها سياحة أقلية. فلم تكن الدوافع السياسية ولا التكنولوجية كافية لانتشارها وتعميمها على الجميع. خصوصا وأن الجذور الفكرية لهذه السياحة لم ترسخ بالعمق نفسه الذي ترسخت به جذور السياحة الحديثة.

إنها تعود في منشأها إلى الحركة الرومانسية الفرنسية والألمانية. وقد استطاع كتاب مثل غراي ووردسورث وكوليريدج وبايرون وروسو وشاتوبريان وسويم وأيشندورف وتيك وفاكنرودر وشاميسو وبوكلر أن يصوروا الحرية التي يتهددها الاختناق تحت وطأة واقع عالم العمل الرأسمالي الناشئ والإصلاح السياسي. فقد تمكنت مخيلتهم من كشف الثورة والحفاظ عليها في الوقت ذاته. لقد أتاحت للحرية أن تسمو وتتجلى بعيدا في عالم الخيال، حتى أصبحت مقترنة مكانيا بالطبيعة البعيدة عن الحضارة، وزمنيا بصورة من الماضي، تحولت إلى تذكار وفولكلور شعبي. هذه المنطقة العذراء وهذا التاريخ البكر ظلا إلى يومنا هذا النموذج الذي ترتكز عليه السياحة. فهي لا تعدو أن تكون محاولة لمعايشة تحقق الأمنيات الخيالية التي حاكتها الحركة الرومانسية. وكلما ازداد انغلاق المجتمع البرجوازي كلما كثف المواطن جهوده للهروب منه في صورة سائح.

أصبح الهروب من الواقع الذي صنعه المرء بنفسه أسهل من خلال وسيلة الاتصال ذاتها التي استعان بها في خلق واقعه. فالولع المحموم الذي رافق توسيع شبكة السكك الحديدية الإنكليزية في القرن الماضي، لا يرتبط فقط باجتهاد الرأسمالي المغامر، إذ يكشف هذا الهوس بالقطارات الرغبة الشديدة لدى الناس في الهروب من مناطق السكن والعمل التي أنتجتها الثورة الصناعية. وبتثبيت شبكة التي الاتصالات التي بدت وكأنها متاحة للسائح عاد المجتمع سريعا للانغلاق على نفسه. تسبق السياحة دائما مبررات دحضها، مثلما في حكاية السلحفاة التي تنتظر في استهزاء الأرنب اللاهث عند خط نهاية السباق. هذا الجدل هو محرك تطورها، فهي تضاعف جهودها



مطار *Ho-Yeol Ryu*، ٢٠٠٥

Digital print. Courtesy Ho-Yeol Ryu.

مجددا بعد كل هزيمة دون أن تترك مستسلمة هذا السباق من أجل الحرية.

ويدل السبق الذي تمتع به السياح الإنكليز مقارنة بنظرائهم من الأمم الأخرى خلال القرن التاسع عشر على الارتباط الوثيق بين تطور السياحة والمجتمع الصناعي، فقبل منعطف القرن كان الإنكليز هم السياح بجدارة (بين عامي ١٧٦٠ و ١٧٧٠) قام ما لا يقل عن أربعين ألف إنكليزي لأشهر وسنوات عدة برحلات ترفيهية وفنية داخل القارة الأوروبية. وافانا فيلهلم ترويه بتفاصيل أكثر عن هذا الموضوع في كتابه «التاريخ الثقافي للحياة اليومية» الصادر عام١٩٥٢.



وتشهد رحلات الشاعرين كيتس وشيلي على هوسهم بالأسفار وكذلك الدور الريادي لبايرون الذي يعد النموذج الأصلي للسائح الحديث. ولا يزال تعبير Lordoi في بعض المناطق الريفية باليونان هو الكلمة الدارجة للسائح. وقد اكتسبت سويسرا شهرتها المبكرة كبلد سياحي بفضل الإنكليز.

وقد لعب متسلقو الجبال دورا محوريا في تاريخ السياحة، فبداية تسلق جبال الألب يعود إلى عام ١٧٨٧، إذ كان سوسير أول من تسلق جبل مون بلان. لكن بعد ذلك بسبعين عاما بدأ العصر الذهبي لمتسلقي جبال الألب، وكان الإنكليز هم الرواد في هذا المجال. فقبل مئة عام بالضبط أسس إدوارد كينيدي نادي الألب وهو أول اتحاد لمتسلقي الجبال، وكانت مبادرة إنكليزية.

ويكمن الدور المحوري لمشروع تسلق جبال الألب في أنه يجسد الإيديولوجية الرومانسية الخالصة للسياحة، فهو يعتمد على ما هو «بدائي» و «بكر» وعلى «المغامرة». وبغض النظر عن اسم الهدف، لا يتغير شيء في المسار الجدلي للأمور، فبالوصول إلى الهدف يتحطم. وليس من قبيل الصدفة أن ترتبط غاية السياحة بطرق وأساليب المسابقات الرياضية. ذلك أن ما هو بكر وغير ملموس لا يصبح حاضرا إلا في لحظة ملامسته، ولذا فإن الظفر دائما للأول. وهكذا يتحول السفر إلى سباق من أجل أن تكون أول من تسلق هذا الجبل أو لتحقيق رقم قياسي. بشرفه يراهن فيلياس هوغ بطل رواية جول فيرن على قدرته على أن يجوب العالم في ثمانين يوما. ولا تزال الأقمار الصناعية التي نطلقها في الفضاء تقلده بل وتسبقه.

كذلك يتحول المشاركون في رحلات كشفية إلى سياح. وهم يكتسبون وهم علي قيد الحياة تلك الهالة الرومانسية التي أضفيت لاحقا على المكتشفين الأوائل، فكما يولع متسلقو جبال الألب بالقمم التي لم يبلغوها بعد، ينبهر الباحثون بالبقع المجهولة على الخريطة. وقد جعل القرن الماضي من إزالة الغموض عن تلك البقاع مهمة له. وقد أُحتُفِي بالرجال الذين قاموا بتلك المهمة من ليفنغستون وحتى هيلاري كأبطال. وذلك على النقيض من التهكم والاستهزاء الذي حصده ماركو بولو في القرن الثالث عشر من مواطنيه في البندقية، حيث لم يفهموا الباعث الذي دفعه للذهاب إلى تلك المناطق التي يصعب الوصول إليها، ولذلك اعتبروه محتالا. في حين يعد الروس العدة حاليا لاستكشاف القطب الجنوبي الذي يتميز بسمة أساسية واحدة ومجردة وهي استغلاقه على المستكشفين. لقد أصبح ما هو بكر وغير ملموس مادة للأسطرة الإيديولوجية. لكن أكثر البعثات الاستكشافية إنهاكا وأبعدها تكتسب في يومنا هذا طابعا سياحيا، وحتى قبل وصول أول إنسان إلى الفضاء، كان ثمة من لديه اهتمام سياحي بغزو الفضاء.

وقد أدرك المكتشفون الرواد أن الأمر لا يقتصر فقط على دورهم البارز، فالمجتمع الذي يمثل مصالحهم كان يسعى لتحقيق مصالحه. فمن يمنحهم المجد كان يسير على خطاهم. وقد أسبغت عليهم البرجوازية الراشدة هالة قدسية، كانت تأمل في تحقيقها بنفسها من خلال الاعتماد على تكرار أفعالهم، وهذا هو ما يسمى بالسياحة. ومن المفترض أن يطالب الجميع في القريب العاجل بهذه الحرية المتحققة في مرتفعات الألب بسويسرا أو وسط الجليد القطبي أو الغابات الاستوائية كحق جديد من حقوق الإنسان.

لكن السياح الذين ساروا على خطى الرواد لم يكونوا على استعداد لدفع الثمن الباهظ للحرية. فهذا الحق الإنساني الجديد في الابتعاد عن الحضارة والتحرر منها، اتخذ السمات المسالمة لرحلة العطلة. إلا أن السياح لا يزالون يؤكدون بلا وعي على قيم المغامرة والبدائية والبكارة في رحلاتهم. وعلى الأماكن السياحية أن تجمع بين صفات كسهولة الوصول إليها ووعورتها في الوقت ذاته، وأيضا بين بعدها عن الحضارة وتوفيرها لسبل الراحة. فبالاستعانة بحافلة البولمان سيعبر المرء الصحراء وفي عربة قطار النوم سيمر المرء بالبوادي الجليدية في لابلاند الفنلندية. يتم تصوير القطب الشمالي بارتخاء من طائرات الرحلات الاستكشافية. وفي صحراء تامالويباس المكسيكية تتبخر تجربة الصيد البري أمام النظرة الباردة للمهندس بطل رواية ماكس فريش «هومو فابر». وكما هو الحال دائما لم ينل الجميع هذا الحق الإنساني الجديد، بل وصل للطبقة التي اخترعته وفرضته، أي البرجوازية المستقلة التي تتعيش من أملاكها، لكن إذا ما تمت المطالبة بهذا الحق لمرة واحدة، لا يمكن أن يصبح معزولا بعيد المنال. وهو يؤثر أيضا على خلط وتجانس المجتمع. ثمة تأثير متبادل ما بين التوجه نحو المساواة التي ساهمت البرجوازية في إنجاحه ثم في أفوله فيما بعد، والإمكانيات المتعددة التي أتاحتها وسائل المواصلات الحديثة، فتوفر الشروط اللازمة للسياحة له في الوقت ذاته آثاره، وهذه الآثار هي شروط لانتشارها، مثل التيار الكهربي الذي يسري في حقل مغناطيسي داخل دائرة مهتزة إذ يقوي كلا من التيار الكهربي والتيار المغناطيسي بعضهما البعض. وقد امتد تأثير السياحة بعد البرجوازية الكبيرة ليشمل طبقات أخرى كالموظفين والحرفيين والبرجوازيين الصغار. ويمكن لنا أن نحدد بدقة العلاقة بين وضعية القوى المنتجة وتطور السياحة.

وهنا أيضا تأتي إنجلترا في المقدمة. فقد نظم توماس كوك، وهو بستاني ونجار، في عام ١٨٤١ الرحلة الأولى لأعضاء

جمعيته الرافضة لتعاطي الخمور وكانت بين لوبورو وليستر. وبعد أربع سنوات أسس مكتبه السياحي الذي تحول خلال ثلاثة عقود لمؤسسة عالمية. في حين تأسس أول مكتب سياحة في ألمانيا في عام ١٨٦٣، أي بتأخير زاد عن عشرين عاما. وتميز هذا المكتب الذي أسسه لويس شتانغن بأنه يخدم فقط ما يسمى الأوساط الأرقى. رحلته الأولى التي نظمها كانت إلى منطقة «سويسرا السكسونية» بشرق ألمانيا، لكن بعد عام من تأسيس المكتب، عرض شتانغن تنظيم رحلات إلى مصر وإلى الأراضي المقدسة. وعلى النقيض كانت رحلات توماس كوك تلبي من البداية حاجات الجماهير العريضة من البورجوازية الصغيرة. ولم يتواجد في ألمانيا مثل هذا الجمهور الذي كان يتعامل مع السفر «بلا غرض محدد» باعتباره حاجة في حد ذاته، إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

وظل الفلاحون وحدهم هم الاستثناء من الانتشار المحموم للسياحة، وهم الطبقة الاجتماعية الوحيدة التي تعارض حتى اليوم إيديولوجيا السياحة وطريقة ممارستها، على عكس الطبقة العاملة التي أصبحت في نهاية المطاف قادرة على تحمل نفقات الرحلات السياحية. ولم يتحقق ذلك إلا بعد الحرب العالمية الأولى حيث كافحت من أجل الهروب، ولو ظاهريا، لبضعة أسابيع من ضغوط عالم العمل الصناعي. وفيما وجد صاحب الشركة والمدرس والموظف والطبيب والحرفي ورجل الأعمال في السياحة فرصة للفرار من ظلمة مدن كبرمنغهام وغلاسغو وفوبرتال وبوخوم، بقي فيها أصحاب المعاناة الحقيقيون، أبناء التجمعات الأولى الذين أسرتهم المدينة داخل المساكن الشعبية البائسة. وإلى يومنا هذا لا يوجد في العديد من البلدان، ومنها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، قانون عام للإجازات. ولم تدخل الإجازات المدفوعة ضمن اتفاقيات تعرفة الأجور بين أرباب العمل والنقابات إلا بعد الحرب العالمية الأولى. وحتى في عام ١٩٤٠ لم يحصل سوى ربع العمال الأمريكيين على إجازات مدفوعة. وفي عام ١٩٥٧ وصل هذا العدد إلى ٩٠ في المئة. التنظيم القانوني للإجازات موجود في ألمانيا وفرنسا والدول الاسكندنافية.

كان النضال من أجل الحصول على الحق في الإجازة مضنيا، واستمر عبر العقود. ومع كل انتصار جزئي يتحقق كانت الرغبة في السفر لقضاء العطلات تزداد. وحيثما تنامت الضغوط من أجل الخروج من المدن الصناعية إلى الفضاء الرحب للعطلات، كلما تنامت بنفس القدر ضغوط عكسية. ففي إنجلترا ذات الكثافة السكانية العالية جدا، صارت أماكن مثل برايتون أو بلاكبول ذات السمعة السيئة مرادفا للطوفان البشري، حيث تكاثف المصطافون الباحثون عن الاستجمام - حتى قبل الحرب العالمية الثانية - على الشطآن وتلاصقوا في زحام فاق زحام العشوائيات، وكانت قطارات العطلات مزدحمة كقطار الأنفاق في أوقات الذروة.

لقد تبين منذ وقت طويل أن انتصار السياحة كان باهظ الثمن وأن هذا الحنين للبعاد من أجل التحرر من المجتمع، وقع مجددا في أسر المجتمع الذي يهرب منه. تحول التحرر من العالم الصناعي إلى صناعة، والسفر بعيدا عن عالم السلع أصبح نفسه سلعة. وعندما يقارن ناقد مثل غيرهارد نيبل جمال مدن صناعية كبوخوم ونوتينغهام بما أسماه «خرابات» إنترلاكن ومونترو (رغم كونها منتجعات سياحية)، فهو يحاول بذلك فقط مقارنة ظاهرة من ظواهر عالم العمل بظاهرة أخرى ناتجة عنها ومكملة لها، وفي المقابل يمكننا بالمنطق ذاته أن نحقر من شأن مصنع للصلب عندما نقارنه بمنجم للفحم.

إن تطور السياحة هو في الوقت ذاته تطور سيطرتها، ويظهر ذلك جليا في ثلاثة إنجازات، كلها ضرورية لتطور أي صناعة كبرى: التنميط والتعبئة وخلق سلاسل الإنتاج.

بدأ تنميط الأماكن السياحية مع اختراع الدليل السياحي، فكتاب موراي الأحمر، الذي ألفه عام ١٨٣٦ يقوم بتوجيه فلول السياح إلى قنوات معينة. هذا التوجيه يخضع له السائح في البداية طوعا. ومن خلال الكتاب تتم تهيئته نفسيا للرحلة، لكن تبقى التهيئة الجسمانية. العنصر الأساسي المنمط في الرحلة السياحية هو المعلم السياحي ويتم تقديره حسب قيمته بنجمة أو نجمتين أو ثلاثة نجوم.

ويتطلب منا مصطلح المعلم السياحي الذي يتمتع بأهمية كبيرة لدى السياح تحليلا دقيقا، فبسببه يأتي إحساس السائح بوخز الضمير. فهو يدحض فكرة لا غرضية الرحلة التي تضمن الحرية المنشودة، فالمعلم السياحي ليس جديرا بالمشاهدة فقط، بل إن مشاهدته واجبة. المعلم السياحي هو ما يفترض أن يكون المرء قد شاهده. وبأداء هذا الواجب يكفر السائح عن الذنب الذي ارتكبه سرا بهربه من المجتمع. ويقر من خلال طاعته أنه لا يتحمل الحرية التي ادعى أنه سعى إليها.

ما يتم تغليفه على أنه معلم سياحي هو صور البعيد الذي يتم عرضه على أنه الطبيعة الرومانسية والتاريخ. هذه الصور تتقلص لتصبح حديقة حيوان أو حديقة نباتية هنا، ومتحف هناك. إذا أراد السائح بالاستعانة بدليله السياحي مشاهدة روما القديمة باعتبارها حديقة حيوان التاريخ التي يستطيع فيها رؤية وحوشه دون أي خطورة وبلا عقوبة، فسيضع له الدليل نجمتين على المكان باعتباره جديرا بالزيارة. واليوم ينظم له مكتب السياحة رحلات لصيد الجاموس الوحشي في أفريقيا أو صيد النمور في الهند أو الأيائل في لابلاند بفنلندا. على صورة لرحلة صيد برية في

ناميبيا يشرح أستاذ علم الحيوان معالم حديقة إتوشا الوطنية، وأمام المشاركين في جولة سياحية إفريقية تستغرق أربعة وعشرين يوما، يرقص أفراد من قبائل التوتسي والزنوج ذوي الشفاه المثقوبة، فيما يعلق باحث إثنولوجي على الرقص. وفي غاليريا دي أوفيتسي بفلورنسا بإيطاليا تنصت فتيات الكلية في رصانة إلى شروح مؤرخ الفن. في أيامنا هذه يفوق الطلب على المعالم السياحية المعروض المطروحة. وإن كان القرن الماضي يعتمد على الأماكن المكتشفة والمتاحف وحدائق الحيوان كأماكن تستحق الزيارة، فإن العصر الحالي ينتج معالم مخلقة حسب الحاجة. وكل ما يجذب السائح يقدم إليه، بدءا من من إقامة المهرجانات وحتى تقليد خيام بوادي لابلاند الجليدية.

ويتخلص المعلم السياحي أخيرا إلى ذاته عند تجريده، حيث تزول عنه كل العناصر الغريبة عنه، ليصبح كيانا سياحيا مطلقا. في شمال ولاية كنساس الأمريكية غير بعيد عن الطريق السريع رقم ٢٨١ ثمة غابة صغيرة معتنى بها، تحيط بصخرة وعلى الصخرة كُتب: هنا المركز الجغرافي للولايات المتحدة الأمريكية. وتزدحم الطريق المؤدية إلى هذه الصخرة دون غيرها بعربات السياح، إذ أصبحت زيارتها ضمن نمط رحلاتهم المألوف.

لكن العناصر المنمطة لا تكفي وحدها لتحويل الرحلة إلى منتج مصنع، إذ لا بد من تعبئتها وما يمثل هذه الخطوة جيدا هو اختراع تذاكر السفر وبونات أو فواتير السفر والإقامة. هذه الفكرة أيضا تفتق عنها ذهن العبقري توماس كوك في عام ١٨٦٨. واستطاعت شركته أن تنسج للسائح خط سير مترابط من المعالم السياحية وعملت على ضمان صرف تلك الفواتير، التي تعطيه الحق في زيارة هذه الأماكن وفقا لخط السير المحدد. ومنذ تلك اللحظة أصبحت الرحلة السياحية جاهزة ومعبأة. تحولت المغامرة إلى عقار جاهز تنتفي عنه أي مخاطرة. لكن الصناعة لم تقنع فقط بمنتج منمط ومعبأ. كان تجهيز الرحلة بشكل فردي ولأفراد معدودين مكلفا. وككل سلعة استهلاكية كان من الضروري خلق سلاسل إنتاج كبيرة لتتمكن صناعة السياح من ترسيخ مكانتها في السوق. وذلك يعني أن تتوسع. وقد توجت السياحة انتصارها باندحار مغزاها الإنساني عبر اختراع الرحلات الجماعية المنظمة. ومن سيكون مخترعها سوى توماس كوك المجتهد؟ وهو لم يكن على علم بما اقترفه. لقد سخر حماسه التبشيري الذي قاوم به إدمان الكحول في السابق، للسياحة. ولم يجد خلقه

NL Architects, Plugin City, 2007
Courtesy NL Architects, Amsterdam.



المحافظ أي تناقض بين عمل الخير وبين الصفقات الرابحة. ونظم عام ١٨٤٥ أول رحلة جماعية بغرض المتعة السياحية. وكانت تعد بمثابة غزوة ناجحة. لقد أعدها بشكل جيد. وقام مسبقا بزيارة كل الأماكن التي كانت متضمنة في الرحلة. وحصل أعضاء المجموعة على برنامج مطبوع يتضمن معلومات وافية عن الرحلة. واُستقبلوا لدى وصولهم إلى المكان بدقات الطبول والألعاب النارية. لقد أتم اختراع سياحة المجموعات السياحية وسائل الإنتاج لدى صناعة السياحة، ولم يعد هناك ما يعوق إنتاجها على نطاق كبير. وفي سبعينيات القرن التاسع عشر انطلقت أول رحلة جماعية منظمة حول العالم.

كانت السياحة تهدف في الأصل إلى خلاص أنصارها من أسر المجتمع، فصار المجتمع يرافقهم في رحلاتهم. من وجوه جيرانهم عرف المسافرون على الفور ما كان في نيتهم نسيانه. يعكس سفر المرء في رحلة، ما خلفه وراءه. مذاك الحين صارت السياحة مرآة للمجتمع الذي تنفر منه.

وتُظهر تلك المرآة، وبشكل لا يمكن تجاهله، هذا الانتقال من مرحلة الرأسمالية الكلاسيكية إلى الرأسمالية المتأخرة، ومنها إلى الحالة الشمولية للمجتمع. ما هو بكر يتم «غزوه» رأسماليا ثم «مهاجمته وإفناؤه» شموليا. هنا تظهر التشبيهات العسكرية. تسخر السياحة من التعبئة العسكرية العامة، فمقارها الرئيسية تشبه قيادات الأركان التي يتم فيها حساب تحركات القوات بشكل مسبق. وإن كان الدليل السياحي في الأيام الخوالي إنسانا خدوما، فإن سمة الرئيس أو القائد يرتسم في يومنا هذا على وجه المرشد السياحي، برغم أن هذا لا يعني بأية حال أنه يقدم بأوامره تلك خدمات أقل، فالشخص المأمور، أي السائح يدفع له لأجل ذلك. أما قائد المجموعة السياحية فيتقمص ملامح قائد رتل من الحافلات يهاب الجميع سلطته ويسعى بالقدر نفسه لإرضائه. وفجأة تحولت رحلات «القوة من خلال الفرح» التي كانت تنظمها وكالة السياحة النازية إلى تسفير قسري، وخلف معسكرات العطلات نشأت أبراج حراسة غير مرئية للمعسكرات الأخرى التي يتحمل عصرنا مسؤوليتها.

لقد كان النبض الثوري الذى جعل من السياحة ظاهرة عالمية مصابا بالعمى بحيث لم يتمكن من اكتساب الفطنة في جدليته، وقويا جدا بحيث لم يرض بالفشل الذي هو مآله. تحاول السياحة بإصرار ومن خلال محاولات انطلاق جديدة الخروج من الدائرة المفرغة التي هي قانون حياتها، وبذا تسعى للتخلص من القيود المكبلة للحرية. ودائما ما تفشل في ذلك.

وتعتبر حركة الشبيبة الألمانية التي انطلقت في أواخر القرن التاسع عشر هي أكثر ما يعبر عن هذه المحاولات. احتجاجا ليس فقط على عالم الكبار الذين كانوا يمثلون المجتمع في نظرهم، بل وأيضا على الوسائل السياحية التي كانت ثمارها



الظاهرية قد بدأت في الظهور، تخلى هؤلاء الشباب بحزم عن وسائل الراحة وانطلقوا إلى رحلاتهم حاملين حقيبة ظهر وحلة للطهي وخيمة للمبيت. هذه هي الوسائل التقنية للترحال التي حددتها الشبيبة في برنامجها. لقد اصطنعت الظروف القاسية للمغامرة «الحقيقية». وقد أدى إخلاصهم الشديد للتصور الرومانسي للحرية، وكأن شيئا قبلهم لم يكن، إلى دحض هذا التصور، فالهرب من الطابع السطحي للسياحة جعل هذه الحرية التي سعت لها الشبيبة أكثر سطحية، وصارت مثل قشرة جوز خاوية يمكن حشوها بأغراض فاشية، فالتحرر المزعوم لرحلات الشبيبة الهتلرية كان يندرج تحت القانون نفسه الذي حكم الرحلات الأخرى التي قادت المشاركين فيها فيما بعد إلى ستالينغراد وسيبريا.

في المقابل ظلت هناك حركة أخرى تعارض شذوذ السياحة وهي أخف في طبيعة احتجاجها ولم يكن ثمة ضرر يترتب على فشلها، قناعها الإيديولوجي كان يشبه حركة الشبيبة، ألا وهي حركة المعسكرات فكان من شعاراتها الارتباط بالطبيعة والبعد عن الحضارة والتحرر من القيود. لكن هذه الشعارات التي كان يروج لها منتجو لوازم المعسكرات، كانت تتداول دون نزوع نحو التطرف، بل ويتم تقبلها دون أي تأثر كما هو معتاد كرد فعل على شعارات الإعلانات.

ومع تنظيم الشرطة للمعسكرات الخلوية وتحديد أماكنها ووضع اللوائح وتعيين مشرف لها ومع دخول المياه الجارية ومقابس الكهرباء من أجل ماكينات الحلاقة صارت حركة المعسكرات بلا معنى. وفي وقتنا هذا أصبحت حركة عفا عليها الدهر، إذ صار الناس يقضون عطلتهم في شاليهات أو أكواخ صغيرة. إذاً لم يطرأ أي تغيير على الجوهر الإشكالي لموضوع الرغبة في التحرر.

أما محاولة اختراق الحدود الموجودة في كيان السياحة ذاتها، فقد بدرت من وكلاء سياحيين وسياح أذكياء أرادوا القضاء على الطابع المقدس والاحتفالي للمعلم السياحي وإحلال التجربة الحية مكانه، أن يعايش السائح الواقع الحقيقي للناس الذين يزورهم وهكذا أصبح هذا الأمر هدفا جديدا للاهتمام السياحي. ويتمثل الجانب التجاري لهذا العرض السياحي الجذاب، في جعل تجربة عيشة الفقراء فضيلة يتهافت السياح عليها. لكن هذا المسعى ينطوي أيضا وفقا لجدلية السياحة على عوامل فشله. فالفضيلة التي يُروج لها، تفرغ من معناها بمجرد القيام بها. فالسياحة هي آخر من يروج لحياة الفقراء. طوال الفترة التي كان السفر يعد فيها تيها ومنفى، كان كرم الضيافة بمثابة ضمان لحق اللجوء. لكن عندما صار طوعيا ومن أجل المتعة غُلقت الأبواب، وارتفع بنيان قلاع السياحة، أي الفنادق.

تاريخ السياحة هو أيضا تاريخ الفنادق، إذ لم تكتف الحركة الجديدة بالنزل البدائية للقرون الوسطى ولا بلوكاندات البريد البسيطة. لقد غطت الصروح المعمارية الجديدة على كل ما كان قبلها من أماكن ضيافة الغرباء. كان فندق «دير باديشه هوف» هو أول فندق عصري، وقد أُنشئ في بدايات القرن التاسع عشر. طاقمه الإداري والخدمي ذو الهيراركية المعقدة من مديرين وموظفي استقبال ورؤساء للندل وندل وسعاة وعاملات لترتيب الغرف، قام لأول مرة بخدمة النزلاء في قاعات الفندق الاحتفالية ومطاعمه وفي غرف النوم وحمامات الاستجمام والحدائق والشرفات. ولقد ظل هذا الفندق الذي بني عام ١٨٠٥ معيارا للخدمات الفندقية حتى يومنا هذا. وصارت الفنادق المجاورة لمحطات القطار تحذو حذوه، لتحل محل لوكاندات محطات البريد القديمة. وكلما تطورت السياحة في كنف الرأسمالية العليا، كلما طوعت صناعة الفنادق الأشكال الاقتصادية الرأسمالية لصالحها، ففي عام ١٨٥٠ افتتح في باريس فندق «غراند هوتيل» وهو أول مؤسسة في هذا القطاع تأخذ طابع الشركة المساهمة. وقد أدى التركز المتزايد لرأس المال إلى تأسيس أول اتحاد احتكاري في قطاع الفنادق تمثل في سلسلة فنادق «ريتس» وفي منعطف القرن نشأت في الولايات المتحدة أولى الفنادق العملاقة التي تضم أكثر من خمسمئة غرفة.

لم يطرأ تغيير على القشرة الخارجية القديمة للفنادق وفقا لنموذج فندق «دير باديشه هوف»، لكن هذه القشرة صارت لها دلالة كبيرة في سيكولوجيا السياحة، فالفندق هو قصر البرجوازية الكبيرة. وفيه تغزو الطبقة الجديدة الأشكال الحياتية للأرستقراطية. أجواء الفندق تعكس الرفاهية التي لا تفنى. وفي حين أن الارستقراطي الحقيقي لا يرتحل بمحض إرادته مثله مثل الفلاح، فإن البرجوازي حديث الثراء يستعرض في رحلاته كل ما هو محروم منه في موطنه. فالحرية التي يفر إليها عبر السياحة لا تنحصر فقط في البعد التاريخي أو المكاني ولكن أيضا في ممارسة شكل من أشكال الحياة يعتبرها هو أرقى اجتماعيا. إنه لا يبحث فقط عن التاريخ باعتباره متحفا، ولا عن الطبيعة باعتبارها حديقة نباتات، بل ينظر إلى هذا البعد عن المجتمع باعتباره من سمات الحياة الراقية.

وإلى جانب المعلم السياحي يظهر أيضا المظهر الاجتماعي كهدف سياحي. وهكذا يلعب ما يمكن أن نسميه العلامة التجارية للرحلة باعتبارها بضاعة، دورا حاسما في تحديد سعرها. وكما ترفع ماركة عطر ما من قيمته، بل وتصنع هذه القيمة تقريبا، فإن هذا ينطبق على اسم المكان الذي يشد إليه الرحال. يتم تثبيت الأجواء الرومانسية التي تحيط بالمسافر القادم من بلاد بعيدة لتصبح العلامة التجارية التي تكفل الطابع الفتشي للسياحة. وتتجسد تلك الفتشية في التذكارات السياحية بأشكالها المختلفة، إذ أنها تؤكد

للسائح، حتى لو تشكك في خبرته الذاتية، أنه قام بهذه الرحلة. إنها تعطيه في يده دليلا على عودته إلى موطنه.
وتدخل العودة إلى الوطن أيضا كآخر نقطة في برنامج الرحلة السياحية، وهي تحول السائح في حد ذاته إلى معلم سياحي. فما كان يعتقد أنه شيء بعيد المنال، صار في متناوله وأخذ ينشر معرفته به، إذ يطلب منه الآخرون أن يحكي لهم عن مغامراته. وخلال تشدقه بحكاياته يظهر ملمح قديم يميز كل الرحلات على مدى العصور، يظهر محفوظا ومدمرا في الوقت ذاته، إذ يذكرنا الموقف بالوقت الذي كان فيه المسافر الآتي من بلدان بعيدة هو المصدر الموثوق الوحيد لمعرفة أخبار البلدان البعيدة، في المقابل لا يحكي السائح العائد إلى موطنه في يومنا هذا إلا عن أشياء يعرفها الجميع. ولا يهدف حكيه إلى إكسابه المظهر الاجتماعي اللائق فحسب، بل وإلى ترسيخ مكانة منظم الرحلة الذي يثق فيه أيضا. السياحة هي الصناعة التي تتوحد مع دعايتها. زبائنها هم في الوقت ذاته موظفون لديها. الصور الملونة التي يلتقطها السائح، تختلف فقط في بعض التفاصيل عن البطاقات البريدية التي يشتريها ويرسلها. هذه الصور هي الرحلة، هي تجسيد الرحلة التي يقوم بها، والعالم الذي سيظهر فيها هو من البداية عبارة عن استنساخ. لن يبقى له سوى الصورة وليس الأصل.
ومن خلال الصورة يبرهن السائح على صدق الملصق السياحي الذي جذبه للسفر.
هذا التأكيد للصورة باعتبارها الحقيقة، هو جوهر العمل الذي يقوم السائح بإنجازه. وهو عمل ليس بالسهل. ومن أجل التغلب على الملل في هذه المهمة، اخترع الناشر تاوخنيتز من لايبزغ عام ١٨٤١ دواءً مبتكرا وهو كتب تسلية السائح، فمختاراته من مؤلفات الكتاب المطبوعة بالإنكليزية كانت لخدمة السياح القادمين من بريطانيا والذين كانوا يشكلون أساس الحركة السياحية في ذلك الحين. وقد حققت له تلك الفكرة ثروة طائلة وحصل على لقب بارون، إضافة إلى امتنان السياح الإنكليز له. لم توفر السياحة دواءً شافيا للحزن الناتج عن الإحباط الذي يعاني المرء منه في موطنه، ولا ليأس المتلصص من تحقيق الملامسة. الكآبة شيء مألوف لدى السائح. إنه يبحث عن أعتى الوسائل لطرد الملل، بالرغم من أنه على علم بأن فراره عديم الجدوى، حتى قبل أن ينفذه. دائما ما ينكشف له الطابع المخادع للحرية التي تباع له كسلعة في المتجر. لكنه لا يعترف بهذا الغش الذي يسقط ضحية له. إنه لا يصرح بإحباطه علنا. ولا يرجع سببه إلى الصناعة التي تقف وراء هذا الخداع، ولكن إلى نفسه. والمحيطون به سيعتبرون اعترافه بهزيمته فشلا اجتماعيا، لذا لا يريد المخدوع أن يضيف أيضا إلى خسائره الشعور باستهزاء الآخرين. مع ذلك فهو عرضة لأن يلقى احتقارا من ندمائه في الحانة نظرا لموقفه الرجعي.
من السهل جدا أن نهزأ بالسياحة الجماهيرية الحالية، لكن ثمة طاقة جبارة تقذف بكل هذه الجموع على الشواطئ في مختلف أنحاء العالم لتستشعر سعادتها الصغيرة بالعطلة. إنها طاقة ثورة عمياء لم تتشكل بعد، وهي تفشل بشكل متكرر بسبب التصادم المهيمن على جدليتها الخاصة. هذه الطاقة تسحب بساط المصداقية من تحت أقدام النظام السياسي الذي نعيش فيه، نظرا لأن شركات الحافلات وأصحاب الفنادق هم وحدهم من يتعاملون بجد مع هذه الطاقة. طوفان السياحة ليس سوى حركة فرار من الواقع ومن النظام الاجتماعي المحيط. لكن أي هروب بغض النظر عن مدى بلاهته وعماه يشكل انتقادا لما يولي له ظهره. ولا يمكن بأي وسيلة قمع هذه الرغبة المتضمنة في هذا النقد العنيد الحاد اليائس. لكنها على الأغلب تترك نفسها عرضة للاستغلال. ولأنها في حد ذاتها غير واضحة تماما، فإنه من السهل إفسادها مرارا وتكرارا. ولهذا فبرغم أننا نحقرها، فإننا لا نستطيع تفسيرها ولا شل حركتها. تتغذى السياحة من السعي إلى السعادة والحرية. ويشهد الهرج والمرج على شواطئ كابري وإيبيزا على قوتها التي لا تقهر. صور هذه السعادة التي خلقتها الفترة الرومانسية تبقى صادقة في مواجهة أي تزييف، طالما أننا لا نملك صورنا الخاصة بنا. هذه الصور تنتصر على الملصقات التي مسخها رأس المال مثل رأس ميدوزا. وهي لا تشهد لأجلنا فقط بل ضدنا. في هذه الصور تضيء الوجوه بنور الحقيقة وكأنه ذكرى، لا تتلاشى لأننا رضينا بها هكذا. تقول شذرة من إرث أوتو فاينننغر إنه لا يمكن السفر من أي محطة إلى الحرية. تبقى هذه العبارة سارية المفعول طالما أننا راضين بما يكتب في الصحف التي سنطلب إرسالها إلينا في مكان عطلتنا. تُظهر السياحة أننا تعودنا على اعتبار الحرية خداعا جماعيا نثق فيه برغم أننا نكشف إياه في السر. وطالما أننا نتحسس تذكرة العودة في جيوبنا، فنحن نقر بأن الحرية ليست هي هدفنا وأننا قد نسينا ما هي الحرية.

ترجمة: أحمد فاروق

هانس ماغنوس إنسنسبرغر من مواليد ١٩٢٩، من أهم الكتاب الألمان المعاصرين.

المصـــدر: *Hans Magnus Enzensberger: Eine Theorie des Tourismus. Aus: Einzelheiten I, Bewußtseins-Industrie Suhrkamp Verlag, Frankfurt 1967. © Suhrkamp Verlag.*

Andreas Pflitsch أندرياس بفليتش

الشرق في مرآة أدب الرحلات الغربي

بحاثة ومكتشفون وسياح

للمسافر غاية في رحلته وهو يجد ويجتهد لتحقيقها. هكذا كان حال الرحالة البريطانية غرترود بيل، التي أثار «العرب الأصلاء، المتوحشون» في الصحراء خيالها، بينما لم يعجبها العرب الجدد «المتغربون» في المدن.

بدأت غرترود بيل، المولودة عام ١٨٦٨لأسرة ثرية من العائلات الصناعية البريطانية، رحلتها إلى الشرق عام ١٨٩٢، بعد أن كانت قد أنهت دراستها في جامعة أوكسفورد بامتياز دون أن تنال درجة أكاديمية (فقبل عام ١٩٢٠ لم يكن من حق المرأة الحصول على درجة أكاديمية في اوكسفورد). وكانت رحلتها بالدرجة الأولى هربا من الأطر الاجتماعية الضيقة للعصر الفيكتوري في إنجلترا: "لولا هذه الأعراف والعادات كنا جالسنا بشرا من لحم ودم عوض مجالسة البدلات الرسمية". أملت بيل أن تجد بشرا من لحم ودم في الشرق، شرق لم تضيق على خناقه الحياة العصرية بعد، إلا أن الرحالة لم ترغب في استكشاف بساطة الحياة الشرقية الممدوحة عاليا بوحدها، بل سافرت مصطحبة معها الخدم والحشم، فقام على خدمة رحلتها ثلاثة طباخين وعشرون خادما وقافلة طويلة عريضة من البغال.

كما أن الفرنسي بيير لوتي سافر بدوره إلى الشرق هربا من الحداثة الأوروبية، حيث جاب أنحاء إيران مطلع صيف ١٩٠٠. ولوتي، على غرار بيل، لم يكن عالما أو مستكشفا من الذين نجدهم في القرن الثامن عشر، فلم تكن الغاية القصوى لأسفاره استكشاف الشعوب الغريبة أو البلاد البعيدة، إنما اكتشاف الذات والإثارة، حيث قادته أسفاره إلى بحر الجنوب، إلى شمال وجنوب أميركا وإلى تركيا والصين واليابان وفلسطين ومصر. في مؤلفه «نحو أصفهان»، الذي نشر عام ١٩٠٤، يصف لوتي إيران بـ «بلاد السكينة السعيدة». يصيح فرحا: "مازال على الأرض أماكن لا تعرف الدخان الخانق، لا تعرف المكائن، البخار، الاستعجال ولا تعرف مصانع الحديد". من الهند قدم لوتي إلى إيران وكان قد شكا آسفا من التأثيرات البريطانية هناك: "الهند المسكينة، المدنسة، المسلوبة، استغلوها في بناء المانيفاكتورات، وأصابتها عدوى الحضارة والمعامل ومصانع الحديد"، أي كل ما هو حديث وغربي، كل ما يشوه الجو المثالي. عندما يستقبل وريث التاج الإيراني الشاب لوتي، يوثّق هذا قانطا: "للأسف! الصالونات التي يقودونني فيها مؤثثة على الطراز الأوروبي والأمير، ابن العشرين عاما، الذي يرحب بي أحر الترحيب، متأنق كباريسي رشيق. تتصور أنك في أوروبا. وا أسفاه ويا لتشتت الأذواق". كما أن غرترود بيل تعبر بصريح العبارة عن خيبة أملها عندما تصادف في إيران أميرا هنديا يحيها بانكليزية ممتازة، فهي تقول بهذا الصدد إن هذه القرينة "تهشم نقاء المشهد المحلي بشكل ما". صدى خيبة الأمل هذه يعرفها اليوم السياح إلى الشرق الذين يصدقون ما تقدمه لهم منشورات الدعاية التي تطبع فيها شركات السياحة صور النخيل والسواحل، الأهرامات والجمال، ويجدون أنفسهم من جديد وسط غبار مواقف التاكسي أمام مطارات الشرق الأوسط.

الشرق موطن الحنين

كان الشـرق لدى كثيـر من المؤلفين في النصف الثاني من القـرن التاسع عـشر مكانا سحريا يجدون فـيه كل ما لم يعد متوافـرا في أوروبا. هكذا نرى في مرآة شرق هذا الوقت أوهام وخيبـات أمل الغرب. بروايته «سلامبو» ١٨٦٣ كـتب فلوبير بعد رحلة طويلة في تونس نصا يعبر عن الهرب من الانحطاط الأخلاقي والتكلف الوضيع إلى دغدغة الأحاسيس، إلى صورة مخدرة عن الواقع.

أسفر أدب الرحلات في أواخر القرن التاسع عشر، الذي كان يقبل عليه الجمهور أشد الإقبال، عن عـواقب وخيمة: هل يتـقبل الشرق الحداثة أم هل يجب أصـلا السعي لتحديث الشرق؟ يصف المستشرق الـفرنسي مكسيم رودينسون حالة التناقض والتهكم قائلا إن بلدان الشرق "تبـدو شاهدا مستولدا على مـاض يحلم به الناس، بينما بذل الساسة ورجال المجتمع كل ما في وسعهم ليـسرعوا تدميرها. لم يستحسن أحد فكرة إعادة بناء هذه البـلاد وتحديثهـا لأن هذا لن يكون إلا خطرا على صبغـة الغرابة التي تقوم عليها فتنتـها". وقد كان تيوفيل غوتيه قد أبدى خشـيته من أن تُسوّى "البربرية المثاليـة بوساطة مدنيتنا القـبيحـة والباهتة" بالأرض. منذ ذلك الحين أدرك كثـير من الرحالة أنهم يركـضون في رحلاتهم وراء سراب وأن الشرق قـد صار أسطورة تسكن خيال واحتياجات الأوروبيين، ليس شيئا من أرض الواقع.

أحيانا يُنسج حول أسماء البلدان والأمكنة تشويق وفرادة يضـفيان عليها جاذبية خارقة كما كتـب الكسندر دوما ١٨٤٦: "لبعض الأسماء سحـر وحلاوة، هناك مغناطيس يجذبنا إلى مدن بعينها، حتى لتظن أنها مدن خيالية لن تراها رؤى العين قط". ولهذا فليس سهلا أن نتدارك الواقع دائما خلف كلمات أدب الرحلات المرصع بكل ما هب ودب.

غالبـا ما كان الكاتب يبـالغ في الأوصاف كي لا يخـذل جمهـوره، الذي كان ينتظر توصيفات عن الفخامة والترف، بحيث يظن الكاتب أن عليه أن يذكرها ولابد، الأمر الذي تنبـه إليه فـريدريش بودنشتـيدت ١٨١٩ ـ ١٨٩٢، حين كـتب: "تغلب عندنا تصورات سحرية عن عظمة الشرق وبذخـه ربما لأنه نادرا ما يعير المسافر بالا لوصف العادي وتكتفي الغالبية بإعلاء شأن الاستثنائي الخطابي". لاحظ بودنشتيدت، الذي تجـول في أنحـاء القـوقاز في أعـوام ١٨٤٣ ـ ١٨٤٦ خـيبـة أمل الأوروبيين الذين يصطدمون بالواقع، فـقد كتب عام ١٨٥١: "الذين يدخلون بلاد العـجائب المحاطة بهالة القـدسية، بشوق وحـمية عبـر بوابة التاريخ والأساطير، إمـا أن يظلوا عنيدين يتمسكون بما اتفق عليه رأيهم أو ينتقلون بسرعة الريح إلى القطب الآخر ويجدون كل ما فيها قذرا، قبيحا، مثيرا للاشمئزاز ومهولا".

الرحلات الاستكشافية

نعثر على كتابات عن الشرق منذ القرون السـالفة. في القرنين السادس والسابع عشر دونت أولى الكتب الشاملة مطبوعـة بطابع البحث الجدي. ينبئنا سفـير باسبورغ إلى الباب العالي، اوغير غيزيلين فون بوسـبيك، عام ١٥٨١عن الحياة في قصور سليمان القانوني. كمـا سافر ابن مدينة بولونيـا الإيطالية لودفيجو دي فـارتيما بين ١٥٠١ و ١٥٠٧ في مصر وسوريا وشبه الجزيرة العربية حتى وصل الساحل الغربي للهند.

أولى التقارير الأوروبية المفصلة عن الحرمين وصلـتنا بقلم دي فارتيما. من بين الكثير من العجائب المأثورة التي استطاع أن يمحوها من الخيال الأوروبي هي أن جثمان النبي العربي يرقد في مكة وأنه يطوف في الفضاء بتأثير قوى مغناطيسية متعددة. وإذا كانت كتاباته عن شبه الجزيرة العربية تفصيلية وموثوق بها عموما، فإن شروحاته عن فارس وأجزاء من كتابـاته عن الهند، وكذلك شروحه المفصلة عن جزر جنـوب آسيا تحوي

أخطاء فادحة، لدرجة أبدى فيها بعض القدماء شكوكهم في صحة الكثير مما يرويه. فرسالته مؤطرة في بعض مواضعها ضمن نظرة ذاتية حكائية ومرصعة في بعض "مجرياتها" ـ نظن أن غير قليل منها متخيل- بالخرافات. بهذا أراد المؤلف أن يغذي ما ينتظره جمهور قرائه، الذي لم يكن يبحث في أدب الرحلات عن المعلومة فقط، بل وعن التسلية أيضا، كما في الفصل المعنون "في الملكة، زوجة السلطان، التي عشقت المؤلف عشقا جنونيا وكيف ادعى هذا أنه مجنون وما جرى له غير ذلك". وأظهر النجاح الكبير الذي لاقاه كتابه أنه على حق، فقد ترجم الكتاب الصادر عام ١٥١٠ بالإيطالية إلى اللاتينية والألمانية وغيرها من اللغات الأوروبية على الفور وكان يقرأ حتى أواسط القرن السابع عشر.

في القرن السابع عشر ظهرت كتابات ترسم صورة أكثر تنوعا للشرق. يوهان كيبلر، غاليليو غاليلي واسحاق نيوتن قلبوا العالم، طرأو على العلم ليمسحوا صورة القرون الوسطى التي تغلب عليها الأشباح والقوى العليا والعجائب، مسحا نهائيا عن وجه الأرض. صار العالم علاقات ميكانيكية بين الآلات وظهر أن الإنسان قادر على إخضاع الطبيعة.

في القرن السابع عشر كانت نظرية الطبيعة الجديدة والعوالم الغريبة الموصوفة في أدب الرحلات تعبيران عن كمال الخليقة الذي صار ينظر إليه بمزيد من الحرية وهكذا نشأت صورة باذخة للعالم بعد أهوال حرب الثلاثين عاما. كتب آدم اولياريوس ١٥٩٩ ـ ١٦٧١ دراسة نموذجية لهذا الوقت عن رحلة قامت بها إرسالية من هولشتاين عبر روسيا وفارس. تمت هذه الرحلة لأن "رب البيت الكبير خلق العالم للإنسان سعة وخيرا"، بكلمات اولياريوس، لكن وأيضا لأن هرتزوغ هولشتاين ـ غوتروب وفريدريش الثالث، كانت له مطامع اقتصادية في التجارة مع بلاد فارس. يصور اوليـاريوس الفرس، بخلاف الروس، تصويرا بالغا في الإيجابية. يقول إنه من النادر العثور على فارسي لا يعرف القراءة والكتابة وإن التجار الفرس "ودودون وأنيسون كما أهل بلادهم. وبعد ما وجدناه من فظاظة الروس ولأنهم كانوا القوم الجديد الذي نتوق إليه وننوي إقامة اتصالات متينة معه، فقد بدا لنا أمرهم بالغ الغرابة ووجد في أنفسنا قبولا واستحسانا". أما الخلق الشرقي في الاستغناء عن المقاعد والجلوس على البسط والوسائد فيجده أوليـاريوس أمرا مكدرا للصفو: "ولكن لأننا غير معتادين على هذا النمط من الجلوس وجدناه شاقا وكان علينا أن نتحمل الضنك والإعياء".

علاوة على ما كتبه اوليـاريوس لدينا من القرن السابع عشر ثلاثة مؤلفات أخرى في أدب الرحلات. سافر جان بابتيست تافيريه ١٦٠٥ ـ ١٦٨٩ أربعين عاما في تركيا، فارس والهند. نشر جان شاردان ١٦٤٣ ـ ١٧١٣ عام ١٧١١مؤلفا مفصلا لقي إقبالا شديدا عن رحلته في فارس. وحتى بعد مرور قرن ونصف على ظهوره كان مؤلف بيترو ديللا فالس، الذي نشر في روما ١٦٥٠ وترجم على الفور إلى أهم اللغات الأوروبية، من أهم مصادر غوته أثناء العمل على الديوان الشرقي الغربي. سافر بيترو ديلا فالس ١٥٨٦ - ١٦٥٢ بين ١٦١٤ و ١٦٢٦ في أرجاء مصر، فلسطين، تركيا، فارس والهند "كي تستفيد أوروبا من رحلاتي بعض الإفادة وكي ينال اسمي حظوة من الإطراء". أثناء زيارة ضريح حافظ الشيرازي مثلا يركز على الصيت العالي الذي "ينعم به كل من يكتب الكتب" في فارس. إلا أنه يصعب عليه في الهند أن يتفهم صورة إله له رأس فيل وآخر "له على الحجر أذرع ووجوه عديدة" ويبدي بالغ دهشته: "تأملوا بحق الله في هذه السفاهة

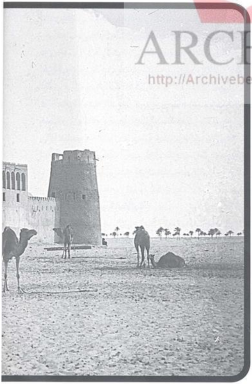


Photo: Hermann Burchardt
من كتاب: Unterwegs am Golf
Verlag Hans Schiler, Berlin 2006

الكبيرة"، لكنه يخمن بالنتيجة أن حكماء الهند القدماء حجبوا "وراء هذه الخرافات الخبيئة أسرارا كثيرة" ويقارن الآلهة الهندية بآلهة الرومان، التي أعيد اكتشافها في عصر النهضة وصوِّرت بدورها، كما جانوس مثلا، بوجوه متعددة ورؤوس الحيوانات. بالنتيجة يقر ديلا فالس بأن قدماء اليونان والمصريين ليسوا وحدهم من كانوا يقومون بمثل هذه الأفعال الشنيعة "بل وأهل إيطاليا أيضا".

الرحالة المستكشفون

رغم أن روح الاستكشاف تحل في القرن التاسع عشر محل روح التعطش إلى المغامرة والرغبة في المخاطرة، إلا أن تقليد أدب رحلات الاستكشاف مازال مستمرا. من أشهر الأمثلة على هذا النوع الأدبي هو وصف ماكس فرايهر فون اوبنهايم للرحلة التي قام بها صيف ١٨٩٣ عبر بيروت وسوريا إلى بلاد الرافدين ومنها إلى عمان وزنجبار. كان الشرق قد أثار خيال الرجل المولود عام ١٨٦٠ في كولونيا منذ أن قرأ في طفولته حكايات ألف ليلة وليلة، لهذا لا يكتفي عمله "من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي" بأن يكون وصفا لرحلة بالمعنى الضيق، بل إنه على قدر مسؤولية ما دونه في مقدمة الكتاب، أي "وصف البلدان والناس في تطورهم التاريخي وخصوصيتهم الدينية والاثنوغرافية". في تدوين عمله يعتمد اوبنهايم على أدب الرحلات القديم كما يعتمد على الدراسات العلمية المعهودة في زمنه، حيث تتناوب المقالات المعمقة، كالفصل الرابع عن الدروز وعروس الصحراء السورية، تدمر، مع وصف يوميات الرحلة. وكما لا يهمل اوبنهايم التطورات التاريخية للشرق القديم حتى نهاية القرن التاسع عشر فإنه يعتني بالتفاصيل الجيولوجية للمنطقة ويصف محطات رحلته بكل دقائقها: "الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق. وجدنا على يسارنا خزان مياه مستطيلا بعرض سبعة وطول عشرة أمتار. بجانبه أكوام من التراب". علاوة على الملاحق عن النباتات، ترد في الكتاب ملاحظات تاريخية عن الفن والعمارة. ولا يفوت المراقب الفضولي وثاقب النظر شيئ، لا سوق الكتاب "المتخلف جدا" في بيروت ولا نوعية الجوارب المصدرة من ألمانيا إلى بيروت ١٨٩٥، أو نوعية الخمر السوري، الذي يقول عنه إنه "يشبه الخمر الجزائري". كما إننا نعثر في الكتاب على طرائف. ففي "المدينة التي تداوم الازدهار، بيروت" حيث يبدأ تقريره، يعثر اوبنهايم على "مغنيات من بوهيميا، كثيرا ما يجدن نصيبهن في شرق المتوسط ويرسين على مرفأ الزوجية".



ورغم كل شغفه بالتاريخ والآثار، إلا أنه لا تغيب عنه التغيرات السريعة في زمنه. في بعلبك يصادف "معسكرا لرحلة نظمتها شركة توماس كوك للسياحة بما فيها من خدم ومترجمين" ويشكو من أن داخل معبد جوبيتر "تشوه بما نقش السياح من مختلف الأمم على جدرانه".

كتاب «يوميات رحلة إلى قلب البلاد العربية» ليوليوس اويتينغ، كتاب لعالِم لا يلده إلا رحم القرن التاسع عشر. كان اويتينغ قد خطط لرحلة إلى البلاد العربية منذ أن كان طالبا، إلا أنه اضطر للانتظار عقودا قبل أن يتحقق حلمه في السفر إلى شبه الجزيرة العربية عامي ١٨٨٣ و ١٨٨٤ وذلك بفضل جود "ورحمة جلالته الملك كارل، ملك فورتمبرغ" الذي "سلحه بكل ما يحتازه لرحلته العلمية". كان هدف الرحلة "بالدرجة الأولى دراسة الآثار والكتابات القديمة". درس اويتينغ أثناء رحلته آثار عهد ما قبل الإسلام في النقوش والآثار بشكل خاص وجعلها مادة للعديد من الدراسات العلمية. أما بيوميات رحلته فقد أراد أن "يقدم للجمهور العريض وصفا قابلا للقراءة عن تجاربه الخاصة، عن انطباعاته وملاحظاته". إلا أن غرام المؤلف بالدقائق والتفاصيل لا يطيقه إلا قارئ صبور.

وبخلافه فإن هاينريش فرايهر فون مالتسان يبرهن على موهبة أدبية أرفع. "الرغبة في التغلغل عميقا في حياة الشعب الشرقي، خاصة العربي" جعلت ابن الرابعة والثلاثين يبدأ الرحلة المنهكة إلى مكة، إلى المدينة التي لم يرها منذ وجودها على ظهر الأرض إلا اثنا عشر أوروبيا". كتب مالتسان تقريرا سياحيا ظريفا، مسليا ومضحكا أحيانا، يمكن حتى للقارئ المعاصر الاستمتاع بمطالعته، مع أن ـ وربما تحديدا لهذا السبب ـ الكاتب لم يكن قد سمع بشيء اسمه "النزاهة السياسية". المؤلف مراقب يقظ وراو جيد والمدهش أن عمله ممتع رغم صفحاته الكثيرة، البالغة ٧٥٠ صفحة. يكتب مالتسان عن تاريخ الجمل، يصف الصلاة بالتفصيل، يدلي بآراء عن القرآن ويسرد حكايات عن الاستمتاع بالأفيون والحشيش في المنطقة. إنه يعرف مؤسسة زواج المتعة "الذي يضفي على ملل طقوس الحج الورعة بعض الطراوة"، كما يروي أخبارا مثيرة عن شرب الكحول في تلك الأصقاع. يجد المؤلف شعائر الحج ذاتها مزعجة، حيث يقول إن المرء يقف "كالأسماك المعلبة" ولديه أن الكعبة "كتلة سوداء موحشة"، أما الحجاج فيتركون لديه "انطباعا عنيفا في غرابته، أود القول مفزعا". يربط مالتسان بين تعطش الرحالة المستكشف إلى العلم وبين الرغبة في رواية حكايات غرائبية. وهو أيضا برهان على الرومانسي المنهوك من أوروبا، فنراه يصيح غضبا ضد السكك الحديدية في مصر التي يرى أنها تسخر من كل ذوق فني.

نساء رحالات

كان السفر حتى أواخر القرن التاسع عشر حكرا على الرجال والاستثناءات القليلة تبرهن على صحة هذه القاعدة. أحد هذه الاستثناءات كانت السيدة ماري ورتلي مونتاغو ١٦٨٩ ـ ١٧٦٢، التي رافقت زوجها في مطلع القرن الثامن عشر عندما أُرسل هذا لتمثيل بلاده في السلطنة العثمانية. صارت «رسائل من الشرق» التي تدعو إلى التفاهم بين الشعوب ونشرت لاحقا من أعلام أدب الرحلات.

كتبت مونتاغو من اسطنبول في ١٩ أيار/ مايو ١٧١٨: "وهكذا ترون أن هؤلاء الناس ليسوا أجلافا كما نصورهم" بل وتظن "أنهم يفهمون الحياة أفضل". في آخر الأمر لا يعود سر نجاح الكتاب إلى أن مؤلفته دخلت الحريم فحسب. وحيث أن هذا ظل مسدودا في وجه الرحالة الرجال، فقد أجج خيالهم وأدى إلى صياغة تصورات بالغة الغرابة. كانت أغلب الرحالات اللواتي علا شأنهن بريطانيات. بأواخر القرن التاسع عشر سافرت علاوة على المذكورة أعلاه غرترود بيل، ايزابيل بورتون ١٨٣١ ـ ١٨٩٦ وآن بلونت ١٨٦٧ ـ ١٩١٧ في البلاد العربية.

كانت أسباب ودوافع النساء أيضا متعددة ومتنوعة كما شاهدنا لدى الرجال. بينهن ممثلات النخبة المتغطرسات والمتعاليات وبينهن راغبات في المغامرة غريبات الأطوار وزوجات وفيات قلقات رافقن أزواجهن، الذين كانوا يقطعون الأرجاء بصفتهم دبلوماسيين أو مغامرين. النساء الرحالات كن يسعين إلى الهرب من قيود التقاليد الاجتماعية لأوروبا البرجوازية.

بالإضافة إلى البريطانيات قامت ابنة فيينا ايدا بفايفر ١٧٩٧ ـ ١٨٥٨ والألمانية ايدا كونتيسه هان ١٨٠٥ ـ ١٨٨٠، أشهر مؤلفات كتب التسالي في عهدها، برحلات إلى الشرق. وتروى عن الحياة القصيرة لايزابيل ايبرهارد ١٨٧٧ ـ ١٩٠٤، المولودة في جنيف لأم روسية نبيلة، روايات مغرقة في الغرابة، بحيث أبدى الكثيرون شكوكهم في صحة سيرة حياتها. سافرت ايبرهارد مرتدية ثياب الرجال في صحراء الجزائر، كتبت شعرا بالعربية وغرقت في السابعة والعشرين من عمرها في سيل عارم نزل بالصحراء. لم تكن حياة السيدة هيستر ستينهوب ١٧٧٦ ـ ١٨٣٩ قبل مائة عام من ذلك بأقل غرابة، وكان بيتها في بيروت محجا لرحالة الشرق على غرار الفونسه دي لامارتين أو الكسندر كينغلاكه. كانت حياتها تموج بين الفضول الواضح والتعاطف مع أهل المنطقة من ناحية والاستعلاء الفاضح والعنصرية على الناحية الأخرى. هنا أيضا لم تكن الرحالات النساء يختلفن كثيرا عن زملائهن الذكور.

بعض المشاريع نمت وغدت مآثر لوجستية. فمثلا سافرت الروسية ليدي باشكوفا عام ١٨٧٢ في قافلة عدادها ثلاثة

وثلاثون بغلا وخمسة ثلاثون جملا وعشرون حمارا واثنا عشر جوادا إلى تدمر. وقد انطلقت الكسينه تين، وريثة أحد بارونات السكر في هولندا، مع أمها عام ١٨٦٢ في بعثة لا تقل أبهة وفخامة إلى نهر النيل. كانت حاشيتها كبيرة بحيث أنف منها زملاؤها الذكور المطعونون في شرفهم واشتكوا من أنها تجعل من رحلة استكشاف افريقيا الخالصة لوجه الله نزهة حقيرة. بل إن كاترين بيتريك التي رافقت زوجها عام ١٨٦١ إلى السودان اصطحبت معها جهاز بيانو على الدرب الوعرة والخطرة إلى النوبة. يذكر أنها اختارت جهازا صنع خصيصا قابلا للتفكيك إلى جزءين.

بدايات السياحة الجماعية

نالت بعض المناطق السياحية في الشرق خلال القرن التاسع عشر شهرة أزعجت الرحالة. فها هي اميلي بوفو، التي قامت برحلة في مصر عام ١٨٥٨ تشكو من "النيل الذي صار موضة وامتلأ بالسياح". بعد عدة سنوات كتب الرحالة في افريقيا صاموئيل بيكر هازئا أن السفر صار موضة بحيث حان الوقت "لفتح حانة على خط

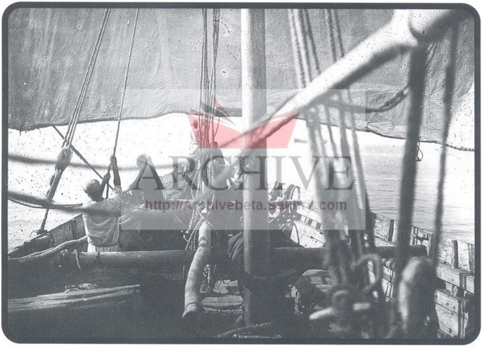


Photo: Hermann Burchardt
من كتاب: Unterwegs am Golf
Verlag Hans Schiler, Berlin 2006

الاستواء يتمكن المسافرون من العودة إليها كلما شعروا بالحاجة إلى كأس بيرة".
وتنتقد غرترود السياح قائلة: "بعض الناس يسرحون في كل العالم لمجرد البحث عن نزل، يروون بولع وشغف أنهم قطعوا أرجاء روسيا قبل وقت قصير ولكنك عندما تسألهم تعلم أنهم ليس لديهم ما يروونه أكثر من أنهم وجدوا الحياة في موسكو مريحة تماما كما في أوطانهم وربما أكثر أبهة، فقد كان على لائحة الفندق ثلاثة أصناف من لحوم الطرائد".
منذ نهاية القرن التاسع عشر صار الشرق أقرب لأن السفر صار في هذا الوقت أسهل وأكثر أمانا مما كان عليه. بينما كان رحالة القرن التاسع عشر يستطلعون الأصقاع الغريبة مخاطرين بأرواحهم تحت أعباء جسدية ومالية عظيمة، شيدت بنهاية القرن

أولى السكك الحديدية. كان توماس كوك قد أسس منذ ١٨٤٥ أول مكتب للسياحة في ليستر ووضع للحال حجر الأساس للرحلات الجماعية الرخيصة بأن كان أول من يعرض دفاتر تذاكر السفر وحجوزات الفنادق. كانت مصر وسميرنا (حاليا أنقرة) واسطنبول وجهات السياحة المفضلة منذ ذلك الوقت. بدأت رحلات السفن البخارية النظامية منذ أواسط القرن التاسع عشر تمخر العباب بين أوروبا والبحر المتوسط الشرقي ومنذ ١٨٨٣ صار قطار الشرق السريع الأسطوري ينقل المسافرين الأثرياء من باريس إلى اسطنبول بما يلائم منزلتهم الاجتماعية. في عام ١٩٣١ نشرت شركة Simplon-Orient-Express & Taurus-Espress دعايتها بإعلان «السلامة، السرعة والاقتصاد» لقطع المسافة بين لندن وبغداد في زمن قياسي لا يتجاوز ثمانية أيام في عربة نوم خاصة. انتهزت أغاثا كريستي ١٨٩٠ ـ ١٩٧٦ فرصة السفر مع هذه الشركة أكثر من مرة برفقة زوجها، عالم الآثار ماكس مالون، ولكن الكاتبة الشهيرة لم تتحمس للطيران، وسيلة السفر الأسرع بما لا يقارن ـ آنذاك بدأت أولى الرحلات الجوية بين انكلترا والقاهرة وانكلترا وبغداد ـ قائلة إن هذا النوع من السفر يبدو لها باهظ الثمن ومملا جدا.

فقد النوع الأدبي، أدب الرحلات، أثناء هذه التغيرات بعضا من هالته، حيث أن أغلب بقاع العالم اكتشفت ودونت حولها الكتب. صارت مساحة المفاجأة الخطيرة أصغر فأصغر وصار بوسع كل من شاء الحصول على معلومات قيمة من دار نشر كارل بيدكر لمنشورات السياحة والسفر المؤسسة عام ١٨٢٧ في كوبلنز/ ألمانيا، إلا أن السفر بقي في حدود ضيقة رغم كل التيسير. دام الأمر عقودا حتى أوصلت السياحة الجماعية المسافرين الغربيين إلى أقصى زاوية في العالم تقريبا. ثم بدأت في الستينات والسبعينات موجة الهيبيين الذين جروا خلف أوهام الشرق الحسي والروحاني ووصلوا عبر اسطنبول، إيران وأفغانستان إلى الهند.

رغم أنه من الصعوبة بمكان مقارنة السياحة الحديثة مع المتاعب والمخاطر التي كان يتعرض لها الرحالة في القرون الخوالي إلا أن دوافع المسافرين بقيت كما هي. ما بقي هو الشوق والحنين إلى الغريب. لا يرى المرء إلا ما يريد أن يراه وما يوائم تصوراته، بينما تُستبعَد كل الأشياء الأخرى. يسرد ليون دو فينتر في رواية Super Tex على لسان مغربي من الدار البيضاء، يستغرب من السياح القادمين من الغرب: "الناس يعشقون بعضهم هنا. هذه هي مدينة الحب. هذا بسبب ذلك الفلم. المدينة بحد ذاتها واقعية، لكن السياح الذين يأتون إليها هم الرومانسيون". كان لفيلم كازابلانكا، تمثيل همفري بوغارت وانغريد برغمان ١٩٤٢، ذلك الوقع الآسر بحيث استرشد به الناس حتى في أعمق أحاسيسهم الذاتية.

لا تخلو أي نشرة سياحية من أيقونات الشرق، كالجمل والنخيل والصحراء، التي ترمز إلى الغريب والمثير. في روايته «إلى اللقاء القريب» ١٩٩٢، يصف الكاتب السويسري ماركوس فرنر كيف يلح تاجر هدايا تذكارية تونسي قصير على شخصيات الرواية ليشتروا بضاعته: "لماذا تسافرون إلى الحمامات حيث لا جمال خشبية ولا من القماش؟". الرحلة كلها تتمثل إذن في هدية تذكارية.

مع وعود السياحة الحديثة بالخلاص من الحياة اليومية المعتادة والتغلب على عصبية حياة العمل المتسارعة بالراحة والهدوء، تتلاءم النمطية المعروفة من أدب الرحلات في القرون الغابرة: الزمن في الشرق متوقف. إن "كسل المسلمين اللذيذ" المزعوم كما يقول بيير لوتي و «اللامبالاة الشرقية» التي ادعت غرترود بيل أنها قرأتها في وجوه الجمال ذاتها، تلتقي مع مثال العطلة السنوية الأوروبية عن الاسترخاء وهكذا يستمر أدثر المعجم النموذجي لتقارير الرحالة السابقين في الشرق حتى اليوم. فالمسافر له غاية ما ويجدُ في غايته كي لا تخيب ظنونه في رحلته.

ترجمة: كاميران حوج

أندرياس بفليتش، باحث ومستشرق. يعمل في مركز الأبحاث الأدبية في برلين.

بربارة فنكلر Barbara Winckler

رحالة عرب يكتبون عن أوروبا

اكتشاف الآخر ومعرفة الذات

إبّان القرن التاسع عشر ازداد بشكل مطّرد عدد الأشخاص الذين قدموا من الشرق الأوسط لزيارة أوروبا. وكان الرحّالة العرب غالباً ما يتصرفون وفقاً للإطار الديني والثقافي الإسلامي في زمن ما قبل الحداثة، فكان المخطط الإسلامي الكلاسيكي يقوم على أساس "الرحلة في طلب العلم"، وهو مستمد من ثقافة الحديث النبوي الذي ورد فيه قول للرسول يناشد فيه المؤمنين طلب العلم "حتّى لو كان في الصين".

ولعلّ الرحالة القدماء لم يروا في ذلك محفزاً لاستطلاع شمال المعمورة. وحتى نهاية العصر الأوروبي الوسيط، أي ذروة ازدهار الثقافة العربية الكلاسيكية، يمكن ملاحظة عدم الاهتمام، التام تقريباً، بزيارة المناطق الشمالية من أوروبا وآسيا ـ باعتبار أن سكّانها غير متحضرين وأن مناخها فاسد. وبدا للعرب أنهم لم يتوقعوا ما هو جدير بالرؤية والمعرفة هناك. لكن حتى بعد ذلك الوقت كان الكثير من العرب يتجنبون السفر إلى أوروبا التي كان حكّامها وشعوبها لم يعرفوا بروح التسامح إزاء ذوي المعتقدات الأخرى، لاسيما بعد حملات التطهير ضد المسلمين هناك. وبعد إطلالة القرن التاسع عشر بدأ العرب يرحلون إلى أوروبا بصورة متزايدة، فأُدمج العالم العربي بالنظام الدولي العالمي وأصبح جزءاً من الاقتصاد الشامل. وأدت حملة نابليون في مصر عام ١٧٩٨ ومن ثمّ احتلالها الذي دام ثلاث سنوات وكذلك البعثات التبشرية العديدة في سوريا ولبنان وفلسطين، وبالأخص تأسيس المعاهد التعليمية، ذلك كلّه أدى إلى الاتصال المباشر والفعّال مع الأوروبيين في ذلك العصر. وعلى هذا النحو اتضح التفوق العلمي والتقني لأوروبا، ولاسيما في الميدان العسكري، وتحولت أوروبا إلى أنموذج يحتذى به.

وكانت الرحلة إلى أوروبا تعني عادةً في ذلك الوقت رحلة إلى باريس التي كانت تعتبر من قبل الطرفين العربي الأوروبي آنذاك «عاصمة القرن التاسع عشر»، حسب تعبير فالتر بنيامين، أو مدينة الضوء أو الأنوار. وكانت أهداف هذه الرحلة وظروفها تتفاوت تفاوتاً كليّاً إلى حدّ ما. ففي مصر كان الوالي محمد علي (حكم من ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨) ومن أعقبه في الحكم يبعثون الرجال الشبّان ضمن بعثات دراسية إلى أوروبا، بدءاً من عشرينات القرن التاسع عشر. وكان الغرض من ذلك هو أن يحلّوا باعتبارهم مصريين وقد تخصصوا في أوروبا محلّ الخبراء الأوروبيين الذين جُلبوا منذ زمن لردم الهوّة في مجال التخصصات العلمية المتنوعة بين مصر وأوروبا. وعلى العكس من ذلك في لبنان حيث كان معظم المسافرين يأتون إلى أوروبا على أساس فردي لغرض الدراسة أو التجارة أو العلاج. وكان البعض منهم يُدعى إلى أوروبا باعتباره معلم لغة أو مترجماً. وفي نهاية القرن التاسع عشر كان المرء يسافر إلى أوروبا لمشاهدة "الأحداث" العالمية مثل مؤتمرات المستشرقين أو المعارض الدولية التي كانت تقام في أماكن مختلفة.

كان «اكتشاف الآخر» يهدف دائماً إلى معرفة الذات أيضاً وكذلك الثقافة الذاتية والتقاليد وموقعها في العالم آنذاك، فكانت الرحلات إلى أوروبا الوسيلة المباشرة والمهمة للتعرف على الحضارة الأوروبية؛ فدوّن العديد من هؤلاء المسافرين تجاربهم وانطباعاتهم التي تولدت أثناء تلك الرحلات. وكان هدف هذه التقارير ومغزاها عادةً هو إبلاغ المعرفة التي حصل عليها المؤلفون في أوروبا لأبناء بلدهم وحثهم على الاقتداء بمثلهم للمساهمة في تطوير البلد والمجتمع. وكانت هذه الغاية تتصدر جميع هذه النصوص، حتى اتخذت طابع النمط الأدبي المستقل، بل الشكل التبريري حتى في مواجهة الاتهام القائل بأن هذه النصوص كتبت للتسلية أو أنها بعيدة عن القيم والتعاليم الإسلامية. ومن ناحية ثانية فإن تقارير الرحلات هذه تعكس أشكالية الاتصال «بالآخر»، وموقف الكاتب منها في الوقت نفسه.

فكان لابد من إيجاد توازن بين «الأصالة» و «الحداثة»، وبين الإعجاب بالغرب ومنجزاته التي أراد المرء اكتسابها والرغبة في الحفاظ على الهوية والقيم الذاتية التي بدت مهددة من خلال هذا الاتصال. فأعمال الكاتبين المصريين رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك والكاتب اللبناني فارس

الشدياق تقدم ثلاثة أمثلة لأدب الرحلات متباينة بشكل كبير.

رائد النهضة رفاعة رافع الطهطاوي

يعدّ التقرير الذي كتبه المصري رفاعة الطهطاوي أوّل وأشهر تقرير يدون عن الرحلات. فهذا العمل الذي يحمل عنواناً مسجعاً مثلما جرت العادة في ذلك الزمن «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، صدر عام ١٨٣٤ وكان يصف باريس والفرنسيين بأسلوب موضوعي، ويعتبر هذا النص أوّل تقرير حديث عن أوروبا في الأدب العربي.

كان الطهطاوي رائداً من روّاد النهضة في القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من دراسته في جامعة الأزهر العريقة بالقاهرة، التي تغلب على مناهجها المضامين الدينية التقليدية، إلا أنه كان قد تعرّف عبر معلمه حسن العطّار (يعتبر من أساتذة الأزهر القلائل الذين ينظرون نظرة إيجابية إلى التحديث الذي قام به محمد علي) على الأدب والثقافة الغربيين أثناء دراسته قبل أن يعيّن عام ١٨٢٦ أماماً لأوّل بعثة دراسية يبعثها محمد علي إلى باريس. وكان المبعوث الوحيد الذي لم يدرس فرعاً تقنياً، إنما تفرّغ لترجمة طائفة كبيرة من النصوص التاريخية والفلسفية والأدبية والتقنية. وبالتأكيد أن المشاركة في البعثة الطلابية كان أمراً حاسماً بالنسبة للتطوّر الفكري للطهطاوي ومسيرته الذاتية. وقد وضعت البعثة من ناحية ثانية حجر الأساس لكي يتسلم المشاركون الآخرون أيضاً وظائف في الجيش والإدارة فيما بعد. وكان الطهطاوي قد مارس تأثيراً حاسماً فيما يتعلق بسياسة الإصلاحات التي شهدتها مصر وذلك في مختلف المناصب الرسمية التي شغلها بصفته مثقفاً وموظفاً حكومياً، ولاسيما فيما يتعلّق بإصلاح النظام التعليمي. ولعل التأثير الأكبر الذي مارسه هو إشرافه على مدرسة الألسن، وهي أوّل مدرسة كانت تقدم العلوم الأوروبية والمحلية إلى جانب تعلّم اللغات. إضافة إلى ذلك عمل الطهطاوي ناشراً لجريدة الوقائع المصرية الرسمية ومترجماً لعدد من الأعمال التقنية والتاريخية والنصوص القانونية ومنها لائحة نابليون. وهو يعتبر فضلاً عن ذلك من أهم مجددي اللغة العربية، عبر خلق لغة صحفية وتأليف معجم مصطلحات قانونية في المسائل الحقوقية غير الإسلامية.

في مقدمة كتابه تخليص الإبريز، وليس فقط هنا، شدد الطهطاوي على الأهمية الجوهرية للعلم والتعليم، فكان مهتماً بتقديم المعلومات عن فرنسا بأسلوب رصين، باعتبارها إرشادات للمسافرين. هدف الكاتب هو دفع القرّاء (المسلمين) لاكتساب العلوم والتقنيات التي بلغ بها الفرنسيون درجة عالية من الرقي، إذا كانت منسجمة بالطبع مع العادات المحليّة والفقه الإسلامي. ولكي يكون كتابه مقروءاً من قبل الجميع فقد اختار لغة سلسة خالية من الإطناب والاستطراد ـ وهذه إشارة إلى القطيعة مع الأشكال الفنية المألوفة للغة العربية. ويتضمن النصّ وصفاً مجسّداً لمدينة باريس وسكّانها وموقعها الجغرافي ومناخها وحدائقها وحمّاماتها وشوارعها وساحاتها وقنواتها ووسائل لنقل فيها. ويتميّز الناس هناك، حسب قول الطهطاوي بالذكاء والشغف بالمعرفة والرغبة في التنوّع، في مجال الأزياء مثلاً. وهم لطيفون مع الغرباء، لكنهم أقلّ كرماً من العرب، ويلتزمون بتعهداتهم، كما أنهم مجدون في العمل، لكنهم مبذرون بإفراط من أجل المتع الذاتية. والرجال هناك عبيد للنساء اللواتي يتمتعن بالفتنة والجمال، والبعض منهن فطنات، لكنهن غير محتشمات. وفيما يخصّ الدين فإن العقل هناك يقف فوق كلّ شيء، والديانات تعتبر في نظر الفرنسيين وسيلة لإرشاد الناس نحو الخير وإبعادهم عن الشرّ، وتحلّ الحضارة محل الديانات في نهاية المطاف. ولاحظ الطهطاوي وبصورة إيجابية بأن كلّ فرد فرنسي يمارس شعائره الدينية بحريّة. ويتحدث الكتاب عن مختلف المواضيع مثل المنازل وأثاثها والطعام والشراب والملبس وأماكن التسلية والترفيه مثل المسرح والاوبرا والمراقص والحمّامات والعناية بالجسد والنظام الصحي والمؤسسات الإبداعية وحياة العمل والدين ورعاية العلوم. وفي هذا السياق يصف الطهطاوي المكتبات والمتاحف وحدائق الحيوانات والنباتات والمراصد الفلكية والأكاديميات والمدارس الحكومية والمعاهد العليا والجرائد والمكتبات التجارية. وتتناول فصول الكتاب الأخرى طبيعة الدراسة وثورة تموز العام ١٨٣٠ التي شهدها الكاتب بنفسه، وتبويب العلوم لدى «الإفرنج» مثلما يسمى الفرنسيون والأوروبيون عادةً. ويتعرض الكتاب إلى نظام الدولة الفرنسية ودستورها. ويثني الطهطاوي على حصر سلطات الملك والمساواة بين المواطنين بالنظر إلى فرص استلام المناصب الحكومية، وكذلك الحرية الفردية، وبالأخص حرية الرأي والمعتقد وحماية الملكية الشخصية.

ولم يستعرض الطهطاوي الثقافة الفرنسية ونمط الحياة هناك من وجهة نظر الإنسان الشرقي الساذج الذي بدت له تلك الأمور غريبةً، إنما يصف ما يراه وما يعايشه محافظاً دائماً على مسافة معينة، لكنه يحاول أن يوصل للقارئ المصري ما يراه في فرنسا عبر مقارنة ما هو معروف لهذا القارئ في مصر نفسها. ويتضح من خلال وصف المسرح الفرنسي صعوبة المهمة التي واجهها الطهطاوي عن وعي، فكان يفكر في الأسلوب الذي يعتمد عليه في طرح التصورات وهل يكون تقليدياً صرفاً أم مستورداً وهل يستند إلى ثقافة النخبة أم الثقافة الشعبية. وهنا برز السؤال حول الأسلوب الذي تصاغ به الظواهر المجهولة في بلد الأصل، وهل



البندقية
Photo: Lehnert & Landr

يجوز اشتقاق تعريف جديد أو تحوير المصطلح أو استعارته عن الفرنسية أو استخدام مصطلح عربي (بل عثماني عند الضرورة) ومنحه دلالة جديدة. شدد الطهطاوي دائماً على تقدم الأوروبيين في ميادين العلوم. بيد أنه أحاط القارئ علماً بأن الفرنسيين أنفسهم يعترفون بأنهم تعلموا الكثير من العرب في الماضي. وعلى الرغم من الإعجاب بالرقيّ الفرنسي فإن الاعتزاز باللغة العربية والحضارة العربية الإسلامية بدا جلياً. وبالإشارة إلى ازدهار العلوم والفنون في عصر الخلفاء فإن الطهطاوي لمح للقرّاء بأن العرب يتفوقون مبدئياً على الأوروبيين بسبب انتمائهم إلى الدين الحقيقي، وما عليهم سوى أن يلحقوا بركب التقدم العملي والتقني مثلما فعل محمد علي آنذاك عبر جلب الخبراء وإرسال البعثات الطلابية. هذا الموقف عكس نزعة الإيمان بالتقدم التي تمسّك بها روّاد النهضة.

علي مبارك ابن الإصلاحات والتكنوقراطية

وكما الطهطاوي رحل علي مبارك إلى فرنسا ضمن إطار بعثة طلابية. وعلى الرغم من تطابق تفكير الكاتبين المصريين الموظفين في الدولة في الكثير من وجهات النظر، إلا هناك العديد من الاختلافات بينهما. فمبارك شغل بعضاً من الوظائف الإدارية المهمة مثلما الحال مع الطهطاوي، وأراد إصلاح بلده بناءً على العلم والخبرة التي اكتسبها في فرنسا ومن خلال استخدام آخر الإنجازات العلمية والتقنية. لكنه كثيراً ما كان يعتبر رجلاً تطبيقياً وتكنوقراطياً، وبصفته منافساً للطهطاوي فإن من المحتمل أن الأخير سعى إلى نقله إلى السودان (١٨٥٠ ـ ١٨٥٤). ومبارك الذي كان يصغر الطهطاوي بجيل كامل استطاع الاستفادة من الاصلاحات التي أجراها محمد علي، فدرس في المدارس الحكومية الجديدة ودخل إلى مدرسة الهندسة في بولاق قبل أن يبعث إلى الدراسة في فرنسا (١٨٤٤ ـ ١٨٤٩). وهو لم يتمتع بخلفية تعليم إسلامية مثل الطهطاوي وكانت حججه علمانية على الأغلب. ولم يشغل نفسه بالسؤال عما إذا كان نقل المنجزات الأوروبية يتوافق مع مبادئ الإسلام، كما فعل الشيخ الأزهري الطهطاوي.

واختار مبارك شكلاً روائياً لتصوير أوروبا. ويذكر كتّاب علم الدين (١٨٨٢) بالرواية أكثر مما يذكر بنصّ تاريخي جغرافي أو بأدب الرحلات. وهو نصّ غير مألوف بالنسبة لكتابات مبارك الذي نشر أعمالاً تقنية وتاريخية بالدرجة الأولى، وغير مألوفة أيضاً بالنسبة لمصر في القرن التاسع عشر. فهذا العمل الذي يقع في أربعة أجزاء، ولم ينشر

في القاهرة، بل في الإسكندرية، يعدّ أوّل رواية تعليمية مصرية وأوّل عمل عربي حديث يعتمد أسلوب المحاورة. وقد كتب بمزيج من النثر الواضح الذي يتخلله تضمين مسجوع وهو مقسّم في مسامرات تليها أهداف تعليمية على هيئة حكايات مسلية.

يتحدث الكتاب عن علم الدين وهو شيخ أزهري يدعى من قبل مستشرق إنجليزي، فيأتي إلى أوروبا بصحبة ولده برهان الدين ليشارك في تحقيق موسوعة لسان العرب اللغوية. وتقدم أحداث الرحلة من القاهرة إلى الإسكندرية ومن ثمّ إلى مرسيليا فباريس فرصةً لتناول مواضيع مختلفة، تُطرح على شكل محاضرات أو محادثات. ولم تقتصر المواضيع على أوروبا وحدها. بل إنّ المسامرات تتعرض أحياناً إلى ما هو نظري مثل الجغرافيا والجيولوجيا والتاريخ والبراكين والأحجار الكريمة والمجموعة الحيوانية والنباتية والمشاهدات المباشرة كالقطارات والمقاهي والمسارح والمصارف أو البورصة الباريسية. فينجح الكاتب في عرض صورة متزنة لأوروبا، حيث يعرض الصعوبات التي تواجه الشرقيين الذين يقيمون صلات وثيقة بأوروبا والأوروبيين، إضافة إلى العلاقة المعقدة بين «الشرقيين» والأوروبيين.

مبارك أدخل في نصّه شخصيات أدبية نموذجية تعرض وجهات نظر وأفكار متباينة، فيقف المستشرق الإنجليزي، الذي لم يضع لها اسماً، طرفاً غربياً في مواجهة الشيخ الأزهري علم الدين، في حين يجد الشاب المصري برهان الدين قرينه الغربي في شخص جيمس/ يعقوب. وأحياناً تظهر زوجة علم الدين تقية، لتصرّح بشيء ما. ومنذ البداية يتضح للقارئ التفاوت الكبير بين الشخصيات الغربية والعربية: فبينما يقصر علم الدين المثقف الذكي معارفه على العلوم الإسلامية التقليدية وعلى اللغة العربية ومحيطه المباشر، يبدو المستشرق الإنجليزي ضليعاً في شؤون ثقافته بما في ذلك إنجازاتها الحديثة، ومطلعاً كذلك على الثقافة العربية باعتباره مستشرقاً. فهو يتقن اللغة العربية وقد طاف حول بعض الدول العربية. بيد أن الأمر يبدو أكثر سوءاً بالنسبة للجيل المصري الشاب: ففي الوقت الذي نرى فيه جيمس الأكبر سنّاً من برهان الدين يجوب العالم العربي، نجد برهان الدين نفسه يقف أمامه جاهلاً تماماً، لا يعلم شيئاً حتى عن بلده. والنتيجة المرعبة هي أن الشرق لا يعرف إلا القليل عن نفسه ولا يعلم شيئاً عن الغرب ولا حتى عن موقعه في العالم. بينما يكون الأوروبي على العكس من ذلك، فهو متبحّر في ثقافته ومطلع على الشرق ويعلم بتفوّق الغرب. ومع ذلك لا يجوز الأخذ بكل ما هو غربي دون تمحيص، لذا فإن التصورات الأوروبية عن الدين والأخلاق وأسلوب تصرف النساء وثيابهن كلها أمور غير لائقة بالمجتمع العربي. ومصر تحتاج إلى المعارف العلمية والتقنية وإلى التعليم الغربي الحديث، دون التخلي عن الإرث العربي الإسلامي.

فارس الشدياق: الروح القلقة والمجادل العنيد

كذلك ينتمي التقرير الأدبي الذي نشر عام ١٨٥٥ في باريس تحت عنوان الساق على الساق لفارس الشدياق إلى هذا النمط من الكتابة، وإن جاءت صياغته أكثر جذرية. ويتميّز هذا الكاتب عن الكثير من المثقفين العرب الذين رحلوا إلى أوروبا في القرن التاسع عشر، يتميز بذهنيته المتوقدة ونزعته الجدلية. فظروف حياته وأسفاره تختلف اختلافاً بيناً عن ظروف جميع القادمين إلى أوروبا. وإذا ما صدقنا المصادر غير الدقيقة فيمكن رسم سيرة حياته على النحو التالي: ولد في لبنان عام ١٨٠٥ وهو ماروني الطائفة وقد اعتنق البروتستانتية ثم هاجر إلى مصر عام ١٨٢٥. ودعي إلى مالطا عام ١٨٣٤، حيث أمضى ١٤ عاماً معلماً ومصححاً للبعثة الأمريكية البروتستانتية (المشيخانية).

وفي عام ١٨٤٨ دعته Socity for the Propaganda of the Gospel، التي مقرها في لندن ليشغل وظيفة في إنجلترا. ثم تنقّل في أماكن عديدة من بريطانيا خلال السنوات التسع اللاحقة، ومن ضمنها كمبردج وأوكسفورد، حيث اشتغل على ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية، وكانت تلك أوّل ترجمة حديثة. وبعد وفاة زوجته وهي لبنانية من مصر، تزوّج امرأة إنجليزية ثمّ مُنحت له الجنسية البريطانية. وبعد أن فشلت محاولته في العثور على وظيفة مدرس جامعي في إنجلترا غادر البلد خائبَ الأمل وذهب إلى باريس، حيث أمضى قرابة ٣٠ شهراً - وهي الفترة التي تعتبر الأكثر خصوبة في حياته، مع أنه كان يصارع هناك من أجل تدبير شؤون حياته المادية. وفي عام ١٨٥٧ أقام الشدياق في تونس، حيث اعتنق الإسلام، ربما أملاً في الحصول على منصب حكومي لدى الإمبراطورية العثمانية. وفعلاً دعاه السلطان العثماني عام ١٨٦٠ لإشغال وظيفة في إسطنبول، حيث أسس الشدياق أوّل جريدة حديثة باللغة العربية، جريدة الجوائب، وفي تلك المرحلة بدا ناجحاً ومستقراً اقتصادياً.

وإذا ما نظرنا إلى محطاته الحياتية فسيتضح بأن الشدياق لم يذهب إلى أوروبا لتحقيق هدف محدد ثم يعود إلى وطنه من جديد.

في كتاب «الساق على الساق» لا نعثر قطّ على وصف موضوعي منتظم لإنجلترا وفرنسا. إنما هو على العكس من الطهطاوي لم يتعرّض إلى الموقع الجغرافي والمجتمع

والسياسة، بل كان يُطلع القارئ على وجهات نظر بطليه اللذين تغلب عليهما المزاجية وطبيعة التجربة. والساق على الساق هو نصّ مركّب لا تنطبق عليه المعايير والأشكال الأدبية المعروفة. فالكاتب يصف حياة الفارياق، لكنه يناقش من ناحية أخرى القضايا الفلسفية والاجتماعية ويصف الأماكن التي يزورها، فضلاً عن معالجة المسائل اللغوية والأدبية باستفاضة. ويعرض المواضيع المتنوعة على شكل حوارات في معظم الأحوال، وأغلبها هي مناقشات جدلية بين الفارياق والفارياقية، زوجته الذكية الواعية. وهذا العمل الذي تغلب عليه روح السخرية يتعرض بالنقد لكلّ صغيرة وكبيرة، ولاسيما رجال الدين، الإكليروس، وكبار الإقطاعيين والطائفية، وهذه كلّها كانت مواضيع خطيرة للغاية في ذلك الزمن، بل مازالت خطيرةً إلى يومنا هذا، الأمر الذي حال دون نيل كتابه الاعتراف الذي يستحقه في وطنه. وتلعب اللغة في الوقت نفسه دوراً أساسيّاً في هذا النصّ المصاغ بأسلوب خال من التزويق والزخرفة، ويستهزأ بالتكلّف اللغوي. بيد أنه يضع من جانب آخر قوائم طويلة بالكلمات وإحصاء المترادفات أو الكلمات التي يوحي لفظها بمعناها، الأمر الذي يبرّز ثراء اللغة العربية ويحافظ على تراثها في الوقت نفسه.

الجزء الأخير من أجزاء الكتاب الأربعة يتحدث عن إقامة الفارياق في أوروبا. ومن خلال بطله وحده أو بصحبة زوجته وعائلته التي تغادر مالطا إلى لندن ثمّ باريس وعرضه للنقاشات التي تدور بينهم، يعكس الشدياق الجوانب المختلفة للحياة في أوروبا، وإنجازاتها، وكذلك الجوانب السلبية في أوروبا الحديثة، وهنا لا يبخل الشدياق في التعرّض للظروف الحياتية لأوروبا أثناء حقبة الثورة الصناعية تلك.

ومن الجدير بالذكر ـ وفي هذا السياق يبزّ الشدياق أقرانه كلّهم ـ أنه، وبفعل تجاربه الغنية، لا ينظر إلى أوروبا باعتبارها كتلة واحدة، إنما يتعامل معها باعتبارها مجموعة من الدول ذات الطبقات الاجتماعية المختلفة. ويصف الساق على الساق بريطانيا وصفاً حسناً. وينتقد في الواقع حقيقة أن كلّ شيء هناك قائم على الربح والمنفعة ويفتقد إلى التهذيب والتلقائية في المشاعر والكرم والضيافة، إلا أنه يقدم عموماً صورة إيجابية عن إنجلترا. ويمكن إرجاع هذا إلى أن بريطانيا كانت أول بلد يضيّفه في أوروبا حيث عاش وضعاً جيداً من خلال عمله بالترجمة، بينما كان وضعه المالي في باريس محرجاً إلى حدّ ما؛ ومن المرجح أنه حمل الأحكام الإنجليزية المسبقة على الفرنسيين. فكان الشدياق يمتدح استقامة الإنجليز ومصداقيتهم وإخلاصهم وتعاملهم المنفتح مع كلا الجنسين. وقد أظهر اهتماماً خاصاً بالنساء الانجليزيات: فهن متواضعات ومخلصات ونظيفات، في حين شكا ليس فقط من عدم نظافة الفرنسيات، بل من حالة البؤس في الشوارع وانعدام الوقاية الصحية وتفكك القيم. وحسب رأي الشدياق فإن الفرنسيات يبالغن في إظهار مفاتنهن ويتصرفن بتجبّر أمام أزواجهن ويطالبن بأسلوب حياة متهتك. وعلى العكس من ذلك فإن المؤلف يكيل المديح لأنماط الحياة الاجتماعية العامة المنظمة في إنجلترا، حيث يتمتع جميع الناس بالحقوق نفسها وينعدم أي شكل من أشكال الاضطهاد والتعسّف من قبل الدولة.

وبغض النظر عن الفوارق بين النصوص الثلاثة فإنها تنتمي إلى المرحلة المبكرة من الاتصال المكثّف بين «الشرق» و«الغرب»، ولذلك فهي غير متأثرة نسبياً بالفجوة الكبيرة التي أحدثتها العلاقات الاستعمارية في نهاية القرن التاسع عشر. وإذا كان هؤلاء الكتّاب قد رسموا صورة إيجابية إلى حدّ بعيد للقارة الأوروبية، فإن هذه الصورة قد تبدلت على مرّ الأعوام بعدما ازداد عدد تقارير الرحلات: فبات الأوروبيون يظهرون بصفتهم أسياداً مستعمرين بعيدين كلّ البعد عن التنوير، بل ويتناقض تعاملهم مع العالم الآخر خارج أوروبا تناقضاً كبيراً مع قيمهم المعلنة.

ترجمة: حسين الموزاني

بربارة فنكلر: مدرسة الأدب العربي في جامعة برلين الحرّة.

هينريش بيسترفلد Hinrich Biesterfeldt

الترحال في طلب العلم

علماء يجوبون العالم في العصر الإسلامي الوسيط

ما هو السبب الذي دفع البعض من بني البشر لأن يتنقلوا بين البلدان في العصر الإسلامي الوسيط؟ حينما يُطرح هذا السؤال على المسلم، فإن مكة هي الهدف الأول والرئيسي من أسفاره. فأداء شعائر الحج كان يحتم على الكثير من المسلمين أن يزوروا مكة قادمين من أقاصي غرب وشرق العالم الإسلامي، ومتحملين أعباء مالية عظيمة وأتعابا بدنية مرهقة. وكان عدد الحجاج يفوق بكثير عدد المسافرين لأغراض أخرى.

وفيما خلا المسافرين لأداء مناسك الحج كانت هناك مجموعة أخرى من المسافرين والرحالة، مجموعة تتكون من ناحية من جغرافيين مهنتهم إرشاد السلطات إلى الطرق الرابطة بين الأقاليم المختلفة وتزويدها بعناوين الأماكن المناسبة لاستراحة المسافرين وإبلاغها بما تنتجه البلدان المختلفة من سلع يمكن فرض الضرائب عليها، ومن ناحية ثانية من دارسين أخذوا على عاتقهم تعريف قومهم بالخصائص الثقافية المميزة للأقاليم المختلفة (كالمسعودي) وبالفلك والجغرافية الطبيعية للعالم (كالقزويني). فمؤلفات هؤلاء الدارسين كانت تسلي القراء بما تقدم لهم من وصف لأقاليم غريبة تمتد حتى تخوم المملكة الإسلامية وترشدهم إلى ما في الكون من ظواهر تشير إلى الحكمة الإلهية، وتنبههم إلى تجلي الله في «عجائب المخلوقات». أما المجموعة الثالثة، فإنها كانت تتكون من أناس يتاجرون بالعاج المستورد من أفريقيا السوداء والحرير الذي تختص به البلدان الواقعة في أقاصي الشرق والصابون المُصنع في بلخ وما شابه ذلك من سلع كثيرة. وبالإضافة إلى هذه المجموعة وتلك، كان هناك التلاميذ والعلماء أيضاً، فهؤلاء كانوا يتجولون في ربوع لعالم الإسلامي «في طلب العلم» أولاً وأخيراً. إن هؤلاء لرحالة في طلب العلم هم القوم الذين يشكلون المادة التي ستتناولها هذه المقالة.

ن الدراسات المختصة بتاريخ الفكر الإسلامي في العصر لوسيط كثيراً ما تُبرز القيمة العظيمة التي حظيت بها لمعارف والعلوم في ذلك العصر من تاريخ الإسلام. فطلب لعلم فريضة تكاد أهميتها أن تصل إلى أهمية الفرائض لدينية الأخرى. فالقرآن الكريم يوجه الكلام إلى المؤمن لصالح ويأمره: "وقل ربِّ زدني علماً" (سورة طه، الآية ١١٤). وفي حديث نبوي مشهور يناشد النبي محمد أبناء أمته قائلاً: "اطلبوا العلم ولو في الصين، فإنَّ طلب العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم". ومع أن المختصين بالأحاديث النبوية ينسبون هذا الحديث إلى الأحاديث ضعيفة الإسناد، إلا أن هذا لا يغير شيئاً من أن معناه يعبر بكل تأكيد عن منظور الإسلام بشأن طلب العلم. وغني عن البيان أن هذا الحديث النبوي كان قد دفع العديد من العلماء لأن يركزوا جهودهم على دراسة الأحاديث النبوية نفسها. ففي وقت مبكر من تاريخ الإسلام، أعني حين كان صحابيو النبي والتابعون لهم لا يزالون على قيد الحياة، توجه العديد من العلماء المسلمين إلى الموطن الرئيسي للأحاديث النبوية، إلى المدينة أولاً، وإلى المدن الأخرى من ثم، وذلك رغبة منهم في مقابلة الرواة القاطنين في هذه المدن واستطلاع رأيهم فيما عرفوه من السنة النبوية وما حفظوه من الأحاديث النبوية وأساليبهم في تعرّف صحيح الحديث من ضعيفه. ويعتقد أستاذ علم الحديث الهولندي غوتيه يوينبول أنه اهتدى إلى اسم أول من تَنَقّل بين البلدان طلباً للأحاديث النبوية: مَعْمَر بن رشيد (المتوفى عام ١٥٣ هجري، ٧٧٠ ميلادي). فبحسب ما يرويه يوينبول فإن معمر بن رشيد هذا كان من مواليد البصرة وأنه جاب الحجاز أولاً وانتهى به الأمر، من ثم، ليقيم في اليمن. وطلباً للعلم جاب البلدان عالم آخر من علماء القرن الهجري الأول. فقد قال هذا العالم ما نصه:

"كنتُ عبداً بمصر لامرأة من بني هُذَيل فأعتَقَتني فما خرجتُ من مصر وبها علم إلا حَوَيتُ عليه فيما أرى ثم أتيتُ الحجاز فما خرجتُ منها وبها علم إلا حَوَيتُ عليه فيما أرى ثم أتيتُ العراقَ فما خرجتُ منها وبها علم إلا حَوَيتُ عليه فيما أرى ثم أتيتُ الشامَ فَغَرْبَلْتُها كلَّ ذلك أسأل عن النَّفَل فلم أجدُ أحداً يُخبِرُني فيه بشيء حتى لقيتُ شيخاً يقال له زيادُ بن جَارِية التميمي فقلتُ له هل

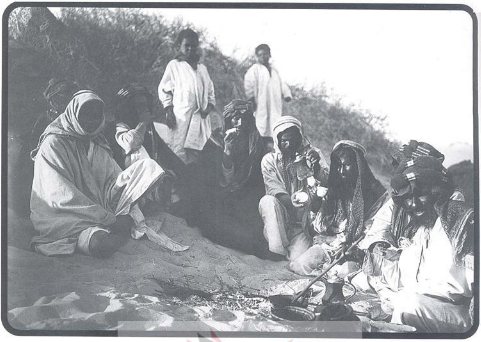


Photo: Hermann Burchardt
من كتاب: Unterwegs am Golf
Verlag Hans Schiler, Berlin 2006

سَمعتَ في النفل شيئاً قال نعم سمعت حبيب بن مسلمة الفهري يقول شهدت النبي صلى الله عليه وسلم نَفَّلَ الربع في البَدأة والثُلثَ في الرجعة".

وتشتمل هذه السطور على كافة الخصائص المهمة في طلب العلم: فالعالِم المؤمن بدينه يهتم في المقام الأول بالتحقق من مصداقية ما يرويه الرواة عن النبي محمد من أحاديث. ولأنه، في الأساس، يريد جمع وتدوين كافة الأحاديث النبوية التي يرويها المتحدثون، لذا فإنه يواجه معضلة كبيرة، معضلة التعرف على الأحاديث المشكوك بمصداقية رواتها. وللنهوض بهذه المهمة وللتأكد من مصداقية الرواة تراه يجوب البلدان. فالتحقق من مصداقية الرواة لا يتم من خلال المراسلة أو السماع من طرف ثالث، بل يتم من خلال الاتصال المباشر بالشخص الذي يروي الحديث.

وتشتمل المؤلفات الجامعة للأحاديث النبوية عادة على مقدمات تشير إلى موضوعات تؤكد على أن المعلمون والعلماء فئة لها منزلة خاصة في المجتمع؛ وأن طلب العلم ونشره بين بني البشر من الأعمال الصالحة ونعمة يمن بها الله على عبده الورع، نعمة تُلغي ما بين الأفراد من تباينات اجتماعية.

ففي صدر الإسلام كان المسلمون يُعلون من شأن العالم الذي يجوب البلدان طلباً للعلم. وهذا ليس بالأمر العجيب. فأحد الأحاديث النبوية يرفع طلب العلم إلى منزلة الفرائض التي يجب على المؤمن أن يلتزم بأدائها: «طلب العلم فريضة» بالنسبة للمسلم أو «فرض» كما تقول رواية أخرى. ونقرأ في نفس المؤلف الجامع للأحاديث النبوية: أن أبا الدرداء، الصحابي الذي عاصر الحقبة الأخيرة من حياة النبي محمد والذي كان قد تولى القضاء في دمشق ردحاً من الزمن قد أتاه رجل، وهو يحدث الناس في مسجد دمشق، فقال له: يا أبا الدرداء! أُتيتُكَ من المدينة، مدينة رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم لحَديث بَلَغَني أنَّكَ تُحَدِّثُ بهِ عَنِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم. قالَ: فَما جاءَ بكَ تجَارةٌ؟ قال: لا. قال: ولا جاء بك غَيرهُ؟ قَالَ: لا. فقال له أبو الدرداء عندئذ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمسُ فيه علْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طريقاً إلى الجَنَّة. وإنَّ الملائكة لتَضعُ أجنحتها رضاً لطالبَ العلم. وإنَّ طَالبَ العلمِ يَسْتَغْفرُ لهُ مَنْ في السَّمَاء وَالأَرْضِ. حتى الحِيتَان في الماء. وإن فَضلَ العالمِ على العَابد كَفَضلِ القمرِ على سائرِ الكَواكب. إنَّ العلماءَ وَرَثَةُ الأَنبياء. إنَّ الأَنْبياءَ لَمْ يُورِّثُوا ديناراً وَلا دِرهَماً. إنَّما وَرَّثُوا العلمَ. فَمَنْ أَخذهُ، أَخَذَ بِحظٍّ وَافرٍ".

ويرى بعض المؤلفين أن طلب العالم عنصر من عناصر الأخوة بين المسلمين. ولعل المؤلف الدمشقي النووي خير مثال على وجهة النظر هذه. ففي مؤلفه الموسوم «كتاب الأربعين»، وهو مرجع نُشر في وقت متأخر نسبياً ولا يزال

مرجعاً يرجع إليه الكثير من القراء، ينقل النووي الحديث النبوي السادس والثلاثين الذي يؤكد فيه النبي محمد على الأخوة بين أبناء الأمة الإسلامية وأن مَنْ نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. فبحسب هذا الحديث النبوي فإن: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلى الجَنَّة".

ويشرح النووي مغزى هذا الحديث فيقول معلقاً: وفي الحديث دليل على استحباب المشي في طلب العلم، ويُروى أن الله تعالى أوحى إلى النبي داود: أن خذ عصا من حديد ونعلين من حديد وامش في طلب العلم حتّى يتخرّق النعلان وتتكسّر العصا. وفيه دليل على خدمة العلماء وملازمتهم والسفر معهم واكتساب العلم منهم. وفي النص القرآني يسأل النبي موسى: "هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً؟" (سورة الكهف، الآية ٦٦).

وكما هو بين من التعليق أعلاه يسبغ النووي في هذا الموضع ـ وفي هذا الموضع فقط ـ على فضيلة طلب العلم قيمة مثالية بكل معنى الكلمة، فهو يريد أن يقول أن على طالب العلم أن يعزف عن ركوب الدواب في طلب العلم وأن عليه أن يجوب البلدان والأمصار ماشياً على قدميه. ومن حق المرء أن يسأل هنا عن الأمر الذي دفع النووي لأن يتطرف هاهنا. فهل أراد النووي بوجهة نظره هذه تبرير موقفه حيال النقد الموجه إليه؟ فهو لم يسافر في طلب العلم قط.

ومهما كانت الحال، فإن رفع طلب العلم إلى منزلة الفرائض الدينية تضرب جذوره في الطريقة العملية التي انتهجتها المؤلفات التي جمعت الأحاديث النبوية في زمن مبكر من تاريخ الإسلام. فالعلماء المسلمون انتقدوا، هم أنفسهم، الطابع المحلي الذي اتسم به العديد من الأحاديث المنقولة عن النبي محمد؛ فهؤلاء العلماء يُسلطون الضوء على أحاديث نبوية متداولة فقط في بلاد الشام وفي مصر لا غير، وفي البصرة ليس إلا على سبيل المثال لا الحصر ويطعنون، بالتالي، في تلك الأحاديث التي شاعت في الأمصار المختلفة بصيغ متعددة وإن كانت تُنقل عن نفس الراوي. وبما أن سلسلة رواة الحديث المنقول ترد في المتن أيضاً باعتبارها جزء لا غنى عنه، لذا لا مندوحة للعلماء من تجشم المصاعب والتفتيش عن الأشخاص الذين تُنقل عنهم الأحاديث المثيرة للجدل للتأكد منهم على صحة ما يروى عنهم من أحاديث. وهكذا، وبعد التأكد من صحة الحديث صار بمستطاع هؤلاء العلماء أن يأخذوا عن هؤلاء الأشخاص المتن والإسناد الذي يُجيزونه لهم وأن يضيفوا، من ثم أسماءهم إلى سلسلة الإسناد. وهكذا كان الشخص الذي يُجيز لطلبته أن يقرؤوا أحاديث لم يجمعها بنفسه يلقى أشد النقد من قبل زملائه من الفقهاء والعلماء. فالمرء ما كان يشعر بأي حرج من أن يطلق على فتى غادر قرطبة في الرابعة عشر من عمره (٣٣٠/٩٤١) ليزور ـ بحسب ما ينقله ابن الفرضي في مؤلفه الموسوم "كتاب تاريخ الأندلس" ـ مكة والمدينة وجدة وصنعاء وزبيد وعدن والفسطاط والقدس وغزة وعسقلان وطبرية ودمشق وطرابلس وبيروت وقيسارية والرملة وفَرماء والإسكندرية وقُلزُم طلباً للعلم، ألقاب من قبيل "الرحّالة" و "الجوّال" و "طوّاف الأقاليم". وتمتع السمعاني (المتوفى عام ٥٦٣ هـ) أيضاً بمنزلة رفيعة. فعن هذا العالم المؤلف لكتاب الأنساب ينقل الرواة أنه كان شغوفاً بالاستماع إلى الأحاديث النبوية وأنه ساح في الديار والأمصار النائية طلباً لهذه الأحاديث وأنه كان قد بز الكثيرين من حيث عدد الأحاديث التي سمعها. فطلباً للعلم تجول السمعاني مرات عديدة في ربوع ما وراء النهر وخراسان والجبال وأصفهان والعراق والموصل والجزيرة وسوريا وأمصار أخرى كثيرة. إلا أن بعض المؤلفين يتهمونه بالتحايل والتبجح: فابن الجوزي يقول إن السمعاني، حينما زار بغداد في مرة من المرات، تعرف على شخص من رواة الأحاديث النبوية وأنه طلب منه أن يعبر معه نهر عيسى وأن يروي عليه الأحاديث وهو في الطرف الآخر من النهر وذلك لأنه سيستطيع عندئذ أن يتبجح بأنه تعلم عن هذا الشيخ في بلاد ما وراء النهر. وكيفما اتفق، فالسفر لم يكن سياحة يراد منها النزهة والتسلية، لم يكن تجوالاً يهدف، في المقام الأول، إلى التعرف على العالم وكسب التجارب، بل كان يهدف إلى التعرف على رواة الأحاديث في مواطنهم والإصغاء إلى ما ينقلون والتعلم من مخزون ذاكرتهم ومؤلفاتهم. فكما ورد في كتاب "طبقات الحفاظ" كان هؤلاء الجوالة يشبهون العصافير، فهم يأخذون من العلماء كما لو كانوا عصافير تمتص رحيق كل شجرة تستقر عليها.

وأورد أيغناتس غولدزيهر في كتابه "دراسات محمدية" أمثلة يتحدث فيها طالبو العلم عن أنفسهم وعما مروا به في حياتهم. وينقل غولدزيهر في مؤلفه هذا فقرة من مذكرات ياقوت الرومي الحموي يذكر فيها ياقوت أن أبا القاسم ابن عبد الوارث الشيرازي (المتوفى عام ٤٨٥ هجري) قد دخل خلال رحلاته من بغداد إلى الموصل مدينة صريفون وأنه قضى ليلته في جامع هذه المدينة. وفي اليوم التالي تحدث أبو القاسم مع إمام الجامع وسأله عما إذا كانت لديه نصوص من الأحاديث النبوية. ورد عليه الإمام بالإيجاب وراح يعرض على أبي القاسم بضعة كراسات كان من جملتها كراسة لا تقدر قيمتها بثمن وذلك لأنها اشتملت على مجمل ما جمع عليّ بن جَعد (المتوفى عام ٢٣٠ هجري) من أحاديث نبوية. وكتب أبو القاسم إلى زملائه رسائل يُخبرهم فيها باكتشافه العظيم. وكانت هذه

الرسائل قد تسببت في جعل صريفون مزاراً يستقطب جمهور العلماء لا لشيء إلا لأن هؤلاء العلماء أرادوا أن يأخذوا الأحاديث النبوية عن الشخص الوحيد الذي لا يزال يتوافر على الأحاديث التي جمعها ابن جَعْد.

والأمر الذي لا شك فيه هو أن هذه الرحلات قد ساهمت بشكل فعال في جرد الأحاديث النبوية المتداولة في إقليم معين فقط وتدوينها، بعد التحقق من صحتها، في سجل موحد يجمع الأحاديث النبوية. وهكذا، فلولا هذه الرحلات والأسفار لما نشأت المؤلفات الجامعة للأحاديث النبوية التي يرجع إليها الفقهاء في المسائل الفقهية؛ إن هذه الرحلات والأسفار ساهمت بشكل قوي في نشأة سُنَّة نبوية موحدة يهتدي بها العالم الإسلامي برمته. من ناحية أخرى، فعلاوة على ما طرأ على الفكر السياسي والاقتصادي من تطور، وبالرغم من كل الحماس الذي اتصف به الرحالة في طلب العلم، فإن الأمر الذي لا شك فيه هو أن الحرية الثقافية كانت واسعة الانتشار في العالم الإسلامي وأن أبواب دار الإسلام كانت مفتوحة على مصراعيها أمام هؤلاء الرحالة.

بيد أن اهتمام العلماء بسماع الأحاديث عن رواتها مباشرة، حتى بعدما توافرت الأمة الإسلامية على كتب حديث معترف بها من قبل الجميع، تسبب في الواقع في خلق نتائج سلبية أيضاً. فكلما جمع المرء أحاديث أكثر وكلما أضاف إلى الأحاديث المتعارف عليها أحاديث جديدة، كانت تزداد أيضاً حماسة طلاب العلم للعثور على أحاديث جديدة وتتصاعد رغبتهم في ضم هذه الأحاديث إلى الأحاديث المتعارف عليها حتى وإن كانت لا تخلو من معاني مثيرة للاستغراب. وهكذا دفعت هذه الحماسة البعض لأن ينفق مالاً كثيراً على اقتناء نصوص من الأحاديث النادرة. وكانت المتاجرة بنصوص الأحاديث النبوية عملاً مستنكراً يخالف آداب العلوم الدينية مخالفة صريحة بحسب ما قاله أبو الدرداء لضيف كان قد جاء إليه من المدينة. من هنا لا غرو أن يدين المؤمنون المتاجرين بالأحاديث النبوية في وقت مبكر، في القرن الهجري الثاني. فعن أبي المهزم يُروى أنه كان يجلس في مسجد ثابت البناني ويُلفق الأحاديث. فهو كان على أتم استعداد لأن يُلفق سبعين حديثاً لقاء قرشين. وكان المؤمنون يدينون المتاجرة بالعلوم مستشهدين بعبارة واسعة الانتشار مفادها: "عَلِّم مَجاناً كما عُلِّمتَ مجّاناً".

وثمة تعليقان مهمان خلفهما لنا فقيهان عاشا في القرن الهجري الخامس، أي في ذلك القرن الذي شهد ذروة المتاجرة بالأحاديث الملفقة. الفقيه الأول هو الخطيب البغدادي، فقد كتب البغدادي في مؤلفه الموسوم «الكفاية في معرفة أصول علم الرواية» قائلاً بأن طائفة من أهل زمانه: "... قنعوا من الحديث باسمه...، فهم أغمار، وحملة أسفار، قد تحملوا المشاق الشديدة، وسافروا إلى البلدان البعيدة، وهان عليهم الدأب والكلال، واستوطئوا مركب الحل والارتحال وبذلوا الأنفس والأموال وركبوا المخاوف والأهوال، شعث الرؤس، شحب الألوان، خمس البطون، نواحل الأبدان، يقطعون أوقاتهم بالسير في البلاد طلباً لما علا من الإسناد، لا يريدون شيئاً سواه، ولا يبتغون إلا إياه، يحملون عمن لا تثبت عدالته، ويأخذون ممن لا تجوز أمانته، ويروون عمن لا يعرفون صحة حديثه، ولا يتيقن ثبوت مسموعه، ويحتجون بمن لا يحسن قراءة صحيفته، ولا يقوم بشيء من شرائط الرواية، ولا يفرق بين السماع والإجازة، ولا يميز بين المسند والمرسل، والمقطوع والمتصل، ولا يحفظ اسم شيخه... ويكتبون عن الفاسق في فعله، والمذموم في مذهبه، وعن المبتدع في دينه، المقطوع على فساد اعتقاده، ويرون ذلك جائزاً، والعمل بروايته واجباً، إذا كان السماع ثابتاً، والإسناد متقدماً عالياً..."

أما الفقيه الآخر، فإنه الغزالي. فقد كان قد كتب في كتابه «إحياء علوم الدين» أن بعض المغرورين بأنفسهم: "استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية. فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان ولقد رأيت فلاناً ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري".

وبرغم كل هذه السلبيات، لا مندوحة لنا من أن نقر بأن طلب العلم قد خرج في الحقب المبكرة من العصر الحديث عن الحدود الضيقة المتصلة بجمع الأحاديث النبوية فواصل وجوده بمعنى أعم وأشمل. فتنقل العلماء اتسع هدفه فصار يغطي مختلف العلوم كما هو بين من الروايات الكثيرة المتحدثة عن الأسفار التي قام بها، من ثم، البعض من أهل العلم إلى البلدان والأمصار، إما للتعرف على عظماء العلماء أو لزيارة المكتبات الغنية بكتبها. وإذا ما أخذ المرء الدوافع الأخرى للسفر أيضاً بنظر الاعتبار - أعني الحج والتجارة والانتقال من بلد إلى آخر لأسباب حتمتها الظروف السياسية، كما هو بين من سيرة ابن سينا والبيروني - أو بدافع الجمع بين الحج وطلب العلم في آن واحد، نعم إذا أخذ المرء هذه الدوافع بنظر الاعتبار، لا شك في أنه سيلاحظ أن مراكز العلوم كانت متعددة ومختلفة الخصائص وأن أبناء هذه المراكز كانوا واعين بخصائصهم المحلية وشديدي الفخر بديارهم وأوطانهم. ففيما كانت بغداد، بداية من القرن الثالث وحتى مطلع القرن الرابع، منارة العلوم، كان مركز الإشعاع العلمي قد انتقل إلى القاهرة أيام حكم الفاطميين، وإلى نيسابور طيلة

القرنيين التاليين، وإلى الآستانة أيام الحكم العثماني. ويقف المرء على شيء مما ساد في مصر من كبرياء واعتزاز بالذات ومن تفاخر المصريين بأن وطنهم فيه من الثراء ما يزيد عن حاجتهم بكثير - فالمصريون كانوا، من ناحية، يتميزون بتمتعهم بوضع جغرافي ثابت الأركان ويعيشون خلف حدود آمنة من العدوان، ومن ناحية أخرى يحتلون مكانة تقع في قلب العالم العربي ولا تبعد كثيراً عن الحرمين الشريفين - من خلال سطور دونها عمر بن محمد الكندي في مؤلفه الموسوم «كتاب فضائل مصر». فقد كتب هذا المؤلف، الذي كان ابن المؤرخ الشهير أبو عمر محمد الكندي (المتوفى عام ٣٥٠ هجري) حرفياً: "وأجمع أهل المعرفة أن أهل الدنيا مضطرون إلى مصر، يسافرون إليها، ويطلبون الرزق بها، وأهلها لا يطلبون الرزق في غيرها، ولا يسافرون إلى بلد سواها، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا لغنَى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا."

ومهما كانت الحال، فقد تسبب كل من التبادل بين أقاليم العالم الإسلامي المختلفة والاعتزاز بمسقط الرأس - وهو اعتزاز ما كانت شدته تضعف بعد عودة المسافر في طلب العلم إلى موطنه، بل كان يزاد قوة ورسوخاً بكل تأكيد - في أن يقلد أبناء هذه الأقاليم المؤلفات المتحدثة عن «فضائل» هذا البلد أو ذاك وأن يؤلفوا كتباً لا تتحدث فقط عن فضائل القرآن والنبي وهذا الصحابي أو ذاك، بل راحوا أيضاً ينشرون مؤلفات تتحدث عن فضائل مؤمنين آخرين وعن مزايا مدن وأوطان مختلفة مستشهدين، في كثير من الأحيان، بأحاديث نبوية تدعم تصوراتهم. وللتدليل على ما نقول نكتفي هنا بذكر بضعة من عناوين هذه المؤلفات الكثيرة: «كتاب فضائل الشام ودمشق»، «كتاب فضائل الكوفة»، «كتاب فضائل بلخ»، «كتاب فضائل بيت المقدس»؛ وبالإضافة إلى هذه المؤلفات كانت هناك مؤلفات أخرى تعكس ما بين الأقاليم من منافسة، أعني مؤلفات من قبيل: «المفاخرة بين دمشق والقاهرة» للمؤلف المصري علي بن محمّد السخاوي (المتوفى عام ٦٣٤/ ١٢٤٣). كما كان هناك كتابان على أدنى تقدير يشيدان بمحاسن وفضائل الأندلس، وهما كتاب الأديب والفقيه المشهور ابن حزم الأندلسي وكتاب الشَقُندي (المتوفى عام ٦٢٩/ ١٢٣١). ولعله تجدر الإشارة هنا إلى أن مؤلف الشَقُندي قد خالف العادة المتبعة فلم يستشهد بالأحاديث النبوية، بل اكتفى بالإشادة بمحاسن دولة الأمويين وفضائل ما في الأندلس من علماء ومدن (اشبيلية وقرطبة على سبيل المثال لا الحصر) وشِعر أندلسي.

واحتلت الأندلس، بحسب ما يبدو لنا، مكانة متميزة بقدر تعلق الأمر في طلب العلم. فمن أجل طلب العلم كانت الرحلات باتجاه المشرق أمراً مفروغاً منه، أمراً يشكل معلمة مهمة في السيرة الثقافية لطالبي العلم. ولا غرو أن أهمية هذه المعلمة تكمن بنحو جوهري في أن شبه الجزيرة الإسبانية كانت تشكل أقصى حدود العالم الإسلامي من ناحية الغرب. أضف إلى هذا أن الأندلس كانت، هي وصقلية، المصر الإسلامي الأكثر مقربة من البلدان المسيحية والأكثر احتكاكاً بالمواطنين النصارى. ونلاحظ بيسر من المذكرات الذاتية المتأخرة (مذكرات ابن خلدون ومن مذكرات العالم اليهودي موسى بن ميمون أيضاً) أن الضغط الذي مارسته محاكم التفتيش المسيحية كان قد جعل السفر إلى القاهرة رحلة لا عودة منها - فكلا العالِمَين كانا قد استقرا في القاهرة حتى وافتهم المنية. على صعيد آخر، كانت الأندلس وبلاد شمال أفريقيا تعتنق المذهب المالكي. ومعنى هذا هو أنها كانت مستقلة بنفسها بقدر تعلق الأمر بالمسائل الفقهية. بيد أن هذه الحقيقة لا يجوز أن تحجب عن ناظرينا حقيقة أن هذه الأقاليم ما كان فيها صحابيون أو تابعون يروون الأحاديث النبوية؛ من هنا، فإن علماء هذه الديار كانوا مضطرين للسفر إلى المشرق الإسلامي. وتنطوي قراءة مؤلف ابن عبد البرّ (المتوفى عام ٤٦٤ هجري) على نفع أكيد؛ ففي مؤلفه الموسوم «كتاب جامع بيان العلم وفضله» يناقش هذا المُؤلِفُ - الذي لم يغادر قرطبة قط حسب علمنا والذي كان أشهر محدثي زمانه ويؤثِر، اقتداءً بمالك بن أنس، الحديث، ولو كان خبر آحاد، على القياس - المسألة التي أشرنا إليها أعلاه، أعني مسألة ما إذا كان طلب العلم فريضة فعلاً، فيضع على لسان مالك جواباً مفاده أن طلب العلم فضيلة بكل تأكيد، لكنه ليس فرضاً مكتوباً على المسلم.

وفي الآونة الأخيرة درجت العلوم الإسلامية على توجيه الأنظار صوب نموذج كان، في الأصل، متداولاً في طب الأمراض العقلية، وانتقل، من ثم، إلى علم الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، أعني صوب ذلك النموذج الذي يسلط الأضواء على العمليات المختلفة المتبعة لحشد الجماهير دينياً والتي لا تزال، حتى اليوم الراهن، تعمل عملها على تغيير الكثير من المجتمعات الإسلامية: أعني ما يسمى بـ «نموذج التشابكات القائمة على العلاقات الاجتماعية». ويكمن الأمر القابل للقياس في هذا النموذج في سعة وكثافة ما لدى الشخص المعني من علاقات شخصية في المقام الأول - علماً بأن ارتباطاته الاجتماعية الكثيفة يمكن أن تأتلف مع علاقاته الاجتماعية محدودة المدى، وأن ارتباطاته الاجتماعية المهلهلة يمكن أن تأتلف مع علاقاته الاجتماعية واسعة المدى. وتشتمل العلاقات القائمة في إطار رابطة معينة على ملامح نوعية كثيرة. ومن بين هذه الملامح نود أن نشير هنا إلى ما تتسم به هذه العلاقات من معزى وكثافة على وجه الخصوص، علماً بأن

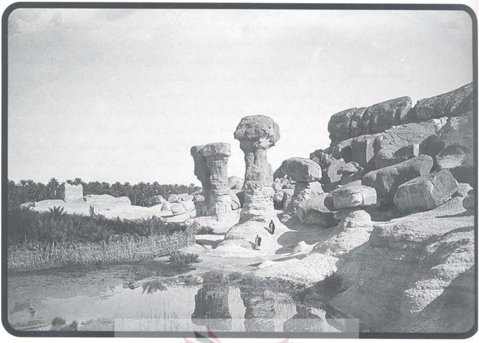


Photo: Hermann Burchardt
من كتاب: Unterwegs am Golf
Verlag Hans Schiler, Berlin 2006

مغزاها يمكن أن يتحدد من خلال صلة القرابة وعلاقات الصحبة والصداقة ومن خلال العلاقات المهنية أو الاقتصادية ـ وبالنسبة للموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه ـ من خلال ما لدى المرء من اتجاهات علمية أو دينية أيضاً. والأمر البين هو أن الفقهاء المسلمين درجوا، في كل حقب التاريخ الإسلامي، على أن ينشطوا تحت راية رابطة معينة، تحت راية روابط تريد هذه المقالة مناقشة دوافع نشأتها في العصر الإسلامي المبكر. وليس ثمة شك أبداً في أن السفر لأداء مناسك الحج وللأغراض العلمية قد كانت، بالنسبة للعلماء الذين نتحدث عنهم هنا، من جملة العناصر المهمة التي تولدت عنها شبكة من العلاقات المتينة. وبالنسبة للزمن الراهن، فإن الأمر البين والمعروف هو أن هذا الزمن قد بات يشهد تأسيس حركات إسلامية تقتدي بحركة «الأخوان المسلمين» ليس، فقط، من حيث أنها لا تشير إلى ارتباطها بفقهاء معينين، بل ولأنها تتخذ، إلى حد ما، مواقف متحفظة، أيضاً، حيال قدماء الفقهاء، أي أولئك الفقهاء الذين كان المسلمون يهتدون بهم في الأزمنة الغابرة. وتتميز هذه الحركات في أنها لا يمكن ربطها بنحو واضح بفئة اجتماعية معينة. فهذه الحركات لا تعثر على أنصارها، فقط، في المدارس والجامعات المتناثرة في المدن المتنامية بنحو انفجاري في بلدان العالم الإسلامي، بل هي تعثر عليهم أيضاً في صفوف الفلاحين النازحين إلى المدن وفي صفوف أبناء الطبقة الوسطى القاطنة في المدن والقرى والأرياف. ويمكن، أخيراً وليس بآخر، الإشارة، أيضاً، إلى تزايد تغلغل هذه الحركات في المؤسسات الحكومية وفي بعض القطاعات الاقتصادية. ولا ريب في أن هذه الحركات الإسلامية يمكن توصيف كياناتها التنظيمية وتحليل مراميها وبنياتها الاجتماعية من خلال المناهج التحليلية التي تسلط الأضواء على العمليات المختلفة المتبعة لحشد الجماهير دينياً.

وبالإضافة إلى عرض التشابكات الاجتماعية من وجهة النظر الكلية، يمكن تسليط الضوء على هذه التشابكات من منظور الفرد الواحد أيضاً. فما خلفته لنا العصور الإسلامية المبكرة من أدبيات مختصة بعلم الأنساب وبتراجم المشاهير من الأفراد وملاحظات وتعليقات دونها مَنْ كانت بحوزته هذه الأدبيات تشكل، بالنسبة للناشطين في طلب العلم، مادة تاريخية غزيرة. وبقدر تعلق الأمر بالشأن الذي نحن بصدد الحديث عنه، لا يجوز طبعاً تجاهل أهمية الملاحظات التي دونها ملاك وقراء هذه المؤلفات وإجازة استخدام هذا المُؤلَف أو ذاك للأغراض التعليمية، لاسيما أن هذه المؤلفات قد جابت البلدان والأمصار أيضاً في كثير من الحالات. وكما كشفت الدراسات الخاصة بعلوم الإسلام في ألمانيا، تُشكل نشأة الروابط وتراجم الأفراد منظورين يعمق كل واحد منهما الآخر بنحو كبير.

وفي مؤلفه الموجود حالياً تحت الطبع، أعني مؤلفه «عالِم مرتضى الزبيدي (١٧٣٢ ـ ١٧٩١)، حياته علاقاته ومؤلفاته»، يحلل أستاذ العلوم الإسلامية في جامعة بوخوم بألمانيا شتيفان رايشموت حياة ومؤلفات مرتضى الزبيدي، العالم الذي تولى شرح كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي وألف معجماً عظيماً اسمه «تاج العروس»: فالزبيدي، المولود في مدينة بلجرام في شمال الهند، سافر وهو شاب يافع ـ وهذه السفرة هي بلا ريب نموذج حي على عمق ما ساد بين الهند وجنوب الجزيرة العربية من علاقات علمية ـ إلى مدينة زبيد في اليمن وكان قد غادر في العديد من المرات مدينة زبيد وذلك لأداء مناسك الحج وزيارة الحرمين الشريفين في الحجاز. وغادر الزبيدي اليمن نهائياً ليقيم في القاهرة التي وصلها عام ١٧٥٤. وظل يقيم في هذه المدينة حتى وافته المنية فيها. وفي القاهرة كتب الزبيدي مؤلفاته وأقام علاقات وطيدة وواسعة مع المحدثين والصوفيين؛ وكان من جملة هؤلاء الرجال رجال كانوا قد جاءوا من المغرب العربي. وخلال وجوده في القاهرة قام الزبيدي بعدة رحلات إلى فلسطين وتجول في ربوع الديار المصرية. وعلى ما يبدو، كان الزبيدي عبقرياً في خلق الصداقات وفي تكوين علاقات حميمة وواسعة مع زملائه في العلوم.

وفي مؤلفه ـ غير المطبوع لحد الآن ـ، أعني في مؤلفه الموسوم «مُعجم» والذي كان الزبيدي قد ألفه في الحقبة الأخيرة من حياته، يتحدث الزبيدي بالتفصيل عن الرجال الذين كان لهم دور عظيم في تحديد مسيرة حياته: معلمون وآباء روحانيون وتلامذة تلقوا عنه الأحاديث على وجه الخصوص وكذلك الأصدقاء والزملاء والمتقين الذي التقى بهم في يوم من الأيام. وكان قد كتب في مقدمته لمؤلفه هذا فقرة تقول: "هذا معجم مختص بذكر مَنْ أخذت عنه العلوم والمعارف من شيوخي وآبائي، ومَنْ جالسته أو جالسني من طلبة الحديث من رفيق وصاحب وصالح، أو تبركت به من أرباب الكشف والأحول الصادقة، أو من المشاهير، وقد أذكر فيه من أحبني في الله ورسوله وأحبته، أو أنشدني شيئاً أو أنشدته، أو استفدت منه شيئاً أو سمعت بأخباره فكاتبته أو كاتبني... مرتباً ذلك على حروف التهجي، مراعياً الترتيب في اسم أبيه..."

وكما هو بين، فإن هذا النص قد توسع توسعاً كبيراً بالفكرة الأصلية لمفهوم طلب العلم. أضف إلى هذا أنه هو نفسه خليط من معلومات عن تراجم كان قد جرى جمعها في سياق الرحلات المختلفة وعملية جرى فيها دمج أجناس أدبية مختلفة اختلافاً كبيراً بحسب تحليل شتيفان رايشموت: أجناس أدبية من قبيل معاجم الشيوخ والسماع والإجازة والمذكرات الشخصية ومناقب الصوفيين وأخبار الرحلات والسير الذاتية والمجموعات الأدبية (الشعرية منها والنثرية) ومعاجم الرجال. وتعرض علينا مواد «المعجم»، البالغ عددها ٦٤٣ مادة، روابط شخصية غاية في الروعة، روابط تعكس خصائص عصر تميز بحياة علمية تتسم بالحيوية والغنى والحركة والتنقل.

وبمساعدة نموذج «التشابكات الشخصية» ومنهج «الذكرى الوجدانية» يمكن للمرء أن ينظر ويحلل العلاقات المختلفة التي سادت بين المؤلف والعالم المحيط به، أعني على سبيل المثال وليس الحصر، العلاقات التي ربطت الزبيدي بشركائه ومعارفه موزعين بحسب الأقاليم المختلفة والحقب العديدة وعُمْقَ ما أنشأ الزبيدي من زمالة وصداقة والروابط التي نشأت بينه وبين جماعات العلماء وماهية الموضوعات العلمية التي اهتم بها والروابط التي جمعت بينه وبين جماعات اهتمت بالموضوعات نفسها التي اهتم بها، وموضوعات أخرى اشترك بها العالمان الإسلامي والغربي أو صارت مشتركة بينهما وغدت عظيمة الأهمية في تسليط الضوء، من وجهة النظر الغربية، على المناحي التي خلقت الميول التي تسببت في انفتاح كِلا هذين العالمين على بعضهما في القرن الثالث عشر هجري، أي القرن التاسع عشر ميلادي.

ترجمة: عدنان عباس

هينرش بيسترفلد: أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة بوخوم.

آنا ماري شفارتسنباخ Annemarie Schwarzenbach

روعة السفر

من إيران إلى أفغانستان

" حياتنا سفر...."، وهكذا يبدو لي السفر تصويرا مركزا لوجودنا أكثر منه مغامرة ورحلة إلى مناطق غير اعتيادية.

مر وقت طويل، شهران أو شهران ونصف، وصارت القصة جزءا من الماضي. لقد حدث ذلك في الصيف نفسه الذي أعيش نهايته الآن في كابول، عاصمة أفغانستان، وخلال الرحلة نفسها التي قادتني إلى هنا عبر العديد من الحدود والعواصم ومحطات من كل نوع. رمز السيارة السويسري والصليب السويسري الصغير الموسوم عليها يؤكدان لي بأن كل شيء تم بالطريقة التي برمج بها وكما أجده مكتوبا في يومياتي. وهذا أمر ضروري أحيانا. لربما لا أملك إحساسا متطورا جدا بالواقع وتنقصني الغريزة المطمئنة واليقينية للأمور الملموسة في وجودنا على هذه الأرض، إذ لا أستطيع التمييز دائما بين الأحلام والذكريات، فغالبا ما أخلط بين الأحلام، والتي تعود إلى الحياة في الألوان والأصوات والخواطر الفجائية، واليقين الموحش والمكنون لحياة سابقة، والتي يفصلني عنها المكان والزمان كنوم الصباح الخفيف.

"حياتنا سفر..."، ومع ذلك يبدو لي السفر صورة مركزة لوجودنا أكثر منه مغامرة أو رحلة في عوالم غير معهودة. كسكان مدينة، أو مواطني بلد ما، أو كمنتمين إلى طبقة اجتماعية أو وسط اجتماعي معين أو لأسرة أو عشيرة ما، ووسط كل معطيات «الحياة اليومية»، نحس غالبا بثقة كبيرة ونعتقد بأننا بنينا بيتنا مرة وإلى الأبد، كما أننا نعتقد وبشكل سهل وسابق لأوانه باستمرارية ما، تجعل البعض يعيش التقدم في السن كمشكلة في حين يظهر كل تغيير بالنسبة للبعض الآخر كأنه كارثة. إننا ننسى بأن الأمر يتعلق بمسار ما، وأن الأرض تعيش حركة مستمرة وأننا نتأثر بالمد والجزر، بالزلازل وبالأحداث حتى تلك التي تقع بعيدا عن أعيننا: متسولون وملوك وشخصيات مشابهة، لعبة كبرى. إننا ننسى ذلك، بعلة الحفاظ على سلامنا الداخلي حتى ولو كان مبنيا على رمال متحركة. إننا ننسى ذلك هربا من الخوف. والخوف يجعلنا أكثر عنادا، ولا نسمي واقعا إلا الأمور التي نستطيع أن نلمسها بأيدينا والتي تمسنا بشكل مباشر، وننكر عنف النار حين تشتعل في بيت الجيران وليس في بيتنا. الحرب دائرة في بلدان أخرى؟ اثنتا عشرة ساعة، اثنا عشر أسبوعا بعيدا عن حدودنا؟ ليحفظنا الرب من هذا العنف الذي نسمع عنه أحيانا، نحن نحسه حين



آنا ماري شفارتسنباخ في كابول، ١٩٣٩
من كتاب: *Untersterbliches Blau,*
Scheidegger & Spiess, Zürich 2003

نقرأ كتب التاريخ، سيان أكان الزمان أو المكان هو ما يفصلنا عنه. لكن السفر يزيح الستار عن سر المكان أو المدن ذات الأسماء السحرية، مثل سمرقند الذهبية وأستراخان أو أصفهان، مدينة زيت الورود لتتحول إلى واقع في لحظة ما، لأننا نخطو فوقها ونلمسها بأنفاسنا. حجارة دمشق تحت أقدامنا وتلال أرضروم تضيء عند المساء، ومنارات هرات تظهر عند منتهى حد البصر. لكن وباء الكوليرا اضطرنا للبقاء في ايران، وما كان مجرد رؤية هاربة، استراحة، يتحول إلى قصة، جزء من الواقع المعاش. وفي كابول تعرفنا على أصدقاء جدد، ورتبنا أمور حياتنا اليومية، فأصبحنا نعرف الروسي الذي يخبز الخبز الأوروبي والغلام حيدر الذي يبيع أقلام الحبر والمظروفات البريدية وعقار الفيرامون. وبسرعة استعدنا عاداتنا اليومية، وأصبحنا نعرف طريق العودة إلى البيت حتى عند حلول الظلام، ولربما يرتبط الأمر بالحظ فقط أننا لم نتمم بقية حياتنا هنا أو في مكان آخر على ضفة بحر قزوين مثلا، حيث الطقس جهنمي والكافيار رخيص للغاية وحيث حمى الملاريا بالمجان.

هل درسنا في الماضي عادات وتقاليد الشعوب الأجنبية؟ أجل وبشكل جيد، لكنا لم نتعلم كيف يربط الأفغاني عمامته ولم نعلم شيئا عن مذاق أرز البيلاف، في بلد يأكل فيه الناس يوميا الأرز بلحم الغنم ويشربون الشاي، ولا يشربون البتة ولو قطرة كحول. وفي السفر يتغير وجه الواقع بتغير الجبال والأنهار وشكل المعمار والحدائق واللغات ولون البشرة. وما حدث البارحة مازال مشتعلا مثل ألم الوداع أما ما وقع قبل البارحة فإنه مضى وانقضى، قصة لا تعود، فما كان قبل شهر هو حلم أو حياة سابقة. وأخيرا يدرك المرء أن سيرة حياة ليست سوى عدد محدود من هذه القصص، وأن أمر بناء بيتنا في النهاية يرتبط بألف صدفة وصدفة، لكن سلام روحنا الفقيرة هو جزء لا يتجزأ من الحرية التي لا يطاردها المرء حتى يساوم عليها أو يتفاوض مع الديكتاتوريين، الذين يحرقون بيوتنا ويدمرون حقولنا والذين بإمكانهم أن يبذروا الكوليرا بين عشية وضحاها.

شك مخيف؟ مخيف طالما لم نقدم على النظر في عينيه. لكن السفر الذي يظهر للبعض مثل حلم سهل، لعبة مغرية وكتحرير من اليومي، كحرية بامتياز، هو في واقع الأمر مرعب، مدرسة تعلمنا التعود على ما لم نتعود عليه، على اللقاء والضياع، بشكل عار من كل الرتوش. «السفر إلى كابول»، والذي يمكن اقتفاؤه على الخريطة، وإن بشكل ملحمي والذي يمكن حسابه بالكيلومترات وإن بالتقريب، هو الآن في ذاكرتي أشبه بزربية منسوجة في نعومة، منسوجة بنفس حي ساعة عقب ساعة، بالعرق والدم وضائعة إلى الأبد، لأن الزمن بدأ يمشي في خطوات جبارة بعد أن اندلعت الحرب على حين غرة وفاجأتني شأن بقية الناس هنا. لقد مر على ذلك شهران أو شهران ونصف الشهر. فصل الصيف، نهاية يوليو، وكنت قد غادرت المرتفعات الإيرانية عابرة فوروزكوه إلى الغابات القديمة، الأدغال الرطبة، وحقول الأرز الغارقة تحت الماء والمغطاة بالحشرات في مزانديرانس وحتى شواطئ بحر قزوين



أطفال في أفغانستان، ١٩٣٩
من كتاب: *Untersterbliches Blau,*
Scheidegger & Spiess, Zürich 2003

الحزينة. بلد خصبة وسوداوية وحزينة هي تلك التي أمر الشاه ببناء مصانع للنسيج فيها ومجففات التبغ، أما الفلاحون الفقراء فقد تحولوا إلى عمال في المصانع والأرز عوض بالشاي في حين بدأ استغلال شرنقة القز المحلية كما بني فندق كبير في قرية الصيادين مشهدي زير، وقد تم استدعاء سويسريين للعمل فيه رفقة عمال في النسيج وطباخين. وتوجب على الأطفال أن يعملوا فيورديات تصل مدتها اثنتي عشر ساعة ويدفع للأطفال في سن العاشرة نصف كران ما يعادل خمسة عشرة قطعة نقدية صغيرة في حين يحصل الكبار على أجر يومي يبلغ كرانين لكن في مقابل ذلك يتم إرسال أفضل العاملين من بينهم إلى مدارس ليلية لكي يصبحوا نساجين كبار أو رؤساء للعمل ويؤدوا مهمات أخرى كثيرة.

قضيت الليلة عند سويسري، زوجته أعدت لنا القهوة في وقت كنا نجلس في الشرفة، في جو رطب أصغي لقصص البلد وسكانها وأفضال سياسة العصرنة، فمنذ آخر زيارة لي قبل أربع سنوات تغير الشيء الكثير. وفي صباح اليوم التالي غادرت مازنديران، ليظل بحر قزوين من ورائي، وتفتح لي الأدغال ذراعيها.

وتعدم العين سقوف القش، وحقول الأرز وجماجم الحيوانات مرمية في البرية. ثم اختفت حقول التبغ ومعها أملاك الشاه. وبعدها اختفت حقول الذرة التي ظلت في ملكية الفلاحين. لكنني مازلت أبصر بالمراعي في مكان ما على التلال المنخفضة، قرية، أشجار، خبز. ورمقت رجلا بلحية بيضاء يمضي في الطريق، ينتعل حذاء عاليا ويحمل على كتفه فأسا. أوقفت السيارة، وأجابني الرجل ذو العينين الزرقاوين باللغة الروسية. كان قادما من روسيا رفقة آخرين من الموشيك، إذ لم يستطيعوا الاستمرار في العيش في بلادهم لأن الحرس الأحمر حرمهم من آخر بقرة يملكونها وصادر صور القديسين والصلبان من بيوتهم. والآن يملكون هنا في ايران قرية جديدة. هناك خبز وعسل، قالوا لنا وسألونا إن كنا نريد شراءه؟ لكن لم تكن هناك طريق للسيارات إلى القرية. ثم افترقنا وواصلت أنا طريقي المستقيم، باتجاه الشرق، وفي عيني يمتد الأفق الواسع.

الهواء كان خفيفا وجافا. ريح ساخنة شرعت بالهبوب. الآن لم تكن هناك أشجار ولا عشب ولا حقل ولا قرية ولا كوخ ولا سور ولا ماء. الأرض أضحت صفراء، والسماء الشاحبة نزلت فجأة مثل مظلة مثقلة ومن تحتها كانت الحياة تختنق، وخلل الظلام الذي حل بسرعة تلونت السماء بالبنفسجي والبني الداكن، بحمرة النار. المنظر كان جميلا لكنه مثير للقلق كمشهد من «الكوميديا الإلهية». ولأول مرة أبصر بهذا المكان. وطن الرحل، وطن الخيام السوداء ، لكن في ايران أرغم الرحل على الاستيطان في إطار سياسة التحديث وحرمت القبائل من زعمائها وأوشكت على الانقراض. وزرابي التركمان وسروج أحصنتهم الملونة وخيامهم المخططة وأحصنتهم السريعة؟ على يساري رأيت في أفق انطفأ الآن وأصبح بلون الرصاص، بعض الخيام البئيسة المصنوعة من جلد الماعز وخيالات بعض الجمال نحيلة. وبدأ كلب بالنباح، ومن بحر قزوين، من الغرب حلت صقور بيضاء تحلق في بطء. كان ذاك كل شيء. وخيم الملل والصمت على البراري، الحرارة كانت قاتلة، وتوحدت الشمس بـ «بداية آسيا» في منظر معتم، وهنا ظهر أمام عيني في خط مستقيم وبلا أدنى شك عند نهاية الطريق ضريح غومباد إيكابوس. برج المغول، ضريح أحد الخانات، ضخم وبسيط البناء ولم أفكر ما إذا كان التابوت الزجاجي معلقا في قمة سقفه كما تريد تلك أسطورة البراري. كان يكفيني رؤية كيف لم يرهب الانسان ورغم الفقر وكل المشاق حياة البراري. تنفست بعمق وحاولت رغم كل ذلك أن أفرد يدي باتجاه الحياة.

ترجمة: رشيد بوطيب

ولدت آنا ماري شفارتسنباخ سنة ١٩٠٨ في زوريخ وتوفيت عام ١٩٤٢. جمعتها صداقة بأبناء الكاتب الألماني الكبير توماس مان: إيريكا وكلاوس مان. عاشت في برلين وقامت برحلات إلى آسيا.
النص مأخوذ من كتابها :كل الطرق مفتوحة: رحلة إلى أفغانستان، الصادر سنة ٢٠٠٣ عن دار نشر لينوس.

غي هلمينغر Guy Helminger

الطريق إلى كانغابا

رحلة إلى مالي

وقفتُ في أحد الشوارع المزدحمة بالسيارات، خلف جسر الشهداء في باماكو، وأشرت لسيارة أجرة. في الحادية عشرة صباحا وصلت درجة الحرارة إلى اثنتين وثلاثين درجة مئوية. لم تكن ثمة نسمة هواء، فيما أخذت رئتاي تتنفسان بصعوبة عوادم السيارات المنبعجة، التي خلفت على لساني طعما مزيجا من الصدأ والبنزين. لوحت بذراعي، وحاولت لفت الانتباه إليّ بالقفز في مكاني، لكن جميع السيارات مرت من أمامي مصدرة نفيرها دون أن تتوقف. سألت الشرطي في أي اتجاه على أن أذهب كي أصل إلى دجيغوروني بارا، فمن هناك أريد أن أسافر بتاكسي الأدغال إلى كانغابا الواقعة على بعد تسعين كيلومترا جنوبا. تفحصني الشرطي، دون أن يجيبني، وأطلق صفارته بحماس رافعا ذراعه بقوة. وعلى الفور توقف تاكسي.

على المقعد الخلفي جلست امرأة تتحدث إلى السائق. لديها جرح في عينها اليمنى وتسب. كان السائق يهز كتفيه بشكل متواصل فيما ترتسم مجددا على وجهه علامات عدم الاكتراث، وفي الأثناء عبرنا الجسر إلى المدينة وأوصلنا المرأة إلى الطبيب.

بعدها لف السائق بالعربة ورجعنا لنعبر ثانية نهر النيجر حيث تغسل النساء الملابس، ولمدة نصف ساعة سرنا بموازاة أكواخ من الصفيح متوجهين إلى خارج المدينة. سوق لا نهاية لها أضفت زينة على الجانب الأيسر من الطريق. كان معي في حقيبة ظهري زجاجة ماء وشطيرة «باغيت» مقسومة إلى قطعتين، تحسبا للجوع أو العطش، فمسافة تسعين كيلومترا ليست بالرحلة الطويلة وهكذا أغمضت عيني وتركت رأسي عرضة لفحيح الهواء الساخن، الذي يهب عبر نوافذ العربة المفتوحة. غمرتني فرحة بلهاء: Africa, Africa!

لا أدري إن كنت قد غفلت أم لا، على أية حال أحسست فجأة بيد السائق على كتفي. توقفت العربة. توقفنا في ساحة مليئة بسيارات الجيب، وتاكسي الأدغال وسيارات أخرى.

أشار السائق إلى بيت صغير، هو بمثابة شباك للتذاكر وقال: التذكرة.

نزلت من السيارة بتثاقل، وفي اللحظة نفسها اختطف وهج الضوء عيني ثم غشي جبهتي وأذني ثم انطبع على قميصي، وعلى الفور بدأ العرق يتصبب مني، اشتريت تذكرتي وأنا في شبه غيبوبة وسألت عن موعد السفر.

"لم يتبق الكثير من الوقت" قال عامل شباك التذاكر وأظهرت ابتسامته ما تبقى من حطام أسنانه.

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا.

كان الباعة يجولون بالساحة ويبيعون ماءا في أكياس بلاستيكية وسائل داكن من المياه الغازية يشبه في لونه مياه نهر النيجر، كما كانوا يحملون أيضا مرايات صغيرة ومسدسات لعبة وفوط وبضائع منزلية كأدوات الطعام والحلل أو مبشرات للجبن. كثير منهم كانوا يتمايلون حاملين على رؤوسهم طستا بلاستيكية ويتنقلون في عجالة بين السيارات.

تحت الشجرتين الوحيدتين جلس بعض الشيوخ على الكراسي في ظل الأغصان المزهرة وتجاذبوا أطراف الحديث. دعاني أحدهم للجلوس، وكنت سعيدا بابتعادي عن الشمس، وتوفير حماية لرأسي في ظل الأوراق الوارفة.

تحدث الرجال بلغة البامبرا، لم أفهم كلمة واحدة مما قالوا، لكنني أنصت لهمهماتهم وانتظرت موعد انطلاق السيارة.

على اليسار إلى جانب شباك التذاكر كان هناك رمل منثور على أرض صلبة على مساحة ثلاثة أمتار في ثلاثة أمتار محاطة بسور صغير بارتفاع الركبة يعزلها عن بقية الساحة. ويغطيها سقف من القش، مدعوم بجزعي شجرة. كان مسجدا يفرد الرجال فيه سجاداتهم ويصلون. كان هناك مسجد آخر كهذا على بعد عشرين كيلومترا. وقد كتب على الجدار باللون الأبيض أن من يدخل هذا المكان بحذائه سيدفع غرامة مقدارها ألف فرنك إفريقي، مبلغ ليس بالقليل، إذ يعادل الأجر اليومي لعامل.

بعد ساعة صار فمي جافا والتصقت شفتاي ببعضهما. غمر وهج الشمس الساحة، مع ذلك كنت لا أزال الراكب والهدوء، ابتسموا وأومئوا لي بلطف. بعد أربع ساعات قلت لنفسي، لم تعد تستطيع الجلوس، لم تعد تستطيع الوقوف، يبدو أنك ستدفن هنا. لم يعد لدي ماء ويبست شطيرة "الباغيت" لدرجة أنني كدت أختنق خلال بلعها. وطبعا كنت ابتلعت أقراص الفحم لمقاومة الإسهال، ولم أجرؤ على قبول الفاكهة المغسولة بالمياه المحلية التي قُدمت إلي. في العام الماضي في مصر، أفقدني نهمي تسعة كيلوغرامات كاملة.

بعد خمس ساعات التف فجأة أناس حول تاكسي الأدغال المتجه إلى كانغابا. ورُفعت حقائبهم فوق سطح العربة، أصبح الجميع مستنفرا. أشار لنا السائق بالركوب. وفجأة سارت الأمور ببطء. لم أفهم ما يجري ووجدتني أجلس مع اثني عشر رجلا وامرأة على دكتي الجلوس المتقابلتين. كل شيء كان يترجرج داخل العربة. بدأت الرحلة،



الوحيد الذي يريد الذهاب إلى كانغابا. شربت، وأكلت من شطيرة «الباغيت». وعندما كانت تبزغ سحابة داكنة في السماء كنت أبتهج، لكنها كانت تتبدد بنفس السرعة التي تشكلت بها.

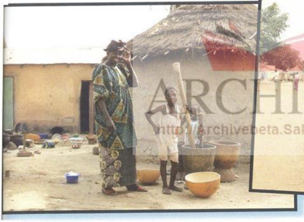
بعد ثلاث ساعات شعرت بأنني ثقيل كالفيل. التصقت بمقعدي فاقدا لأي إحساس وعرقت قدماي داخل الحذاء، واشتد احمرار رأسي، ثم استشعرت ببوادر العنف تصعد إلى رأسي. لكن الرجال من حولي كانوا مثالا للسكينة انطلاقة متعجلة كما لو كنا على طريق الهروب.

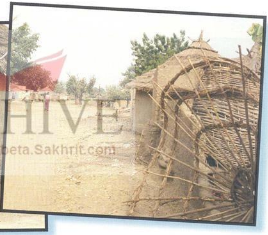
كان المكان ضيقا، فهذه السيارة الجيب المفتوحة الجانبين في الخلف لم تكن مصممة لنقل هذا العدد الكبير من الناس. لكننا تحركنا، لمسافة خمسمئة متر. ثم كان أول توقف، لأنه كان علينا التزود بالوقود. قام السائق بتحريك المضخة اليدوية مرارا لأعلى ولأسفل، حتى امتلأ خزان الوقود وفاض البنزين على الأرض. ثم واصلنا الرحلة. رياح لافحة كانت تصفع أقفيتنا. بعد خمسة كيلومترات فقد تاكسي الأدغال كشافه الأمامي الأيمن. توقفنا وتمت إعادة تركيبه، وهو الأمر الذي أسعدني لأنهم حذروني من السفر ليلا.

صور من مالي
Photos: Guy Helminger

يقولون إن الجميع يسير بسرعة، لكن الطريق عبارة عن مدق رملي مليء بالحفر العميقة!
على الأقل سيرى السائق إلى أين نحن ذاهبون، لقد اتضح لي أنه إذا استمر الوضع على هذا المنوال فلن نصل إلى كانغابا إلا مع حلول الظلام. لكن الوقت لا يزال نهارا والركاب في حال جيدة. مرقنا بسرعة على أعواد السافانا وبدأت عيناي تلمح ظهور قرى صغيرة، أكواخها الطينية المتشققة تقاوم في جلد حدة الضوء.
غطى الرجال من الطوارق وجوههم بذيل عمامتهم، ما عدا عيونهم الرقراقة. كذلك لفت النساء أفواههن وأنوفهن بالأوشحة. وكنت أنا وحدي من تنشق غبار البوادي وأصبت بعدها بنزيف أنفي حاد في أول رحلة لي بتاكسي الأدغال.

ثم اشتعلت النيران تحت عجلة القيادة. ضغط السائق على المكابح بقوة، ما جعلنا نحن الجالسين في الخلف، نصطدم ببعضنا البعض. ثم قفز الجميع بهلع من صندوق النقل المغطى. أثار صراخ الهلع عاصفة رملية صغيرة. ألقى السائق بالماء الذي في قنينته على النار المشتعلة، وانتظر برهة ثم دعا الجميع للركوب مجددا.
لمعت أسطح الأكواخ البارزة على طرف المدق، فيما تحشرج صوت المحرك. تمايلت رؤوسنا يمنة ويسرة من فرط الحرارة والتعب. ثم حل الليل. رأيت أضواء صغيرة تومض في البادية، كلما مررنا بقرية. وأخيرا عم الظلام بحيث صرنا نخمن بالكاد ملامح الجالسين معنا.
قلت لنفسي، هل قطعنا بالفعل تسعين كيلومترا؟
انطلق السائق مسرعا، وصار الجو باردا. وضربت الريح الناتجة عن السرعة ظهورنا، مخلفة قشعريرة. تجمدنا من البرودة ولففنا الأذرع حول أجسامنا، إلى أن توقفنا مرة أخرى.





بعدها بساعة ونصف حدث أول عطل لسيارة، إذ انقطعت سيور المحرك، نزلت من السيارة لأبحث في حقيبة الظهر عن «تي شيرت» أغطي به وجهي، وأيضا لتحريك ساقي بعض الشيء. الحشائش الجافة علقت بالتراب. الطبيعة من حولي بدت صفراء متوهجة. في الأفق تبدت الأشجار مرتجفة في الضوء وأخذت تنحني وتتقوس بشكل غريب.
أدار السائق المحرك، وركبنا ثانية. صمت الجميع تقريبا ما عدا السائق الذي كان يصيح من حين لآخر بجملة يوجهها للجالسين في الخلف ثم يضحك. فقدت كل إحساس بالزمن. المساحات المنبسطة والتلال بأشكالها المتنوعة بدت كلها سواء: حارة وصفراء وجافة. لم أعرف، إن كنا ندور في حلقة مفرغة، أم نسير باتجاه الغرب أو الجنوب.

توقفت عن عد المرات التي توقفنا بشكل طوعي أو دون قصد.
وصعد على ظهر العربة أطفال يبيعون أسياخا من اللحم. هنا تكثف وهج الأضواء المتجاورة. أكلنا وجبة اللحم بلا شهية، ثم عادت البرودة لتضرب الكليتين.
ثم نزل أول شخص، وواصلنا طريقنا، وأخذت أتحدث مع الناس بشكل آلي، وأنا على علم بأن لا أحد يفهمني:
"هل بقي كثير من الوقت حتى نصل إلى كانغابا؟"
"كانغابا؟" رد أحد الطوارق متسائلا، ومن الركن الذي

جلست فيه في النهار، امرأة بثوب تقليدي أصفر منقوش بورود، تردد صدى الكلمة "كانغابا"؟

رددت متفاجئا: "نعم، كانغابا"،

فصاح الرجل على السائق وجرى نقاش قصير، إثره ضغط سائق تاكسي الأدغال على مكابح السيارة التي أصدرت حشرجة غليظة.

سأل السائق: "كانغابا؟"

قلت: "هنا؟"

رد السائق: "كانغابا"

قفزت من صندوق السيارة. وانطلقت السيارة مصدرة أزيزها، واختفت في غضون نصف دقيقة، حيث لم تكن كشافاتها الخلفية تعمل، وضوء الكشافات الأمامية ضعيف جداً.





فتشت عن كشاف صغير في أحد الجيوب الجانبية لحقيبة ظهري ووضعت البطاريات داخله وأضئت المكان من حولي.

ضاع شعاع الضوء وسط العدم المخيم فوق الحشائش، وأشاع صمتا يصل إلى أغوار الآذان. لبرهة سمعت خشخشة بعض الأشجار، عندما استدرت لإضاءة الاتجاه المعاكس. فكرت فيما يمكن عمله. لم أرغب في البقاء بالقرب من المدق، رغم إدراكي أن احتمالية أن تصدمني إحدى السيارات المارة من هنا في الساعات القادمة، محدود جدا. إذ لم يرق لي أن أواصل السير في وسط الطريق دون أن أعلم إلى أين. أطفئت الكشاف وحملقت في الظلمة اللانهائية، التي غطت كل شيء، إلى أن سألني صوت جاء من خلفي مباشرة: "فندق".

هززت كتفي مثل جرذ لدغته حية للتو، استدرت فرأيت أربعة أعين، فيما تماهت ملامح وجهيهما مع ظلام الليل المحيط بنا.

أومأت ببلاهة وقلت: "فندق"

واصل الشابان سيرهما ووضعت حقيبتي الصغيرة على كتفي وسرت وراءهما.

ماذا يجول برأس المرء في هذه اللحظات؟

قلت لنفسي، أنت وحدك، ولا ترى شيئا، ولا تعرف بالضبط أين أنت وإلى أين سيأخذك هذان الرجلان، لكن إذا كتبت لك النجاة هنا فيمكنك فيما بعد أن تكتب مقالا رائعا عن هذه الرحلة.

سرنا في الظلام لمدة ربع ساعة تقريبا، في صمت لا يتخلله سوى دبيب خطواتنا الخافت وهسيس أنفاسنا، إلى أن وقفنا أمام المكان المسمى فندق "ماندي". أخذت حجرة تشبه صومعة بأحد الأديرة ليس بها سوى سرير ضيق تحت شباك صغير وعال، بجدران عارية. كنت متعبا، متعبا جدا. طلبت بيرة وسألتهم عن الطعام الذي يقدمونه هنا. ساعتها كانت الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق مساءً.

قال موظف الاستقبال بجدية: "سباغيتي بولونيزه".

أكلت بشهية كبيرة، ثم جرحت عظمة دجاج حادة سقف حلقي أثناء المضغ، فطلبت بيرة ثانية غسلت بها أثر الجرح.

لقد وصلت إلى كانغابا.

ترجمة: أحمد فاروق

غي هلمينغر: كاتب من مواليد لوكسمبورغ. يقيم في مدينة كولونيا الألمانية.

أولي لينسه Ulla Lenze

التجول على ظهور الجمال

رحلة جماعية في الصحراء الليبية

حين يلف الليل الصحراءَ بظلمته، تتلألأ في كبد السماء الأنوار: فهنا، في الصحراء على وجه الخصوص، تأتلق قبة السماء في المساء روعة وجمالاً غير معهودين في بقاع العالم الأخرى. وكانت الأديبة أولي لَينسه قد ساحت في ليبيا على ظهر الجمل وبمعيتها مجموعة صغيرة من سائحين فضلوا الرحلات الخصوصية وأخذوا دروساً تعرفهم بالنجوم. لقد كانت الرحلة تجربة فريدة حقاً.

ما الذي جعلني اعتقد بأني لن أكون بحاجة إلى ساعتي اليدوية في الصحراء؟ لقد ركبت رأسي فتربعت على أرض الهضبة الصخرية ورحت أتجول ببصري في بحر من رمال تزهو بلونها الوردي. فمن بين هذه الرمال تشمخ تماثيل صخرية تبدو وكأنها من صنع فنانين مجهولي الهوية وليس من صنع رياح عصفت بها على مر الزمن فأضفت عليها صوراً مبهمة المعاني غامضة المغزى. ويخيم على هذه التماثيل صمت تطمئن له القلوب وسكون لم أشعر به قط فيما سوى ساعات النوم العميق. نعم، لقد جلست متربعة الساقين على أرض هذه الهضبة متطلعة إلى أن يلفني سكون الصحراء بجناحيه في صبيحة هذا اليوم، أن يجرني إلى أعماق أعماقه هنا وفي هذه اللحظات بالذات، أن يُنسيني الزمانَ والمكانَ فلا أشعر لا بما كان ولا بما سيكون، أن يغمرني بالطمأنينة، بالهدوء. أن يعيدني إلى ذاتي. وفيما بدا عالم الصخور والرمال الساكنة أمام ناظري واقعاً ملموساً حقاً وحقيقة، عالماً مستغرقاً في سحر حالم، كنتُ، أنا من ناحيتي، في يقظة تريد أن تستغرق بكل المشاعر والأحاسيس في سحر هذا العالم. نعم لقد شُدت أعصابي وإن كان المكان مفعم بالسكون، وإن كان قد بلغ به الصمت بحيث صرت أسمع خلجات روحي. صرت أسمع صدى أنفاسي.

وكم هي الساعة الآن؟ في الثامنة موعدنا مع الفطور. وفي التاسعة سنكون على ظهور إبلنا. هل لدي متسع من الوقت لاستغرق في عالم لا يعرف الزمن؟ هل لدي خمس دقائق أخرى؟

وما كنتُ السائحة الوحيدة التي استسلمت في وطنها، وهي تحزم أمتعتها، إلى وهم رومانسي صور لها أنها في الصحراء تنتهي كلُّ المواعيد والالتزامات، أن الأحاسيس الباطنية والمشاعر الموحى بها من السماء هي التي تقرر مسيرة الحياة في الصحراء. فروت، الشابة السويسرية البالغة من العمر ٣٦ عاماً، وقعت على حين غرة في فخ الإجهاد النفسي الذي يثيره الالتزام بالمواعيد وإن كانت هي الأخرى أيضاً قد جاءت إلى هنا بلا ساعة يدوية. فوقائع حياتنا اليومية لا تُحددها الساعة السماوية، بل تقررها لنا الساعة اليدوية التي يحملها آندي، الشاب السويسري الذي صار مرشدنا السياحي بتكليف من قبل مكتب السياحة المسمى «فريق البادية Desert-Team». ولست بحاجة للتأكيد على أن مرشدنا السويسري يحمل ساعة سويسرية الصنع بكل معنى الكلمة. وحتى هذا الحين فإن روت أيضاً لا تسمع في روعة الهدوء سوى صدى أنفاسها. وحين أخبرتني بمعايشاتها هذه ضحكنا من كل الأعماق وقررنا بأن نعمل شيئاً ما لكسر طوق هذا الصمت المطبق. لقد خيم صمت تام فعلاً على الهضبة الصخرية. ولكن، هل هي هضبة صخرية فعلاً، أم أنها سلاحف عملاقة تراكم بعضها فوق بعض فكونت دروعُ أظهرِها ما أرى من تعرجات؟ وها هي الأبراج الصخرية تسمو عالياً كما لو كانت فطائر أخذت ترتفع عالياً مخالفة بذلك كل قوانين الجاذبية وتزداد عرضاً لتبلغ ثلاثة أضعاف عرض قاعدتها. لقد أخذ ظلها ينحسر عني شيئاً فشيئاً كما لو كان يستأذن بالوداع. لقد سخن الجو من شدة الحرارة المُحرقة. وربما حان الوقت لأن ألقي نظرة على ما يفعله الآخرون: رفاق الطريق المكونين من ستة سويسريين وأربعة ألمان، تتراوح أعمارهم ما بين ٢٤ و ٦٩ عاماً وتوزعوا على مهن مختلفة كأنهم من بقايا سفينة نوح، فهم ما بين معلمة وكاتب عدل ومهندس معماري وطبيب عظام وممرضة مختصة برعاية الشيوخ والعجزة وما سوى ذلك من مهن مختلفة.

كما أن هناك خمسة عشر جملاً ومجموعة أفراد من أبناء الطوارق راحوا يراقبوننا كما لو كانوا أمهات يتتبعن بأبصارهن الحنونة أطفالهن وهم يلعبون ويمرحون في ملعب



الصحراء الليبية ليلا

Photo: Jörg Modrow

الصغار. وسيرافقنا هؤلاء الرجال على مدى تسعة أيام وطيلة رحلة تنقلنا بمسافة تبلغ مائة وثمانين كيلو متراً إلى جبل أكاكوس الواقع في أقاصي الجنوب الغربي من ليبيا، وسيحضرون لنا ثلاث وجبات طعام في كل يوم وسيسبقوننا ناقلين متاعنا إلى الموقع الذي سنقضي فيه ليلتنا وسيكونون السند القوي الذي نعتمد عليه فيما لو أناخ البعير لسبب ما وتركنا نتدحرج إلى الأمام.

ولم أكن في أي يوم من الأيام قد عشت هذه العزلة التامة عن العالم. فأول أمس، في مدينة اباري، أقصى المدن الليبية في الصحراء، تسللت إلى مقهى للإنترنت كأني مدمن يتسلل إلى الحانة قبل يوم واحد من ذهابه إلى مصحة مختصة بعلاج مدمني الخمور. فبرجاء حار جداً بعثت رسالة اليكترونية كتبت فيها بأنني خائفة، مرهوبة. تسعة أيام في جولة عبر صحراء مترامية الأطراف ومع أناس غرباء لن تفصل بيني وبينهم باب طيلة هذه الأيام. كما لن يكون هناك هاتف ولا إنترنت. فمن الآن فصاعداً وعلى مدى تسعة أيام سأكون معزولة عن كل العالم!

وجاء الرد من كولونيا في الحال: بيد أن هذا هو بالضبط ما كنت تريدينه.

نعم، إن هذه هي الحقيقة بعينها. إن النجوم هي مرادي. و هاينر زِدْلر، رفيقنا السويسري الهاوي لعلم النجوم، سيستطلعها معنا كل مساء.

آه من هذه النجوم! منذ أن أصبحت أحيا في المدينة صرت على وشك أن أنسى كلية أن في الكون نجوم. فهنا، في المدينة، لم يعد المرء قادراً على مشاهدتها. إن تلوث الهواء هي العبارة التي يرددها هاينر زدلر لتفسير احتجاب النجوم عن الرؤية، فبحسب وجهة نظره، فإن عالمنا الأوربي، المكتظ بسكانه، أمسى ملوثاً بالنور الساطع منه وأن هذا التلوث قد بلغ حداً جعلنا غير قادرين على أن نقرأ على صفحات قبة السماء مساء كل يوم الحكايات والأساطير التي خلفها لنا أجدادنا؛ إن هذه السماء هي بمثابة "البرنامج التلفزيوني الذي يعرض علينا غابر الزمن".

وهكذا، صرت أنا والآخرون، نستلقي كل مساء بعد العشاء على أظهرنا نصف ساعة متتبعين حركات هاينر وهو يمسح بطيف الليزر قبة السماء ليشكل من الكواكب الوضاءة الأبراج التي نسمع بها باستمرار. وبعد الرحلة الطويلة المرهقة وشدة قيظ الصحراء وجهودي المضنية وأنا أداري جملي تارة وأعنفه تارة أخرى، نعم بعد كل هذا وذاك، كنتُ أبذل قصارى جهدي لأن استوعب أن كوكب الزهرة بدرجة حرارته البالغة ٤٠٠ درجة مفرط بالحرارة وأن المريخ مفرط بالبرد. وهنا، على أرض هذه الصحراء يغدو الجو أيضاً شديد البرودة مساء كل يوم. واستلقى إلى جانبي المصور يورغ مودروف، وراح يعلن عن فرحته لأنه تمكن أخيراً من اكتشاف كوكب العقرب. إنه أبرع مني في هذا

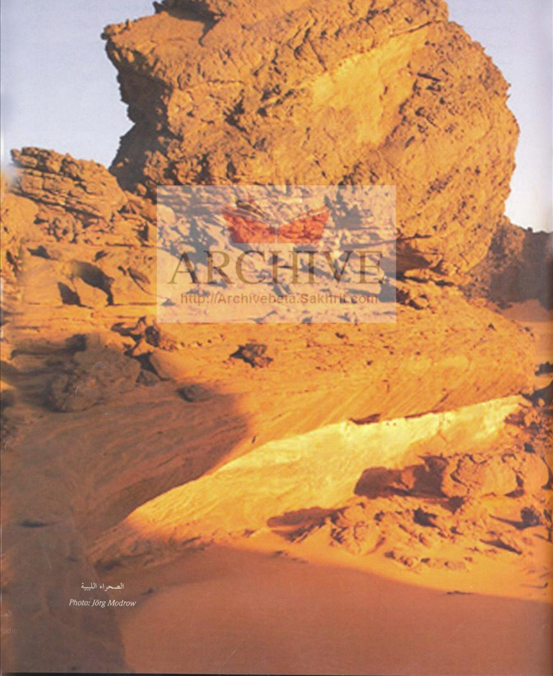
المجال بكل تأكيد. فحتى الآن لم استطع أن أكتشف سوى درب التبانة، هذا الدرب الذي بدا فعلاً وبكل جلاء كأنه سيل من حليب مراق. بيد أن العقارب صارت الآن هي الموضوع الذي يشغل بال يورغ، فما من صباح يطوي فيه خيمته إلا وتجري عقربٌ من تحت الخيمة. وفي المرة الأولى هرول الجميع صوب يورغ ليصوروا العقرب وليتقافزوا فزعاً من هذه الزاحفة المرعوبة؛ بيد أن الأمر لم يدم على هذا المنوال طويلاً. فبعد فترة قصيرة ما عادت العقرب تستحق أكثر من ملاحظة بسيطة عند الفطور. فالآخرون أيضاً وجدوها بين ثنايا خيامهم، لا بل عثروا على أفاع سامة ذات قرون وانهالوا عليها ضرباً حتى قتلوها. وعلى خلفية هذه المخاطر كنا، نحن الثلاثة الذين فضلوا أن يقضوا ليلتهم في الخيام، ننظر بعين العطف إلى الآخرين مؤكدين على أن مَنْ يقضي ليلته في العراء يعرض حياته في الواقع إلى أفظع المخاطر.

إننا، نحن الذين نقضي ليلتنا في الخيام، أقلية مقارنة بعدد أولئك الرفاق الذين يلتحفون السماء ويحاولون في كل يوم إقناعي بأن النوم في العراء ومشاهدة النجوم الساطعة سعادة ما من بعدها سعادة في العالم كله. لكني أرد عليهم من ثم قائلة "بيد أني لا أرى شيئاً حين أغمض عيوني وأنام."

ويحدثنا هاينر في الليلة الثالثة عن النجوم القاصية نحبها ومن حين لآخر يتلعثم فيبدو كأنه يفتش عن كلمات تناسب ذهن السامع غير الملم بأولويات الموضوع. وتهب في هذه الأثناء رائحة ذكية تنبعث عن النار الموقدة بالأخشاب ويتعالى رنين القيثارة المرافقة لما يشدو به الطوارق من أنغام وجدانية ذكرني توقيعها بتوقيع سير الجمال في الصحراء ومشيها الهويني. ورافق أحدهم هؤلاء المغنين وراح يضرب على صفيحة بنزين لحناً أفريقياً مكتوم الأنفاس. وطلب هاينر التعبير المجازي فقال بأننا صرنا من السماء قاب قوسين أو أدنى، أنها صارت بمنزلة الحديقة الصغيرة التي نشاهدها في كل يوم من أمام باب منازلنا. وحينما أمعنت النظر في عيون الليل، اكتشفت أن علاقتي بالنجوم لم تعد تتجاوز ما كان يربطني بها وأنا طفلة صغيرة عاشت ليالي الصيف في الريف. فبعد ثلاثة أيام من محاضرات قيمة عن العمالقة الوردية والأقزام البيضاء والنجوم الميتة وغبار النجوم (الذي صارت ذراته تسبح في دمائنا!)، يتبين لي



بأني لا أزال أنشد من السماء شيئاً واحداً لا غير: أن تمن علينا بالشهب. وكما عرفت من هاينر فإن هذه الشهب ليست سوى ذرات غبار تدخل المجال الأرضي قادمة من الفضاء وأنها تتبخر حال احتكاكها بالهواء المحيط بالأرض وتتحول إلى إيونات؛ إن هذا هو تفسير توهجها. ويا للعجب! ها هو شهاب آخر، وآخر وآخر. ولنغمض عيوننا بسرعة على أمل أن تحقق لنا هذه الشهب ما نتمناه من الأعماق، كما تأمرنا بذلك الحكاية الشعبية. ويبدو لي وأنا أرى هذه السماء الساطعة بنجومها والتي بوسع المرء أن يكتشف، عند مشاهدتها، أموراً لا حد لها أبداً - أموراً من قبيل الأساطير اليونانية والسومرية والبابلية وأول ما وصل إلينا من الملاحم، أعني ملحمة جلجامش - إني أرى لوحاً يلبي كل ما



الصحراء الليبية

Photo: Jörg Modrow

أثناء. ويورغ أيضاً يشير بيده نحو السماء من حين لآخر هامساً بحماسة بينة "وها هو شهاب آخر". ويعلن هاينر من ناحيته أن أعظم نجومنا، الشمس، سيقضي نحبه أيضاً، بعد مضي خمسة مليارات من السنين.

ومع أن هذا الأمر لن يحدث إلا بعد زمن طويل جداً، إلا أني شعرت بالأسى فعلاً. لا شيء خالد أبداً. لكل شيء بداية ونهاية. حتى الكون نفسه، هذا الكون الذي كانت بدايته قد نشأة إثر الانفجار الكبير. ولم يدم الأسى طويلاً؛ فالظواهر تجبر المرء على إمعان النظر. "ولكن ماذا كان قبل الانفجار الكبير يا هاينر؟" ورد هاينر مؤكداً على أن حكاية الانفجار الكبير تعني أن لا شيء كان هناك من قبل حدوثه. بيد أني لم أعد قادرة على مواصلة التفكير في الأمر. فهذه المعضلة تركتها إلى اليوم القادم لتشغل بالي أثناء مسيرتنا في الوديان التي غطت صخورَها السوداءَ الرمالُ البيضاءُ فبدت كما لو أن الجليد قد تناثر عليها. وكنتُ أسحب من خلفي بعيري، الذي أسميته أمولاس، كما أسحب كلبي، وحينما كنت أسير على مهل، كان أمولاس يطل علي من الخلف برأسه الشبيه برأس فوشور، أعني رأس التنين الأبيض المتعهد بإسباغ الحظوظ في قصة ميشائيل إنده «قصة بلا نهاية». لقد أحاطت بنا الجبال الصخرية التي تشمخ منها أشكال تشبه الأبراج والرؤوس والأسوار المسننة والقبعات والوجوه والأفواه والأدمغة ولوحات الخشب. وكانت هندسة هذه الأشكال من صنع الرياح والشمس والزمن. والماء أيضاً. وقال لي أندي البارحة وهو يجتازني وقد علت على محياه ابتسامة خبيثة: "هل علمت بأن عدد الذين يموتون في الصحراء غرقاً يفوق عدد الذين يموتون فيها من شدة العطش؟ وأجبت عليه قائلة "لا لم يكن لي علم بهذا الأمر". وهكذا علمت الآن أن المطر ينهمر في الصحراء أيضاً؛ أنه ينهمر بمقدار يحول الوديان الجافة إلى أنهر متدفقة تحرث من سرعتها العظيمة مناطق بأكملها. "وإذا ما حدث هذا، فليس بوسع المرء عمل شيء آخر غير الجري بأسرع ما في مستطاعه".

ومن حق المرء أن يشك فيما إذا كنا لا نزال نتحرك في أحضان كوكبنا الأرضي فعلاً، أم أننا قد غادرنا، في سياق مراقبتنا الليلية للنجوم، كوكبنا الأرضي سهواً فنزلنا على كوكب آخر من الكواكب التي راح هاينر يركز عليها تلسكوبه، هذه الآلة التي يستطيع المشاهد من خلالها ليس استباق الزمن بحوالي عشرة مليارات من السنين الضوئية فقط، بل والنظر إلى الخلف بهذا العدد من السنين أيضاً.

في اليوم الرابع لم أعد أسمع صدى أنفاسي. ففي هذه الأثناء اكتشفت أن جهاز الـ MP3-Player الخاص بي توجد به ساعة أيضاً. وكان هذا الاكتشاف قد بدد في الحال الإجهاد الذي تنطوي عليه حياة البداوة التي تكيفتُ معها بنحو لا بأس فيه على وجه العموم. وكنتُ أجد تسلية حين أبصق معجون الأسنان في رمال الصحراء كما صار يصعب علي أن أتخلى عن إشعال النار فيما استخدم من ورق تواليت (ففي الجو الصحراوي يكون الهواء على ذلك المقدار من الجفاف بحيث لا يتحلل هذا الورق إلا بعد مضي الكثير من السنين). وصرت أميل إلى تحويل الزوايا الواقعة بين الصخور إلى حمام، فقد أخذت أودع المنشفة وفرشاة الأسنان في التجويفات الموجودة في هذه الصخور، أي وباختصار صرت أستخدم هذه الصخور استخدامي للأثاث في منزلي المعتاد. ورافقتنا في هذه الرحلة سيارتان من نوع السيارات المصنعة لقطع البوادي والجبال. وكانت الغبطة تغمرني وأنا أرى، في قيظ النهار وبعد تجوال على الأقدام دام ثلاث ساعات، سيارتينا تقفان في ظل الصخور كما لو كانتا، بلونهما الفاتح، معلماً لمن ضل السبيل. وكنت أشعر بسعادة قصوى حينما نتربع في الظل الذي يداعبه الهواء العليل حول لِحاف لنتناول غداءنا المكون من جبن حليب الماعز والبيض المقلي وسمك التونة المعلب ولنقضي الظهيرة التي وصلت الحرارة فيها إلى أربعين درجة. ومع أن استراحتنا هذه كانت تمتد حتى الساعة الثالثة ونصف، إلا أن الكسل يظل يدب في عظامنا. ولهذا السبب كنتُ أفضل، من ثم، مواصلة التجول لبرهة من الزمن على ظهر جملي أمولاس ليقطع بي رمال الصحراء التي لعبت بها الرياح فجعلتها كثيرة التموجات. ولاحظت بأني حين أدلك عنقه بقدمي، فإنه يحث الخطى وحين ألوح بالرسن بمحاذاة وجهه، فإنه يزيد من سرعة جريه. وتغمرني السعادة أيضاً حين أسمع الطباخ ينادينا "لقد صار العشاء جاهزاً". فمن ثم تبرز من كل الجهات الأضواء المنبعثة من المصابيح التي ثبتناها على الجبين كما لو كنا من عمال المناجم وتتجمع حول المائدة. ومن بين الأكلات الشرقية المختلفة فإني استلذ بتناول شوربة العدس الشرقية والخضروات والكسكسي وأشعر بمتعة حينما يناول بعضنا البعض الآخر الخبز والملح على ضوء الشموع. لقد توقفت عن التفكير بالنبيذ وعن القول: آه! ما أطيب قدح النبيذ الآن. فالخمور ممنوعة في ليبيا المسلمة. وفي الواقع فإننا سرعان ما أدركنا بأن الأوربي الغربي أيضاً ليس بحاجة للخمور لكي ينطلق لسانه ويمرح من أعماق قلبه، لكي يمتع نفسه بوجوده مع الآخرين في بقعة من أكثر بقاع العالم انزواءً وعزلة.

إني شغوفة بغناء الطوارق الذين أقنعوني في الأمسيات الثلاثة الأخيرة بأن أغني على وقع قيثارتهم قصيدة ليونارد كوهين Leonard Cohen الحزينة «مجدوا رب السماء -Hal leluja»؛ وتفاعلوا مع الغناء فراحوا يرددون "مجدوا رب

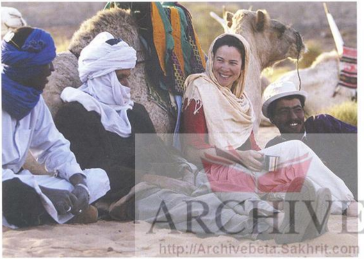
السماء" في كل مرة تتكرر فيها هذه العبارة. وظلت هذه الأغنية ترن في آذان رفاقي المساكين طيلة النهار الذي قضيناه في الصحراء.

وكثيراً ما كنت أطهر اليدين بالرمال وذلك لأني كنت أنسى في كثير من الأحيان أني سأحتاج إلى المناديل الورقية الرطبة. وهكذا كثيراً ما كنتُ أتركها في الحقيبة الأخرى. ومن المفارقات الجميلة أني، وبعد عقدين من الزمن، لم أعد أرى عيباً في نمو الشعر على الساقين أو تحت الإبط. إنه لأمر جميل حقاً أن أعثر فجأة، وبعد قضاء ستة أيام في الصحراء، على فرصة للاستحمام، فحينما سكبت على نفسي اللتر ونصف اللتر من المياه التي استخرجتها من البئر، شعرت بغبطة لا يشعر المرء بها عادة إلا حين يستحم في حمام من الدرجة الأولى.

ولكن، ولأني غسلت عند هذه البئر وفي قيظ الظهيرة بعض ملابسي من دون أن أعصب رأسي بالكوفية، لذا شعرت بعد ساعة من ذلك فقط بصداع قوي وحمى تركتني أتقيء من حين لآخر. وحتى هذا الحدث نفسه ينطوي على شيء إيجابي، فقد أخذتُ استراحةً دامت يوماً كاملاً قضيتها بين التنقل بالسيارة وبين معايشة أحلام وردية زارتني وأنا أجلس في ظل شجرة طلح في شبه غيبوبة من شدة الحمى.

وكان شيئاً جميلاً أن أنهض في منتصف الليل لأقضي الحاجة بين الكثبان الرملية ماشية على رمال انعكس عليها نور النجوم الفضي الذي مال إلى الزرقة بعدما اختلطت به ظلمة المساء. وحين أخرج لقضاء حاجتي، ابتعد عن الآخرين أكثر مما هو لازم ولا أعود أسمع سوى صدى أنفاسي وحفيف الرمال التي أشعر وأنا أخطو عليها كأني أخطو على أرض غطاها جليد ناعم تساقط حديثاً.

وفي ليلة من الليالي انتابني شعور بأن في هذه الصحراء يبلغ العالم أقصى حدوده. وفي هذه الليلة فضلت لأول مرة أن أنام في العراء، بلا خيمة تحيط بيَّ. فضلت هذا وإن كان ابن شيخ قبيلة الطوارق قد تعرض للدغة عقرب. ومن حسن الحظ أن الابن نجا بحياته من هذه اللدغة. لقد استلقيت على ظهري ورحت أنظر إلى أحبائي المتوهجين، إلى النجوم. لقد صرت الآن أكحل عيني برؤيتكم يا بروج السماء: «ذات الكرسي Cassiopeia» و «الفرس الأعظم Pegasus» و «المرأة المسلسة Andromeda». إني أعلم أن لا اتصال بينكم يا أصدقائي وأحبائي ولا علاقة تجمع بينكم وبيننا نحن بني البشر، إني أعلم أن هذا الاتصال وتلك العلاقة من نسيج تصوراتنا لا غير، كما أعلم أن النظر إليكم يعني النظر إلى مليون عام من أعوام الزمن السحيق. وحينما أرفع بصري صوب النجوم وأراها متوهجة في كبد السماء، فإن هذه النجوم لا تستطيع أن تراني بكل تأكيد، فحينما اتخذتْ هذه النجوم الهيئة التي أراها الآن، ما كنتُ أنا موجودة أصلاً. إن ما أراه الآن موجوداً، لم يعد موجوداً منذ زمن سحيق. إن هذا كله يسبب الحيرة ويجعل المرء يشعر بتواضع وجوده. إني أشعر فجأة بدلال وسند قويان يشحذان قواي، وإن كنتُ لا أعلم



أولى لينسه

Photo: Jörg Modrow

أنَّى لي هذا كله. ومع هذا فإن هذا السر يبدو لي هو الأمر الذي أنا بحاجة إليه الآن. فها هو شهاب يسقط من فوق رأسي بسرعة البرق، وها هو شهاب آخر. ولكن، ما هو الأمر الذي ينبغي أن أتمناه وأنا أشاهد هذه الشهب؟ لا أدري بحقيقة الأمر. لا أدري لماذا لم يعد لدي ما أتمناه. أيكمن تفسير ذلك فإني قد حصلت على كل ما كنتُ أمني به نفسي، أم أنه يكمن في أن التمني نفسه قد انتفى نهائياً؟ لبرهة من الزمن بدا الأمر لي وكأني قد انتهيت إلى اللانهاية.

ترجمة: عدنان عباس علي

أولى لينسه: روائية ألمانية شابة تقيم في مدينة كولونيا. وتُرجمت روايتها "أخت وأخ" إلى عدة لغات من بينها العربية.

المصدر: Brigitte, Heft 26/07

Thomas Lehr توماس لير

يوميات مسافر

رحلة جماعية عبر الأردن وسوريا في ربيع ٢٠٠٨

من المقرر أن يدور القسم الأعظم من روايتي الجديدة "سبتمبر" في بغداد، لكن من الصعب تخيّل مدينة يصعب الوصول إليها مثل تلك المدينة. لكن بما أنني تناولت في آخر كتابين لي الثواني الأخيرة لأحد الانتحاريين، وكذلك لعالم كامل يُؤخذ رهينة طوال ثانية، فإنني أصلح ربما لهذه الأماكن؛ فهذه هي إذاً الفنطازيا الجسورة.

لكنني في الواقع أكثر حذرا، وليست لدي رغبة في أن أصبح ضحية عملية اختطاف، أحقق من خلالها مستقبلاً وظيفياً مرموقاً، لذا لم يبق أمامي سوى الكتب والجرائد والأفلام والبحث في مواقع الإنترنت، والحوارات مع العراقيين بصورة خاصة، والتي أجريتها في برلين، لكي أتقدم في مشواري الأدبيّ الطويل نحو بغداد. بيد أنني أحتاج إلى مواد لها علاقة مباشرة بالأجواء هناك، فيتوجب عليّ أن أزور على الأقلّ بعض الدول المجاورة للعراق. لكن أيّ دول هذه، وكيف ستكون البداية؟

وبسبب التنوع الجغرافي والسياسي أصبحت موزعاً بين عناد الكاتب، أي اصراره علي القيام برحلة ذهنية، والرغبة المعاكسة، وهو شعور القيام بجولة مشابهة لجولات هنري كيسنجر والمهاتما غاندي وألبرت شفايتسر بمحاذاة خارطة الطريق اللامتناهية تلك. ولو جمعت بين الأمرين لأمكنني بعد سنوات من العمل الذهني المضني أن أجوب كل البلدان المتناحرة وأتناقش مع سكانها حتي يتوصلوا جميعا إلى تحقيق تعايش سلمي على النمط السويسري.

لكن الأمر يجب أن لا يتمّ بهذه الطريقة الجنونية، فأنا أحتاج إلى الواقعية والرصانة، ولكي استفيد أصلاً من رحلتي إلى الشرق الأوسط اخترت الأنموذج البسيط والفعّال بصورة فورية، والذي يسْخر من الطموحات والآمال العالية: وهو القيام برحلة جماعية إلى سوريا والأردن تستغرق ١٤ يوماً. وقد كانت هناك عروض كثيرة تتضمن برامج متشابهة تقدمها شركات سفر مثل "شتوديوسوس" وغيرها. ولهذا السبب اخترت العرض المناسب الذي تقدمت به شركة «تشيبو» لتجارة القهوة الشهيرة في ألمانيا والتي باتت وسيطاً سياحاً مرموقاً في عموم البلد. فلمَ لا أسافر عبر شركة «تشيبو» إلى الدول المارقة؟ فالقهوة هي، ومثلما فكرتّ، مشروب عربيّ أصيل.

الثلاثاء ١٨/٣/٢٠٠٨

عالم متناقض: أنغيلا ميركل تطلّ علينا من شاشة عير السقف الحديدي الرمادي لصالة الانتظار عند بوابة إقلاع الطائرة. فهي أوّل رئيسة حكومة أجنبية يسمح لها بإلقاء خطبة في الكنيست الإسرائيلي، في حين كنّا نحن في طريقنا إلى الدول المارقة، إلا أن هذا الأمر ينطبق فقط على سوريا، إذ أن الأردن أقام سلاماً مع إسرائيل عام ١٩٩٤ إثر جهود سياسية داخلية وخارجية كبيرة.

كانت شركة الخطوط الملكية الأردنية تقدم الخدمات المألوفة عالمياً، باستثناء الصحف. فهنا لم يكن أمامنا خيار إلا بين Jordan Times العربية و Jordan Times الإنجليزية. أنغيلا ميركل أطلت ثانية، هذه المرة عبر الصحيفة، لكن زيارتها لم تلق اهتماما كبيرا. ولعلّ وضعها سيكون أفضل بكثير في المرّة المقبلة إذا ما أطلّت على رام الله أيضاً. وثمّة شكوى في عمود على الصفحة الأولى من اعتقال عدد من الصحفيين الأردنيين بسبب تصريحات سياسية غير محبذة، على أيّ حال. وإلى جانب ذلك أطل الربيع، حيث يمكن رؤيته عبر صورة يظهر فيها رجلان عربيان بمزاج جيّد وهما يتربعان على العشب. بعد مقالتين في جريدة «جوردان تايمس» انتقلت إلى برامج التسلية والترفيه الموسيقية. لكن الأقراص المدمجة التي تتجاوز الأربعين قرصاً بدت كلّها وكأنها موسيقى أعراس تركية في ذروة الهيجان. ما عدا سيّدة الغناء فيروز التي أثارت إعجابي. وقد كُتب عنها في النصّ القصير الملحق بالقرص: "فيروز تتمتع بسمعة عالية وبقدسية في الكثير من الأوساط العربية، وتستقبل في جولاتها من لدن الملوك والرؤساء والشخصيات الاجتماعية اللامعة". وكذلك لم يكن صوت الشيخ مشاري بن راشد العفسي سيئاً في التسجيل الصوتي وهو يرتل آيات من القرآن الكريم؛ فصوته رخيم ومنغّم تماماً، وبالأخص في سورة الفاتحة.

صور من الرحلة

Photos: Thomas Lehr

الأربعاء ٢٠٠٨/٣/١٩

التقيت بالشيخ العفسي مرّة أخرى في الحلم، وهو يرقص رقصة الدراويش بدشداشة بيضاء في مرقص ما. كلا، إنما كان في البدء المرقص الذي ضُمَّ إلى الفندق المتخصص باستقبال حافلات السياحة السريعة. وربما بغية تسهيل النهوض المبكّر فإن اهتزازات النغم الجهير بلغت قوةً هزّة أرضية متوسطة الحجم في الساعة ما بين الثالثة والخامسة فجراً. وبعد انحسار آخر ذبذبة لموسيقى «التكنو» الراقصة استلم المؤذّن مسؤولية تزويد الهواء الخارجي بشحنات الصوت.

فليس هناك شكّ بأننا وصلنا المشرق، وبعد فترة وجيزة لاح الأسمنت عبر النافذة، ولاحت معه شمس الصباح الصيفية أيضاً. فنهض «سائح الرحلة الشاملة» في السادسة والنصف صباحاً، إذ كان هناك برنامج سيّاحي في انتظاره، وهذا ما يفضله.

فكرة رحلتي الجماعية إلى الشرق الأوسط كانت تقوم على أساس أكبر قدر ممكن من الرؤية البصرية: فيجب أن نرى الكثير خلال أسبوعين. إذ كان من الواضح أن يخرج من حافلة السفر ويتحدث قليلاً إلى أبناء البلد ويخوض بعض التجارب الأصيلة التي يخوضها السيّاح عادةً وألا يعطي من البقشيش إلا ما هو متفق عليه في مكاتب السفر السورية والأردنية، أي ما يعادل ٣,٨٠ يورو لكلّ يوم وسائح. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى عثر حاسبة المجموعة السياحية (التي هي عبارة عن ربّات البيوت المجربات) على مفتاح الحلّ وهو: ٢ يورو للمرشد السياحي و ١ يورو لسائق الحافلة و ٨٠ سنتاً لحمّال الحقائق في الفندق.

بعد قليل سأستمتع بتناول الإفطار ورؤية مجموعتي السياحية في ضوء النهار. كانت المجموعة تتميز بحجمها المعقول نسبياً، فهي لم تتجاوز ١٦ شخصاً. بيد أن الخوف من محور الدول المارقة مازال يسبب ضرراً للسياحة. وبالمناسبة فإن القهوة تحضّر بالمسحوق الأوروبيّ ـ وهذا ليس بالمستوى الذي تتمتع به قهوة تشيبو الألمانية! بل هي من إنتاج شركة سويسرية عالمية معروفة، ثم اكتشفنا بسرعة، ونحن في الطريق، على أن الباعة المتجولين من أصحاب الكوفيات البدوية الحمراء والبيضاء هم الذين يقدمون هذا القهوة الحقيقية الوحيدة الساخنة، المحلاة بالسكّر والمحوجة بحب الهال. وكلّ من ينظر إليهم بتجهّم يدفع عشرين سنتاً وكل من يبتسم لهم يدفع يورو كاملاً.

لم يكن عدد المجموعة وحده مناسبا، بل نوعيتها أيضاً ـ هذا ما أكده لنا المرشد السياحيّ الأردني الذي قال بأن الكثير من الناس يأتون في شهر آب، فيكون كلّ شيء رخيصاً بسبب الحرّ، الأمر الذي ينطبق ـ لم يقل ذلك بصورة مباشرة ـ على السيّاح أنفسهم للأسف الشديد. فهل على المرء أن يصف مجموعته السياحية؟ أبداً، لأن ذلك يعني الإدبار عن البلد الذي يتحرك فيه المرء، فالمجموعة وطن متنقل، ونفور ونكبة معاً وملاذ يمكن أن يزداد سوءاً على الدوام. لكن يمكن القول باختصار: لم يكن بيننا شخص واحد من الأدعياء في فترة عيد الفصح تلك (إذ لم تكن بضاعة آب الزهيدة متوفرة لدينا!).

رحلات الشرق الأوسط المقترنة ببرنامج سياحي مجهد لا يقوم بها عادة إلا الأشخاص المحبّون للاستطلاع على الأقل والخبراء بالسفر عادةً، بغض النظر عما إذا كانوا من أصحاب العقول النيرة أم ليس من أصحابها. ويجدر



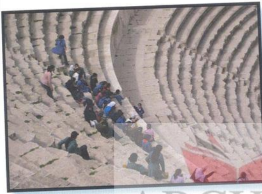
بهؤلاء الأخيرين التأمل، إذ أنني أعني هنا نمطاً معيناً من جوابّي العالم المتخمين الذي جابوا أرجاء العالم كلّها عبر رحلات جماعية شاملة لكل التكاليف، دون أن تصدمهم المشاهد والمعالم السياحية أو تشغلهم فكريّاً. فهم مثل ماكينة رحلات تبث العاطفة فيما هو عادي وسط المجهول وتحصر الدول كلّها في لائحة للمقارنة الداخلية المتدنية

القائمة على عوامل مثل: طعام الفندق وتجهيزات الحمام والحدّ الأعلى للبقشيش وعروض البازار المخفضة. ومع ذلك فإن هؤلاء يتمتعون بنوع من المعلومات عن العالم يكتسبونها رغماً عنهم وتصطدم بمقاومتهم الداخلية في الوقت ذاته، وتتخطى معلومات أولئك الذين لم يسافروا ولم يقرأوا شيئاً.

المرشدون السياحيون هم قياصرة الحافلات، لأنهم يمثلون البلد برمته، وهم لسان حال ساكنيه، والمرشد هو المواطن الوحيد الذي يتحدث إليه السائح الجماعي فترة طويلة وبشكل مختلف، أو بصورة أصح: يصغي مضطراً إلى حواراته الداخلية المبهجة والساخرة والغنية بالمعرفة والدقيقة والعبثية على طريقة بيكيت، وذلك خلال المسافات البعيدة التي تقطعها الحافلة أو أثناء الزيارات الطويلة للمعالم السياحية. لذا فإن الأردن وسوريا أحسنتا صنيعا بوضع شروط صعبة أمام طلاب هذه المهنة.

فالمرشد السياحيّ المعترف به رسمياً يجب أن يكون من خريجيّ الجامعة وأن يكون قد أنهى دورة إعداد إضافية من ثلاثة فصول دراسية، ويجب أن يتقنّ لغة أجنبية على الأقلّ؛ وأن يكون قادراً على خلق مفردات جديدة في اللغة الأجنبية يقود بها السياح الأجانب، كالتي تعلمناها نحن من مرشدنا يوسف بالألمانية، وتفيد ركوب الحافلة والترجل منها وما إلى ذلك.

من تلّ القلعة في عمّان سرح البصر إلى براميل البلاستيك وخزانات المياه التي لاتعدّ ولا تحصى، وبذلك عرجّنا على موضوع شحّ المياه في الأردن، البلد الذي تحتل الصحراء ثلثيّ أراضيه. وهذه مشكلة شائكة، فالكثير من الأحياء لا تحصل على المياه الصالحة للشرب إلا بضع مرّات في الأسبوع. فإسرائيل وسوريا تسيطران على أهمّ نهرين في البلد ـ وهما نهرا الأردن واليرموك. المرشد السياحي أوضح بأنه لا يرغب في تسجيل الملاحظات السياسية، إلا أنه نطق بوضوح تام قائلاً إنّ الاستحواذ الإسرائيلي على مياه نهر الأردن أدّى إلى استياء الناس هنا. ويقال كذلك إنّ كمية المياه المقررة في اتفاق السلام عام ١٩٩٤ لم يصل إلا القليل منها. وفوراً تمنى المسافر أن يحصل على نسخة دقيقة ومحسنة من محرك البحث الإلكتروني «ويكيبيديا» تبرق على شاشة ذهنه فيختبر فيها صحّة الادعاءات السياسية في مكان صدورها وزمانه. فالمرء هنا يحتاج بالضرورة، أيّ في هذه المنطقة التي وصف كارل برون، وهو أحد أساتذة جامعة برنستون، علاقاتها الدولية بأنها من أكثر المنظومات الصغيرة تعرضاً للاختراق في عالم اليوم؛ نعم يحتاج إلى مصحح إلكتروني للأقوال، أي إلى موقع معلوماتي على غرار GPS بل إلى IGPS أو ربما GIPS وهو الأفضل! أو



يحتاج إلى ذلك المقدار من الحكمة الذي أفصح عنه المرشد السياحي وهو يعرب عن امتعاضه من المماحكات اللانهائية حول صراع الشرق الأوسط. وإذا ما تقابل شخصان حول طاولة، فسيكون واضحاً للجميع بأن كلاً منهما سيرى القدح على يساره والزجاجة على يمينه والعكس صحيح أيضاً إذا ما تأمل المرء القدح والزجاجة من الموضع المقابل. وبالمناسبة فإن مياه نهر الأردن لا تصل إلى سدس مياه نهر الراين.

وكان ردّ فعل المرشد السياحي سريعاً عندما تعرّضت إلى موضوع اللاجئين العراقيين في الأردن وذلك قبل أن نركب الحافلة من جديد. يقال إنّ عددهم بلغ حوالي ٨٠٠ ألف لاجئ. وهم يتكدسون في أحياء عمّان الفقيرة أو يهجعون بلا حراك تحت شمس الظهيرة اللاهبة أسفل جبل القلعة. هؤلاء العراقيون يعاملون بصفتهم مجرد «ضيوف»، فلا تمنح لهم رخصة بالعمل ولا يتلقون معونات مالية من قبل الدولة الأردنية، مثلما عرفنا ذلك عبر المرشد السياحي الذي تحدث عن الارتفاع الخيالي للإيجارات نتيجة أوّل دفعة كبرى للاجئين بعد الاجتياح الأمريكي للعراق، وبعد أن جعل أنصار صدّام أسعار السوق تصل إلى الغليان عبر "حقائبهم المليئة بالأموال".

في المسرح الروماني البديع من حيث تناسقه والذي تتيح مدارجه العليا النظر الممتع إلى جبل القلعة وقف صفّ مدرسيّ لتلميذات في العاشرة أو الحادية عشرة من السنّ يختبرن أصواتهن، فكنّ يتناوبن على قيادة الجوقة. وقدمن طائفة من الأغاني المصحوبة بالتصفيق والإيقاعات المتناثرة. وتقدم بعضهن منّي ليسألن ضاحكات عن اسمي وبلدي. لكنهن لم يفهمن «توماس»، إلا بعد قلت: "اسمي توماس، أنا من ألمانيا" فعلتهن الفرحة، بل تحسست احداهن كتفي مرتين، وكأنها تفعل ذلك سرا، لتختبر وجودي الفعلي. كان البعض منهن يرتدي الحجاب أو المريلة المدرسية الزرقاء أو الخضراء، وقد نثرت أخريات منهن شعورهن وبدت ثيابهن وكأنها من متجر H&M



وبعدما ابتعدن منشدات، زاعقات، فكرت عنوة بأن هذه بلا شكّ أجمل فترة في حياتهن ـ وبدت هذه الفكرة وكأنها تفصح عني أنا وليس عن خلجاتهن.

أثناء ركوب الحافلة سلّمنا على «ملاكنا الحارس»، وهو شرطي أردني بقيافة زرقاء، ويبدو أن كلّ وجبة كبيرة من السيّاح كانت توضع في عهدته، الأمر الذي جعلنا نتناول موضوع الأمن عموماً. فبعد العملية التي قامت بها خلية القاعدة العراقية تحت أمرة أبي مصعب الزرقاوي في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥ واستهدفت فنادق راقية وأسفرت عن مصرع ٦٧ شخصاً، بذلت الحكومة الأردنية محاولات لتوفير الحماية للمرافق السياحية حسب طريقتها. ففي كلّ فندق ثمّة جهاز كشف معدني يمكن للمرء المرور به إذا رغب في ذلك. أمام كلّ معلم سياحي قمرةٌ للشرطة تبدو وكأنها زينة أكثر مما هي موضع يبعث على الرهبة؛ وقد بدا ملاكنا الحارس، الشرطي اللطيف جداً، وكأنه هو نفسه يحتاج إلى حماية. فكلّ شيء فيه بدا جديّاً صارماً، وعابساً تماماً، فهو بروسيّ على الطريقة العربية، إذا عنّ للمرء وصفه بهذا الوصف. وفي الأيّام الأخيرة لرحلتنا وبعد العودة من سوريا، حدث خلل في مشروع الملاك الحارس، إذ أننا قمنا بزيارة للمناطق الريفية دون مرافقته، ودون أن نشعر بالإزعاج.

الخميس ٢٠٠٨/٣/٢٠

بعد الرحيل من البحر الميّت، أو الانبعاث والانطلاق بالحافلة، يفكّر المرء مليّا بنقاط التفتيش العديدة، المقامة بسبب القرب من الحدود الإسرائيلية، يفكّر في الطابع العسكري للأردن. فهذا البلد بثكناته ومفارزه ونقاط تفتيشه بدا مثيراً للسخرية إلى حدّ بعيد، أو كمن ارتدى زيّاً تنكرياً. فهذا بلد مجدب وفقير وشديد الانكسار، وبدا مثل داوود الحربيّ المظهر بالمقارنة السكّانية والاقتصادية والعسكرية مع الجيران الأفظاظ من أمثال إسرائيل وسوريا والعربية السعودية والعراق؛ فاستطاع هذا البلد الحفاظ على توازنه بطريقة تثير الدهشة، هذا فضلاً عن التجاذبات الداخلية العنيفة. إذ أنّ عليه أن يتحمل هذا القدر الكبير من السكّان الشباب، شأنه شأن العديد من البلدان العربية، حيث يبلغ متوسط أعمار الشباب ٢٣ عاماً (في ألمانيا ٤٢ عاماً). فأغلبية هذه الأجيال القادمة يجب أن تكتفي بما هو متيسر من الفوسفات والبوتاسيوم وتصدير القوى العاملة والسياحة، إذ ليس هناك احتياطيات نفطية.

فملاكنا الحارس يعتمد مثلاً على البنى القبلية التي تنوب عن المنظومات الاجتماعية المتوفرة بالكاد، وتلك البنى التي تتعامل بازدواجية مع التطورات الاجتماعية، فقبيلته تضم ٧٠ ألف شخص. على العكس من مرشدنا السياحي الذي خبر بنفسه مشاكل اللاجئين المعقدة في هذا البلد، فهو من أصل فلسطينيّ، شأنه شأن نصف سكّان الأردن.

الجمعة ٢٠٠٨/٣/٢١

أثناء سفرنا إلى الشمال في اتجاه الحدود السورية، رأينا أحد المخيمات الجديدة للاجئين الفلسطينيين، وهو عبارة عن بيوت بائسة رمادية وعاجيّة اللون متناثرة في أرض جرداء بوار. يوسف بدا مشغولاً بالتناقض بين الفلسطينيين

المنصهرين في السكّان الأصليين، وهو واحد منهم، وهم يعتبرون أنفسهم أردنيين وقد لاقوا قبولاً حسناً، وبين أولئك الذين مازالوا يحملون صفة اللاجئين ويعانون من التمييز الاجتماعي. فأيلول الأسود قبل ٣٨ عاماً لم يكن بعيداً عن الحاضر إذا ما نظرنا إليه من ناحية تاريخية. وبفعل التمييز في المعاملة وثقة الفلسطينيين المتزايدة بالقوة بسبب تفوقهم العددي في البلد المضيِّف فإن مستقبلهم، ومعهم مستقبل الأردن بكامله، يتجه نحو مصير بالغ التعقيد.

وإذا كانت هذه القضايا ستحل عبر نظام ديموقراطي، أو عبر الأساليب الأوتوقراطية للمملكة الأردنية الهاشمية فذلك سؤال سيشغل الأكاديميين زمناً طويلاً. وقال يوسف بصراحة بأننا لا نتمتع بديمقراطية كبيرة على الرغم من وجود البرلمان ولطافة الناس هنا. فالسياسيون ـ المغفلون ـ هم الذين يحددون الاتجاهات العامة، لكنهم لا يفعلون الكثير لحسن الحظّ. وآمال الجيل الجديد المتجه نحو التكنوقرطية وعالم الاقتصاد معقودة على الملك عبد الله الثاني الذي استهين به في البدء بعدما استلم مقاليد الحكم إثر وفاة أبيه عام ١٩٩٩. ولعل هذا الجيل يبدو مستعداً أو مضطراً للانتظار فترة طويلة بغية تحقيق عملية التحديث التحررية السياسية هذه. والآن أصبحنا بطبيعة الحال في أمس الحاجة ليس فقط إلى محرّك البحث GIPS، بل إلى نخبة من المثقفين الأردنيين لمناقشة هذا الموضوع الشائك مناقشةً مستفيضة.

كان الملك يطلّ علينا ونحن في موقف الحافلة مشرقَ الوجه، وبشارب مشذّب وبطلعة أوروبية إلى حدّ ما، يطلّ من الملصقات الكبيرة على الثكنات والبلديات والنصب وجدران البنايات وواجهات المطاعم الصحراوية. فهو الأخ الأكبر للجنود، وهو في حاجة دائمة لتغيير ألوان زيه العسكري، فيشمّر الملك عن ذراعيه مرتدياً قميصاً أزرق فزيتونياً فكاكيّ اللون وتبدو همّتة عالية. وقد شغلت فكري فترة طويلة لأعرف بمن يذكرني هذا الملك حتى خطرت في ذهني صورة الولد الذي يحمل علامة القلب (كوبا) في لعبة الورق الألمانية «سكات»، ووفقاً لذلك يكون ابن حافظ الأسد هو الولد الذي يحمل علامة التريفل (سَنَك)، بعد أن أطلّ علينا فيما بعد عبر الملصقات الجدارية التي لا تحصى في سوريا.

المرشد السياحي وضع شريطاً مسجلاً فيه زغردة وتهاليل عرضته علينا شاشة الحافلة ربع ساعة كاملة حتى رجوناه أن يوقفه. فقد ظهر علينا عبد الله كلّ مرة في استعراضات ساخرة حربية المظهر وهو يقف في طليعة جيش كامل من عمال القمامة والمرافق الصحية يؤدون التحية، ورجال الأطفاء الذين هم كالمليشيات والجنود الذين يطلقون شتى أنواع القذائف في الهواء. لكن الشيء الأكثر روعةً والذي كان يعاد كلّ مرّة هو منظر أولئك الرجال الملثمين من القوات الخاصة الذين ترافقهم الموسيقى العسكرية والمربوطين بالحبال وهم يتسلقون بناية عالية ثم يركضون فوق جدارها الخارجي كالرجل العنكبوت ويقفزون على حين غرّة مخترقين الزجاج والنوافذ. وهذا هو الاستعراض الأسبوعي الذي يحلم به المغفل الجهادي والذي يلبي جميع رغباته.



فليس من السهل إذاً أن تكون الدولة صغيرة وذكية وضعيفة، بيد أن من الممكن تماماً مقارعة خصم قويّ والتغلب عليه بالحماسة.

يبدو أننا نزلنا من الحافلة دون سبب واضح ووجدنا أنفسنا قرب نهير مخصوضر المياه وفي بقعة مشجّرة، حيث أبلغنا يوسف بأن يعقوب تصارع هنا مع الملاك طوال الليل.

السبت ٢٢/٣/٢٠٠٨

وقفنا على هضبة استطلاع قرب «أمّ قيس» أمام الحدود السورية مباشرة، حيث يمكن رؤية مثلث الحدود السورية ـ الإسرائيلية ـ الأردنية المحاذية لبحيرة الناصرة بصورة مثالية عبر هذا التلّ الميداني. بيد أن هضبة الجولان كانت بارزة

المعالم، لكنها بدت كالحة بفعل الضباب الخفيف الذي كان يغلّف الهواء كما لو أن الهضبة وضعت تحت ورق شفّاف. وكانت نسبة السيّاح وأبناء البلد متعادلة من نقطة إطلالة الصقر المرتفعة هذه. وكان الارتياح بادياً على الجميع، لدرجة أن المرء كان حائراً في اختيار المشهد الأجمل. فمن ذا الذي يشغل باله في شيء معين؟ الكثيرون يفكرون بالطبع في عام ١٩٦٧. فهل كانوا يفكرون بالانتصار الساحق الذي وطد الهالة العسكرية لإسرائيل باعتبارها داوود الذي لا يُقهر؟ أم يفكرون في تلك الهزيمة النكراء، النكسة، التي أثقلت كاهل الأردن بأعداد غفيرة من اللاجئين الفلسطينيين؟ أم في الحرب الوخيمة العواقب والتي تمخضت عن احتلال يمكن التراجع عنه عبر خارطة طريق جديّة، رغم أن الكلّ يعرف بأن هذه الخارطة لا يمكن وضعها في حيز التنفيذ؟ فكم هو جميل وعظيم ومؤسف في الوقت نفسه هو أن معظم المسافرين عادوا إلى الحافلات دون العثور على حلّ حائرين ويهزّون أكتافهم.

فكّرت وأنا أتناول قهوة الدولار الأمريكي البدوية (وكنت أضحك) بأن المسافر إلى الشرق الأوسط عليه أن يتحلى بشيء من القدرية الخفيفة.

وبعد قليل وصلنا إلى الحدود السورية، حيث اشترى كلّ منا تلك الخمرة ذات النسبة العالية من الكحول (اخترت الويسكي المعبأ بقنان بلاستيكية عملية الاستخدام)، لأن النبيذ السوري كان يخلطه أصحاب الفنادق بعصير الشمندر الأحمر على ما يبدو ويباع بوزن الغرامات بسعر الكوكايين، حسب النقاء والفعالية.

يوسف اختفى بعد أن صافحنا كلّنا بحزن ووضعنا في عهدة مرشدة سياحية اشتراكية المذهب من الطرف الآخر للحدود، بل إنها لم تكن سورية حتّى، إنما ألمانية! فإلى الأمام دائماً، وليس إلى الوراء أبداً! هكذا فكّر الاشتراكيّ الواقعي.

كان حرس الحدود السوريون قد انهوا للتوّ دورة تدريب تحت شعار (أيها المارق تأدب!) فكانوا في غاية السعادة إلى درجة التلويح بالأيدي وداعاً بعد أن ركبنا الحافلة مرّة أخرى فيممنا وجوهنا شطر محور الشرّ، قاصدين دمشق.

لقد عوّض سائق الحافلة النقص الذي يكمن في أننا كنّا نمرّ على المناطق والناس دون اتصال وثيق، عوّضه بعروضه السينمائية، فنشأت لمحة فلميّة عن البلد بلغة سريعة اللقطات وتقطع مسافة ٢٥٠ إلى ٤٥٠ كيلومتراً في اليوم الواحد، أعطت في الواقع صورةً سطحية عن البلد، لكنها حريّة به. فاتضح على الشاشة سريعاً بأن سوريا مقارنة بالأردن هي البلد الأهم والأقوى والأكثر استقلالية. وبدا الريف حديثاً نوعاً ما في بعض الأماكن بفضل توفر المياه والمناخ المناسب، حديثاً بالنسبة لحوض المتوسط على الأقل، بحيث أن المرء يشعر وكأنه رحل إلى بلاد الأندلس أو البرتغال. وينطبق هذا الأمر على المنشآت الصناعية الصغيرة والكبيرة على السواء. وهنا يحاول المرء أيضاً إخراج الجيل الجديد من ظلّ الأبوية بفضل بشّار الأسد، وذلك من



خلال النضال عبر التحديث الاقتصادي، بدلاً من الصراع السياسي عبر المسميات والمصطلحات الفكرية، بغية دفع عجلة التقدم التكنوقرطي إلى الأمام. ولعلّ «ولد» ورق اللعب المكفهر دائماً والجريء النظرة الذي يقف في صفّ محور الشرّ كان جاداً في أمره أكثر من «الولد» الأردني المستبشر والمتحالف مع الغرب. هذا يعني أن التطوّر السوريّ يبدو أشد صلابة وينطوي على بنى متينة، دون الكثير من التقولات.

دمشق أقبلت علينا، فيجب أن نذكر فوراً ميزتها الكبرى: إنها أقدم مدينة مأهولة في العالم، as far as we know مثلما جدّف المارق الأمريكي في داخلي. كان مدخل المتحف الوطني ومحيطه المليء بالتحف المثيرة يشيان فعلاً بالمعمار الاشتراكي الواقعي الذي يتأرجح بين شارع ستالين المشجّر وأسمنت روّاد الفضاء. وحالما يغادر المرء حديقة المتحف الغنّاء وينحرف في أوّل ركن يرى محطة باصات

مقبضة خاوية وشارع يوصل بالطريق السريعة والخيام البيضاء لوكالة الغوث الدولية المساهمة في تقديم المعونات للاجئين العراقيين. إيواء سوريا لما يقرب من مليون ونصف لاجيء عراقيّ ومحاولتها تقديم المساعدة لهم قدر المستطاع (وقد أثنت عليها الأمم المتحدة)، أمر لا تكترث به دول محور الخير. وكدت أفقد آثار جماعتي بفعل معايشة الحقيقة التي استغرقت ١٠ دقائق خارج المتحف. لكنني فقدت آثارهم فعلاً في المدينة القديمة بعدما ساقت المرشدة السياحية قطيعنا عبر السوق. وأمام بوابة الجامع الأمويّ دخلت في حديث مع بائع للبطاقات البريدية ثم وجدت نفسي وحيداً بين مئات النساء الإيرانيات المتلفعات بالعباءات السوداء. فاستخدمتهن غطاءً للتمويه ودخلت مجاناً عبر عتبة البوابة المرتفعة للجامع، بدلاً من الدخول عبر بوّابة السيّاح التي استخدمتها أسرتي في الرحلة.

ضياعي الذي استغرق ثلاثين دقيقةً تمخّض عن فائدة التجوّل وحيداً في الجامع بلا قطيع. وبالنظر للروعة المعمارية وطبيعة البناء المنفتحة والفسيحة اتضح بأنني هنا مجرد توصيلة كهربائية صمّاء. فقد تبدد دفعة واحدة جميع ما قرأته عن المعالم الفنية التاريخية وتفاصيل بيت الله هذا الذي شيّد في القرن الثامن على آثار معبد «جوبيتر»، بحيث لم يعد هناك معنى لاستعادتها عبر مراجعة المصادر. ولم يبق في الذاكرة سوى الحيرة الكبرى التي يطأ بها المرء المكان الذي يغصّ بمئات الزوّار والمصلين والفضوليين، والذين يتفرقون بعد ذلك في جوّ من الهدوء والسكينة على الرغم من شدّة الزحام؛ في جوّ يكون البعض فيه قد استغرق في التعبد والبعض الآخر ينضم إلى عائلته برضى وارتياح. كان المصلّى ذو الأجنحة الثلاثة بأعمدته العالية وثريّاته المتدلية عميقاً وسجاده الثقيل يحقق بقناعة كلّ ما يُطلب من الجامع عادةً وهو أن يكون داراً للمؤمنين، يصلون فيه ويلقون المواعظ ويصابون بالدهشة ويلتقطون الصور أو يضطجعون على الأبسطة الناعمة أو يسترخون بمعية العائلة. وفي عمق الحجرة الإلهية تلألأ زمرديأ أخضر ضوء الضريح الذي يضمّ رأس يوحنا المعمدان، المقدس في الإسلام أيضاً؛ وهذا واحد من رؤوسه العديدة في المشرق، إذ علينا أن نتخيل يوحنا كالعُدار ذي الرؤوس التسعة.

وبحذر شديد التفتت حول حشد من الزوّار الشيعة القادمين من إيران وقد بان عليهم التوتر، إن لم يكن الشرود بعينه، وهم يقفون أمام ضريح الحسين، حيث دفنت نسخة من رأسه، إذ أنّ رأسه كان يرقد زمناً طويلاً في الضريح الذي يقع خلف البوابة الشرقية.

وقد تراجعتُ بضع خطوات لكي أشمل ببصري المنارة الجنوبية الشرقية التي سيعتليها يسوع (يسمى هنا عيسى) ساعة افتتاح يوم القيامة حسبما تقول الأسطورة. بيد أن الأمر لم يصل بعد إلى هذه المرحلة، إذ أن السماء كانت خالية من الحركة في سكون الربيع. لكن فجأة وجدت نفسي محاطاً برهط من الرهبان الكبوشيين الذين بدت عليهم أمارات القيامة. فهل هم تائبون يكفّرون عن ذنوبهم، أم مساعدون مكفهرون ينفذون الوائح ؟ كلا، إنما كان الأمر يتعلّق بالشق النسوي من رفاق رحلتي في الحافلة وقد البسوهن مسوحاً طينية اللون قبل أن يدخلن الجامع الأموي.

المرشدة السياحية لم تعد تتحمل فقدان حمل واحد من قطيعها بعد ذلك الضياع، لذلك اشترت مظلّة من أول بائع في السوق لتكون بمثابة علامة دالة نعرف من خلالها موقع المرشدة في الزحام. بعد ذلك أتيح لنا بعض من الحرية الفردية الرأسمالية، فاستطعنا أن نجوب السوق والمدينة



القديمة على مسؤوليتنا الخاصة، باحثين عن المقاهي التاريخية وقلائد الفضّة البدوية الأسطورية الصيت. وفي الصراط المستقيم الشهير الذين يقسم الحيّ الأثري إلى اتجاهين شرقيّ وغربي التقينا ببعضنا البعض بعد ساعة من الغياب. إنه زقاق بين منازل المدينة القديمة الرمادية التي بدت وكأنها من الحجر المفخور، يشوهها منظر عمال البناء وآلات البناء المتداعية، فكانوا يحاولون تقويمها، لأن مدينة

دمشق ستصبح فيما بعد عاصمة ثقافية. كتاب الدليل السياحي ذكر أنها أعمال صيانة خالية من أدنى مراعاة وبلا تخطيط، فوافقت على ماورد فيه بدون أي جدال. ثمّ اشترى الجميع البرتقال وسط الغبار، وكأن مجموعتنا السياحية أصيبت بالعصاب على حين غرّة، فتصرف بائع الفاكهة، الذي قام بأكبر صفقة بيع لهذا اليوم، إزاء المجموعة تصرفاً متعقلاً. وقد اتحفتني ذاكرتي الثقافية بمقاطع من رواية روبرت شيندل «مولود»، حيث تتحدث أمّ الراوي اليهوديّ الذي نجى من معسكر الاعتقال عن أمنيتها الملحة في الحصول على برتقالة طازجة أثناء فترة اعتقاله.

فالمرء لن يرحل بمفرده طالما كان يحمل رأسه معه، وبالأخص عندما يرحل إلى الشرق الأوسط. فكلّ شيء هنا مليء بالرموز والإشارات والدلالات والقصص والتضمين؛ فأنت إذاً موسوعة يتصفحها المكان.

والمرء يحتاج بلا شكّ إلى أسبوع على الأقل وبإرشاد أحد العارفين المعتدلين، وبلا أدنى تداعيات خواطر، لكي يطلع على الطبقات التاريخية الثقافية لمدينة دمشق المقامة كالكعكة المتعددة الطوابق. فمن الضروريّ البقاء فترة طويلة في عهدة أحد أبناء البلد ليتعرف المرء على المقاهي وتجمعات المثقفين الخاصة والحفلات المنزلية التي تُدخّن فيها الأراجيل وتحتسى فيها الفودكا ويحضرها المخبرون الذين يسمحون بكلّ شيء ما عدا التعليقات السياسية.

لكننا سنواصل رحلتنا عصر اليوم إلى تدمر، وهنا يقع الخلل الجوهري الأوّل لرحلتنا الجماعية. إنه عطب فعليّ يلحقه شكلٌ معين من الرحلات الجماعية بالبلد. فقد اختفت معالم دمشق وتحولت إلى سجادة شرقية مطوية بين المتحف والجامع، مثلما بدت سوريا برمتها في رحلتنا، مشتتة متباعدة و قد أعدمت عنها الآثار الصوتية وتحولت إلى شريط سينمائي مسطّح.

المرشدة السياحية قالت: لابد من وجود مرشد سياحي يتخصص بإطلاع السيّاح على الأطلال الإغريقية الرومانية فقط.

الأثنين ٢٠٠٨/٣/٢٤

ولأن مرشدنا السياحية عثرت عليّ مجدداً في الجامع الأمويّ بدمشق فقد اعتبرتني قادراً هذه المرّة على مغادرة السوق في حلب لأتجوّل بمفردي ساعتين عبر المدينة، لأعود حسب الموعد المقرر. فبدا ذلك وكأن المرء أخرج من الحجر الصحيّ ليتمرن على القدرة في مواصلة الحياة.

واشتريت قطعة من سميط السمسم من فرّان لطيف يضع بضاعته على عربة خشبية ويجرها عبر الحشد. وتناولت فنجان قهوة في مقهى يرتادها فقط رجال من البلد، وبعد ذلك سلّمت حذائي إلى بواب الجامع الأمويّ المحليّ بناءً على طلبه وسمح بأن أصور كلّ شيء: no problem. إن المساجد هنا تعويض للنقص الحاد في الحدائق العامة والمتنزهات الذي تعاني منه المدن العربية، فهي الجنائن الحجرية للإسلام والتي توفر الراحة وتتيح فرصة التأمل الروحي لكلّ من يدخلها (وليس في نيته أن يشوي الدجاج!). فخطر في بالي بأن وحدة أماكن الصلاة والتأمل والتعليم والتعلّم في المسيحية موزعة على الكنائس والأديرة وحلقات الدراسة. وهذا الأمر يوضح بالمقارنة مع دور العبادة عندنا مدى تلقائية الجوامع الكبيرة بالأخص، ذات الطراز المعماري المتميز، وحياتها اليومية وجنائنها الأرضية.

دفعة واحدة وجدت نفسي مطوقاً بالرجال المسرعين إلى الصلاة. فجلست بصمت على سجّادة في ركن المسجد، وكان هناك شابّ يراقبني فتقدم نحوي بعد دقائق وهو منفعل بشدّة، ولوحّ لي بيديه بمعنى تأدية مراسيم الصلاة مثلهم، فنهره أحد الرجال بالقرب منّي، وألمح لي بأن أبقى جالساً، ففعلت ذلك حتى انتهت الصلاة الجماعية. وكان كتابي السياحي الذي يتضمن إرشادات عملية تتعلق بسلسلة الصدمات الثقافية، لم يحتو على قاعدة بسيطة مناسبة تضمن لي السلامة في موقف محرج كهذا. ولم يخطر في ذهني سوى التصرف بحذر شديد ولطف، وودت لو لم أكن موجوداً هنا، لولا العناد الذي ركبني ثم رفع صوته قائلاً: لا تتصرفوا على هذا النحو! بل تصوّرا أن بإمكانكم وفي وكل وقت الدخول إلى أحد بيوت الله المسيحية في أوروبا كلّها (إذا كان المواطن السوريّ قادراً على دفع تكاليف الرحلة السياحية الباهظة إلى ألمانيا). إن ديناً عالمياً في بيئة ثقافية مضيافة لقادر على تحمل ضيف متطفل! فلا تحكم أيها المرء أبداً على ثقافة كاملة من خلال تصرفات صبيانها. وإذا كنت أنا صاحب هذه الخاطرة فسأكون سعيداً بها.

الثلاثاء ٢٠٠٨/٣/٢٥

في طريق العودة وقبل الحدود الأردنية بمسافة قصيرة قامت مرشدتنا الاشتراكية بتعبئة السيارة بالبنزين. فكانت المضخّات فارغة كلّها في المحطة، وطُلب منّا عدم تصوير

عامل المحطة وهو يعبأ صفاً من السيارات بالوقود عبر خرطوم طويل مرتجل، لا يعلم حتى الشيطان من أين جاء به. وبصفتنا من السيّاح الذيم يجلبون المال فقد فُضلنا على الآخرين. ومن الغريب حقاً هو أن عامل المحطة اقتنع بهذه الحجة التي أوردتها مرشدتنا السياحية. وكنّا أن قد أنهينا نقاشنا الفكري معها عشية الرحلة: فهي قد ولدت وترعرعت في جمهورية ألمانيا الديمقراطية سابقاً ودرست في لايبزغ حيث تعرفت على زميل سوريّ فتزوجته، ثمّ رافقته في رحلته إلى وطنه، إلى البلد العربي الاشتراكي الشقيق، حيث تقيم منذ ثلاثين عاماً، ويمكن وصفها بالمرأة البعثية المتنورة. وأنا لا أودّ هنا أن أتعرّض بالتفصيل إلى موقفها أو ظروفها الحياتية. لكن ما يهمني هو السؤال اللعين أو النقدي الذي يطرح نفسه على كل مثقف كوزموبوليتانيّ (ذهنياً على الأقل) في المنطقة: إلى أيّ حد يمكن أن يقف المرء، حبّاً أو تعاطفاً مع وطنه، إلى جانب



نظام يحكم بيد من حديد؟ وإلى أيّ قدر يمكن للمرء لأن يتحمل التسلط والرقابة والعنف والمحاباة وسوء استخدام السلطة، إذا كان الهدف من ذلك هو تسهيل عملية التقدم التقني والاقتصادي، وتحسين الشروط الحياتية للجميع، الأمر الذي يؤدي بالتأكيد، وإن بصورة بطيئة، إلى إحلال الديمقراطية وتحرر المجتمع؟ فهذه أسئلة لعالم بعيد عن التفكير المارق وغير المارق، عالم يلعب لعبة التوزان على محور تأنيب الضمير والتضامن مع البلدان العنيدة التي أصبحت هكذا لأنّ ظروفها ليست سهلة.

وإذا ما شاء المرء أن يحشر سوريا في مقارنة معينة فسيتولد انطباع بصري بالمقارنة مع الولايات المتحدة الأمريكية أو البلدان الأوربية الكبيرة وهو أن سوريا بلد فقير إلى حدّ ما، ودولة صحراوية صغيرة بمجتمع منقسم متصدع، ويمكن للمرء أن يدع لها فخرها بنفسها ويمكن أن ربما أن يتعاون معها أكثر مما يتوقع المرء حتى في أحلامه المارقة.

الأربعاء ٢٠٠٨/٣/٢٦

الآن حلّت الأيام الأخيرة الخمسة للرحلة. وكنّا في طريق العودة إلى عمّان التي بدت قريبة منّي شيئاً فشيئاً. ثم أعقبت ذلك رحلة إلى الجنوب الأردني الذي كانت تضاريسه الجغرافية المثيرة تعوّض عما افتقده البلد ربما من ثقافة مدن وماض شرقيّ يبعث على الحنين.

فمشاهد الوديان إلى جانب منحدر الأردن من جهة بحيرة الناصرة وحتى البحر الميّت كانت تقدم منظراً هائلاً في روعته لمنحدرات وأخاديد. فالطبيعة الجافة جفاف العظام والتي بدت وكأنها قطعت بآلات عمالقة تقدم جواً من الجديّة الأبوية، كانت تدفع بدورها إلى التأمل والقناعة بأن البدو الذين يسوقون ماعزهم وأغنامهم هم الوحيدون الذين يعرفون قدرها. إذاً ستكون الرحلة المقبلة على غرار: نزهة جبلية مع البربر، لكن هذا العرض موجود فعلاً، ثم إننا مازلنا مشغولين هنا، فركبنا ثانيةً نحو أقصى الجنوب.

الجمعة ٢٠٠٨/٣/٢٨

في نهاية رحلة متربة مثل هذه يكون من حقّ راكب الحافلة الذي يرقد في تابوته الذي وهبه الله له أن يسترخي على مقعد استلقاء عند البحر ويوزع اليورو والدنانير والدولارات الأمريكية لكي يحصل على الشرب والراحة معاً. بيد أن الاسترخاء بهدوء على الساحل العام للعقبة، مدينة التجارة الحرّة، صعب إلى حدّ بعيد، لأن بقعة الرمال هذه كانت متسخة بصورة خرافية فعلاً وممتلئة بالحياة الصاخبة. وبدا كما لو أن المدينة حكمت على القسم الأعظم من سكانها الشباب أن يمضوا حياتهم وهم في سراويل الاستحمام القصيرة، بعد أن نثرت لكلّ واحد منهم نصف متر مربع من الرمل الأصفر، فبدا سعيداً بشكل عصيّ على الشفاء.

مأخوذاً بالاستغراق الروحيّ تطلعت إلى ميناء إيلات الإسرائيلي عبر مقهى الساحل البعيد، فتراءى أشدّ انتظاماً مقارنة بميناء العقبة المرتجل باضطراب، كما لو أنه ساحل

ولاية ميامي وقد هبط من السماء، فأتتي رغبة في الذهاب إلى هناك واستقل قشرة الجوز البيضاء المسقوفة تلك والتي تتسع لعشرين شخصاً، لكي يتسنى لي عقد مقارنة داخلية بين المدينتين؛ فكم سيكون هذا الأمر جميلاً!

الآن علينا أن نغمض أعيننا عن هذه التمنيات الجميلة ونسأل أنفسنا في نهاية المطاف، ونحن نحتسي شاي النعناع اليانع، ما الذي تعلمناه خلال الأيام الأربعة عشرة الأخيرة.

الأحد ٢٠٠٨/٣/٢٩

لم أعثر على الإجابة البسيطة عن هذا السؤال حتى في اليوم الأخير من الرحلة التي أخذتنا إلى وادي عربه هذه المرّة. كانت الطبيعة صحراوية جرداء، وفسيحة أحياناً ومُحرورةً، وقاحلة أحياناً أخرى إلى درجة الرعب. وكان «ولد ورق اللعب» (الملك) يبتسم على الملصقات في منطقة الأسواق الحرّة التي انضمت إليها العقبة قبل ٥ سنوات، يبتسم لنا وهو يرتدي بدلة مدنية تماماً. فما الذي كان يفكر فيه الملك خلف حجاب ابتسامة القوّة هذه التي جادت بها شفتاه حول عالمه ما بعد الحداثي والقروسطي هذا، عالم Go-West-Stay-East؟

لعلّ الأمر يستغرق وقتاً طويلاً للتوصل إلى حكم نهائي، لأن هناك جملةً من النتائج تمخضت عنها هذه الرحلة القصيرة والسطحية، مثلما يجدر بنا أن نتعرف هنا، رحلة الصفقة الواحدة الجماعية المقطوعة. لكنني في البدء يجب أن أشدد على أنني سعيد تماماً بعودتي إلى الغرب. وهذا ردّ فعل إجمالي على تأثير المجتمعات التي تأملتها عن قرب أو بعد في آن واحد. ولا أعلم فيما إذا كنت مستعداً للعيش في العالم العربي فترة أطول، أي مدّة ستة أشهر. فهذه ليست مدني ولا بلداني، تلك التي لا يستطيع فيها المثقفون أن ينطقوا بكلمة واحدة ضد حكوماتهم دون أن يتعرضوا للسجن والتعذيب، والتي تتشح فيها أغلب النساء المغيبات بالسواد، والتي تكيل فيها آلية المجتمع الأبويّ الدينيّ الطعنات الدموية للحياة العامة وحيث ينتخب فيها الشعب برلمانات ليست أكثر من هيئة لتزيين السلطة الفردية. وحتى سائح الحافلة الذي أمضى ١٤ يوماً في فصل الربيع لم يستطع تجاهل تأثير هذه المشاكل.

وأرى أن من الضروري أن يعرب المرء عن استهجانه هنا بوضوح تام، إذ أنّ من السهل القبول بثقافة غريبة والاعتراف بها كما هي بطبيعة الحال. ولايجب أن يتحوّل المرء إلى سمكة تعوم في مياهها، حتى لو نظر إلى هذه الثقافة باحترام بالغ. فالثقافة، وبالأخص عندما تكون عالميةً كبيرة مثل الثقافة العربية، لا تعد مجرد قائمة للطعام ينتقي منها المرء بعض الوجبات أو يخلط مكوناتها. إنما هي دائماً بمثابة شيء عظيم مبهر، لأنها تشكل نمط تفكير ملايين الناس وظروفهم الحياتية وسلوكهم واتصالاتهم. فهي منسجمة مع ذاتها ومترابطة ومتوازنة تاريخياً ـ على الأقل مادامت الأغلبية العظمى من أبنائها أو أعضاء مجتمعها تحملها في أعماقها وتتحد معها. وهم وحدهم لهم الحقّ والإمكانية معاً في تغييرها في الطريقة و السرعة التي يرونها مناسبة.

وأودّ أن أعلن هنا بأن المرء الذي يسعى إلى كسب هذه المعرفة ليس عليه إلا القيام برحلة عبر شركة تشيبو، فهذه الرحلة لن تضرّ أبداً؛ لأنها تشبه البحر الميّت: حيث نسمع الكثير عن قدرته الأسطورية على حمل الأجساد، لكن عندما يضطجع المرء على مياهه ويشعر بأنها تحمله فعلاً فذلك أمر مختلف تماماً. ومن البديهي أن نضيف إلى ذلك التفاصيل الكثيرة والروائح والعطور والموجودات وأجواء المدن والصحارى والجوامع والمقاهي والأسواق التي يمكن استغلالها أدبياً عبر معايشتها مباشرة أفضل بكثير من التعرف عليها عبر الأفلام والقصص. وحتى سائق الحافلة المتربط بمجموعته السياحية كان يتلقى ما يكفي من هذه الأشياء، متمنياً أحاديث أخرى أكثر عمقاً وغنية بالحوار. فليس هناك سوى ثقافة عربية واحدة تمتد من بغداد إلى القاهرة، مثلما أوضح لي صديق عراقيّ. فهو يعني بذلك فنّ الشعر من ناحية والحياة اليومية من ناحية أخرى، الحياة الشرقية المدهشة، التي يودع المرء زحمتها وأطايبها وصراحتها ولطافتها وطابعها الخاص، وداعاً يحمل حزناً شفيفاً في الختام، حتى لو يكن المرء يميل إلى الرومانسية مثلي أنا.

ترجمة: حسين الموزاني

توماس لير: من مواليد عام ١٩٥٧. يعتبر من أهمّ كتّاب جيله في اللغة الألمانية.

نويد كرماني Navid Kermani

في ضيافة العسكر

زيارة أفغانستان برفقة قوات الناتو

كتب الكاتب والمصوّر نيكول بوفير الذي انطلق من سويسرا بسيارته ماركة فيات/ تولبولينو عام ١٩٥٣ لزيارة بومباي، مروراً بكابول يقول إنّ: "زيارة أفغانستان مازالت تعتبر امتيازاً. فقد كانت إنجازاً كبيراً حتى قبل وقت قصير. وذلك لأن الجيش البريطاني لم يتمكن من السيطرة على الهند إلا عن طريق قطع المعابر الحدودية الشرقية والجنوبية قطعاً تاماً. ومن ناحيتهم فقد تعهّد الأفغان بعدم السماح للأوروبيين بدخول أراضيهم، والتزموا بتعهدهم هذا وطبقوه بدقة إلى حدّ ما". وأضاف بوفير بأن حوالي عشرة فقط من المغامرين الأوروبيين نجحوا في دخول أفغانستان حتى عام ١٩٢٢. بيد أن العلماء كانوا أقلّ حظاً من المغامرين، فاكتفى أستاذ الأدب الهندي دارميشتيتر بزيارة مخبريه في السجون الباكستانية. وانتظر عالم الآثار أوريل شتاين عشرين عاماً لكي يحصل على تأشيرة الدخول، لأنه لم يفلح في المرور من ممر خيبر، ثم حصل على الموافقة في الوقت المناسب، ليموت في كابول.

"اليوم يكفي قدر قليل من الكياسة والتحمّل للحصول على التأشيرة الثمينة. لكن عندما يصل المرء عند حلول الظلام إلى بلدة لاسكور دونغ الحدودية الواقعة على طريق كويتا/ قندهار، فإنه لا يرى أحداً ليعرض عليه تأشيرة الدخول. فليس هناك شرطيّ جمارك ولا حاجز حدوديّ أو نقطة تفتيش، إنما فقط الشريط الأبيض للطريق الذي يمرّ كالطاحونة بين بيوت الطين والبرّ المترامي الأطراف". وبينما ذهب رفيق رحلته يفتش عن موظّف الجمارك فقد رقد بوفير، الذي جرحت يده، في سيارته: "جعلني صرير الباب استقيظ بغتةً، فرأيت رجلاً عجوزاً يضع مصباحاً يدوياً أسفل أنفي، ويزعق بيّ باللغة الفارسية. كان يرتدي رداء أبيض وعمامةً بيضاء، وكان ذو لحية مهذبة ويضع على عنقه سلسلة فيها ختم فضيّ بحجم قبضة اليد. فاستغرق الأمر وقتاً حتى أدركت بأنه موظف الجمارك. فقد تحمل أعباء السفر إلى هنا ليتمنى لنا رحلة سعيدة، قبل أن يناولني عنوان طبيب في قندهار. وجعلني أسلوبه اللطيف في ممارسة واجبه وثيابه التي ارتداها أشعر بالتعاطف معه، فذكرت له بحماقة، لكي لا أجلب عليه ضرراً، بأن تأشيرة دخولنا انتهى مفعولها قبل ستة أسابيع. لكنه كان قد لاحظ ذلك بنفسه دون أن يبدو عليه أثراً. فالمرء في آسيا لا ينظر إلى جدول المواعيد بدقة! ولماذا يمنعنا الرجل من دخول البلد في شهر آب/ أغسطس ونحن نحمل تأشيرة دخول في شهر تموز/ يوليو؟ فشهران من الزمن لا يغيران في الإنسان إلا قليلاً".



نويد كرماني

Photo: Kursbuch

الزائر الذي يأتي إلى أفغانستان عام ٢٠٠٦ يرتدي في مطار كابول على الفور سترةً عسكريةً واقية وخوذة. ثم يقوده جنود بريطانيون في رتل من سيارات لاندروفر المصفحة إلى مقر قوات إيساف، أي القوات الدولية المكلفة بضمان الأمن في البلد لغرض إعادة البناء. فهو لا يرى المدينة إلا عبر فتحة أصغر من فجوات البرقع الذي لم تعد النساء الأفغانيات يرتدينه في كابول. في اليوم التالي عندما اصطحبه الجنود إلى مركز تدريب للجيش الأفغاني، شاهد التدريب من السطح كالحرس. هذا المعسكر يطلق عليه اسم «ألامو»، وهو عبارة عن صهاريج وبيوت جاهزة وخيام يقيم فيها المدربون الأمريكيون، حيث يتمّ كلّ شيء في هدوء

وتواضع أكثر من مقر قوّات الولايات المتحدة في باغرام، حيث يعسكر ثلاثة آلاف جندي وخمسة آلاف مدني وألفا أجير أفغاني؛ كما لو أنهم في مدينة صغيرة وسط الولايات المتحدة الأمريكية، أو في البلقان أو أفريقيا أو العراق: فثمّة محلات تجارية مليئة بخيرات السوق الأمريكية ومكتب بريد ومصرف ومركز رياضيّ وحلاقون وصالونات تجميل ودورات مدرسية تعليمية وخيمة لبّاد قرغيزية تستخدم كدكّان لبيع التحف الآسيوية ومحلّ سجّاد و «بورغر كنغ» و بيزا «جيانو» ودكان لبيع حبوب القهوة الطازجة، بل هناك محطات لحافلات الركّاب. فليس هناك ما هو محليّ في معسكر ألامو الصغير إلا المطبخ الأمريكي.

وعندما سأل الزائر الضابطَ اللطيف الذي اصطحبه إلى هناك عما إذا كان يشعر بالأسف لأنه لا يرى المدينة، أجاب الملازم الأوّل ويبر بأنه لا يرى مشكلة في ذلك. و"إذا ما رغبت في الذهاب إلى المدينة فاذهب برفقة ثلاثة زملاء ثم نمضي إلى إيساف أو باغرام حيث نلتقي بشبابنا هناك".

فلابد من توفر ثلاثة زملاء على الأقل لتأدية هذه المهمة، لأن القوات الأجنبية لا تتحرك مبدئياً إلا بقافلة صغيرة من عربتين مصفحتين، لكلّ جنديين عربة، فيذهبون إلى المدينة. بعض الجنود يجدون من الغريب أن يرتدي المرء، الذي يرغب في مساعدة الشعب، سترةً واقية وخوذةً حربية وبندقيةً آليةً محشوةً بالرصاص. بيد أنّ هذه الأجراءات ضرورية لأسباب أمنية. وبالطبع يتفهّم الزائر ذلك. ففي كلّ ثالث يوم من رحلته يفجر انتحاري نفسه في البلد. وقد التقى بجنود فقدوا زملائهم يوم الأمس. الزائر يتفهّم أيضاً وجود مواد للتعقيم في كلّ حانوت وحمّام ومرحاض، يلزم الجنود برشها بعناية. فهذا عمل ضروري لأسباب وقائية. ويفهم في الوقت نفسه بأن الحوانيت هنا لا تستخدم مبدئياً المواد الغذائية الأفغانية، بل إنّ كلّ حبّة أرزّ وكلّ قطرة ماء تأتيان من الخارج عن طريق الجوّ. وهذا أمر ضروري ليس لأسباب أمنية مثلما ظنّ، بل لأن الأسعار قد ترتفع سريعاً في الأسواق المحليّة مثلما أوضح ممثل الشركة الألمانية السويسرية التي تقف في مقدمة الشركات التي تقدم الأطعمة في مناطق الصراع. أمّا حقيقة أن الأفغان لا يحقّ لهم بأي شكل من الأشكال أن يلمسوا المواد الغذائية، بل إن عملهم يقتصر على غسل الأواني في المطبخ، في حين يجلب معظم المستخدمين، بما في ذلك الحرّاس، من بلدان مثل النيبال أو الهند، فذلك شأن لا يعود إلى أسباب وقائية صحيّة، إنما لأسباب أمنية. رئيس الطهاة قال إنّه يفضّل بالطبع توظيف الأفغان، فهم يتقاضون أجرة أقلّ، فضلاً عن أنهم لطيفون حقاً. لكنه لا يستطيع تشغيلهم، لأن العقد يحظر عليه ذلك، وعلى المرء أن يتفهّم هذه الحقيقة. فقال الزائر نعم، بطبيعة الحال. وتوصل عبر هذا الحديث أيضاً، مثلما كان الأمر في الأحاديث الأخرى، إلى نقطة لا يفهم فيها الطرف المقابل ما هو مقصود.

رئيس الطهاة قال لو إنني فكرت أحياناً في هذه الأشياء لأصابتني الدهشة، قال ذلك بعدما جلس الزائر بعد الإفطار إلى جانبه ومساعديه النيباليين والهنود. وما الذي يدهشك؟ كلّ شيء يدور هنا. فنحن هنا في أفغانستان، لكن ما يحدث لا علاقة له بأفغانستان، فالفاكهة تأتي من أمريكا الجنوبية وشرائح اللحم من ألمانيا والماء من الخليج العربي والطهاة من النيبال. لكن الأمر يتخذ أبعاداً جنونية فعلاً لدى الأمريكان! ولماذا؟ لأنهم يستوردون القريدس من كوبا، نعم من كوبا! فتخيّل ذلك!

ثم هزّ رئيس الطهاة، الذي يودّ توظيف الأفغان ولا يد له في عدم تقدم البلاد، منكبيه في حزن. لكن ماهو سبب ذلك؟

قائدا القوات البريطانية العميد نوغي والكولونيل موس يتمتعان بأسلوب أخّاذ: فهما ساخران ومؤدبان ومباشران وصريحان غاية الصراحة، لدرجة أنهما ينتزعان الحجج من المرء عبر تأييدهما له. كيف هو وضع الشرطة الأفغانية التي يدربها الأمريكيون والألمان؟ إنها غير فعّالة، وسيئة القيادة وفاسدة، إضافة إلى أنها كالهرم المقلوب، أي أنّ عدد الضبّاط أكثر من رجال الحرس. وما هو سبب النسب العالية لتخلي الأفغان عن العمل لدى الشرطة؟ لا عجب في أن يحصل الشرطي الذي دربته إيساف على أجر أعلى لو أنه عمل، فيما بعد منظفاً لدى إيساف.

وأمراء الحرب الذين يعينهم الرئيس كرزاي مسؤولونَ عن أمن الأقاليم؟ إنهم رجال عصابات! هل هذا هو الفساد؟ بلى! انظر مثلاً إلى شقيق كرزاي. والأمريكيون؟ نعم، تدريبهم جيّد فعلاً، على العكس من تدريب الألمان. الألمان، لعلك تعلم ـ هنا أخذ الكولونيل موس يبتسم ـ تعلم بأن الألمان دقيقون جداً، وهذا شيء حسن في الواقع، وأحترمه. لكن المرء لا يدرب هنا مفوضين للخدمة في الدرجات الوسطى في إدارة مدينة أوروبية كبيرة. وقد يكون تدريب الأمريكيين سطحياً نوعاً ما، ولا بد من إيجاد أسلوب وسطيّ.

جميل جداً، لكنّ هناك تناقض بين عملية الحرية الدائمة (Enduring Freedom) وقوات حفظ السلام إيساف، أي بين الحرب الأمريكية على الإرهاب وإعادة البناء؟ نعم، هذا سؤال جيّد. والجنوب؟ ما الذي حلّ بالجنوب الذي يشهد معارك وقع فيها الكثير من الضحايا المدنيين، حيث بلغ عدد القتلى أربعة آلاف في الشهور العشرة أو الإثني عشر الأخيرة؟ وما هو سبب بقاء حركة طالبان قويةً بعد خمس سنوات من الحرب؟ فأجاب الجنرال نوغي بأن هناك بالتأكيد أسباباً لعودة التأييد الواسع لحركة طالبان في جنوب

أفغانستان، وذلك بعدما تسلّمت إيساف القيادة من قوات الحرية الدائمة.

وأيّ أسباب هذه؟

عندما تسلمنا القيادة من الأمريكيين فوجئنا بالوضع الذي وجدناه أمامنا. فالأمريكيون لديهم مواقع محصّنة يطاردون الإرهابيين من خلالها. بينما يتوجب علينا أن نظهر على السطح لكي نطوّر البلد. لكن لماذا لم يتمّ القيام بعمل تنمويّ خلال السنوات الخمس الماضية؟ مهمّة الأمريكيين في الجنوب كانت مختلفة، إذ لم تكن إعادة بناء البلد تحتل الصدارة، بل محاربة العدو. وعندما شرعنا، نحن في إيساف، في عملية بناء البلد لاحظنا بأن الأمن لم يكن متوفراً. فقد كنّا نُهاجم دون أن نكون مستعدين لذلك. فكان العدو في كلّ مكان. وصرنا نواجه صعوبات، وكان هناك الكثير من الضحايا المدنيين، وباتت خسائرنا جسيمة. كانت هذه أخبار الصيف، أي أخبار المعارك والحروب عندما بدأ المرء يتحدث في الغرب عن (عرقنة) أفغانستان. لكننا كسبنا المعركة، وتقهقرت طالبان. ومنذ شهر تشرين الأول/أكتوبر بدأ عدد القتلى يتضاءل وأصبح الوضع هادئاً. فنحن نحاول إقناع منظمات المساعدة الإنسانية بممارسة العمل أخيراً في منطقة الجنوب. فنبدأ بالمناطق التي يتوفر فيها الأمن، ثمّ نوسعها شيئاً فشيئاً. فقد أدرك حلف الأطلسي بأن عليه القيام بالمزيد من العمل من أجل إعادة البناء. وعلينا أن نبرهن للأفغان بأن وضعهم سيكون أفضل من دون طالبان. وهذه الاستراتيجية هي أفضل من الحرب.

وسأل الزائر فيما إذا كانت المشكلة تكمن في بنية إعادة الإعمار نفسها، أي أن القسم الأعظم من المعونات المالية لم يصل إلى الأفغان. فأجاب الجنرال بنعم. وكيف هو الأمر مع الشركات التي تكلّف من قبل الأمريكيين بمهمات إعادة البناء فتحقق أرباحاً خيالية، وقد كلّفت تواً بهذه المهمة من قبل الأمريكيين؟

ثمّ ألا يتناقض هذا العدد الكبير من الضحايا المدنيين مع هدف القوّات الأجنبية في الاستحواذ على قلوب الأفغان وعقولهم؟ فقال الجنرال نوغي بأن مقتل أيّ مدني يعني مئة عدو جديد، وتابع في شيء من الانفعال: نحن نرتكب أخطاء. ونعلم تماماً بأن أفغانستان لا يمكن كسبها عسكرياً. فنحن لا نحتاج بالضرورة إلى المزيد من الموارد للقوّات المسلحة، بل للمشاريع المدنية. والأمن هو شرط أساسيّ لإعادة البناء. والسؤال المشروع هو لماذا لم نستثمر إلا القليل في إعادة الإعمار عندما كنّا نواجه وضعاً أمنياً هادئاً تقريباً في جنوب البلاد؟ لكن كيف سيكون وضع أفغانستان لو لم تشنّ الحرب على العراق؟ هنا زفر الكولونيل موس بحسرة، وقال فيما إذا كانت الحرب على العراق صحيحة، فذلك موضوع آخر. لكن ما يتعلق بأفغانستان يمكنني القول بأنّنا كنّا قادرين بالطبع على تحقيق تقدم. لا أستطيع أن أحدد حجم هذا التقدم، لكننا كنّا سنحرز تقدماً ما. ثمّ إننا هنا لسنا في العراق، وهذه الحرب يمكن كسبها. قلقنا الأكبر هو أن يحدث شيء ما يجذب إليه اهتمام الأسرة الدولية، فيتم نسيان أفغانستان.

اللقاء دام أكثر مما كان مخططاً له، لكن الحديث معكما كان ممتعاً للغاية. ربما نلتقي أثناء العشاء في نادي الضبّاط.

الزائر كان ضيفاً على الناتو الذي يتولى قيادة قوات الحماية الدولية في أفغانستان والتي يبلغ قوامها في الوقت الحاضر ٣٢٥٠٠ جندي. فكان ينظر إلى البلد عبر منظور الناتو. وهذا أمر جديد بالنسبة للزائر، رغم أن ذلك لا يُذكر عادةً. فأفغانستان ليست العراق. فهنا يمكن السفر بالطائرات المدنية، ويمكن أن يتنقّل الزائر الأجنبي بحريّة في أنحاء واسعة من البلد. فالوضع الأمني ليس سيئاً لحسن الحظ، بحيث أنّ الشخص المدنيّ يضطر إلى ارتداء ملابس واقية مثل بدلة رائد الفضاء، فيشعر بثقلها من الداخل. بيد أن كلّ من يرغب في ملاحظة تغيّر طبيعة النشاط العسكري للعالم الغربي بعد إنهيار الاتحاد السوفيتي فعليه أن لا يكتفي بالمراقبة الخارجية للمصفحات التي يجتاح بها الغرب العديد من البلدان، ليفرض عليها نظامه أو يعيده من جديد.

عبارة إيساف مطبوعة على بدلات الجنود، بما في ذلك العبارة المكتوبة بالحرف العربي وفي لغة الداري المحليّة والتي تقول "كومك و همكاري"، أي "الدعم والتعاون". ومن يسير إلى جانب الناتو في أفغانستان يحقّ له أن ينتقد خطة الناتو الرامية إلى اعتبار المساعدات الإنسانية جزءاً من الاستراتيجية العسكرية الهادفة إلى توفير محيط آمن وتجميع المعلومات. فالزائر لم يعد يثق بالاستخدام الفائض عن الحاجة لكلمة «إنسانية» التي تصل إلى حدّ «القنابل الإنسانية» التي رآها ناطق باسم الناتو تسقط على إقليم كوسوفو.

بيد أن هناك تفهماً، بل إعجاباً على المستوى الشخصي، لم يتخيله الزائر قبل رحلته. فهو لم يجر فقط المقابلات الرسمية وما يسمى بالاستجوابات، إنما أمضى معظم الوقت مراقباً في الطائرات الحربية والمصفحات والحوانيت والبارات المؤقتة ومرافقاً للجنود في دورياتهم وفي الخيام وقاعات الانتظار، بل الانتظار بحدّ ذاته: فمرافقة العسكر تعلّم المرء الصبر أكثر من أيّ رياضة للتأمل. ولن يستطيع المرء التعرّف على الجنوب إلا بعد أن ينتظر معهم ساعات أو أياماً.

فثمة جنود يتطابق سلوكهم مع النظرة النمطية على شاكلة أفلام «رامبو»، إلا أنّ الزائر لم يلتق بهكذا جنود، بل بشباب ألمان يدركون مهمتهم الشخصية بوضوح وهي

مساعدة الناس في أفغانستان، ويصفون هذه المهمة بدقة أكثر بكثير من أي فيلم دعائيّ للجيش الألمانيّ. فهو لم يلتق بضابط يتوجب عليه أن يشرح له بأنّ كسب قلوب السكّان وعواطفهم لا يتمّ عبر قصف الناس بالقنابل. بل على العكس من ذلك، فهو يسمع في كلّ مكان انتقادات توجه للأمريكيين الذين يتحركون في فراغ قانوني عبر عملية الحرية الدائمة وحملات التفتيش التي يقومون بها. فعمليات القصف والاعتقال التعسّفي تضرّ بسمعة قوّات إيساف وتهدد أمنهم. غير أن الأمريكيين يؤكدون في أحاديثهم بأنهم لا يسعون إلا لمساعدة الناس.

الملازم الأوّل ويبر قال إنّه عندما أرسل للمرّة الأولى إلى أفغانستان أعتقد بأنه جاء لتنفيذ عملية عسكرية، لكنه لاحظ بعد فترة قصيرة بأن الهدف المدني كان أهمّ من ذلك. فنجاح المهمة وإخفاقها مرتبطان بالعمل الإنساني. وهذا هو سبب عودته الثانية إلى أفغانستان، حيث يغمره شعور بالرضا حين يرى أنّه يقدم مساعدة ملموسة، إذ أنّ من البديهي أن يساعد المرء الناس بدلاً من محاربتهم.

ملامح الملازم ويبر لا توحي بالوحشية، فهو ناصع البشرة وتتخلل وجهه عروق دقيقة حمراء، والابتسامة الجذلة لاتفارق شفتيه اللتين يعلوهما شارب أشقر، وبعدما خلع خوذته ووضع على رأسه قبعة متدلية الإطار، روى للزائر عينين برقتا بغتةً عن القرى الأفغانية التي قدمت لها وحدته لعسكرية مساعدة طبيّة، وعن اللقاءات مع وجهاء القرى والنساء والأطفال الذين كانوا يضحكون. بيد أنّه تحدث عن حد الملالي شنقه أنصار طالبان بعد أيام قليلة من زيارتهم قريته. وبعد ذلك لم تعد نساء القرية يأتين للمعالجة لدى طباء الوحدة. فاعترض الزائر بالقول إنّ المواطنين الأفغان نظرون إلى تصرّف الأمريكيين نظرة تزداد سلبيةً على لدوام، وسأل الملازم ويبر فيما إذا كان يتفهّم استياءهم. ردّ الملازم بالإيجاب، وقال "إننا نسرع دائما إذا ما تحركنا سيّارتنا ونقودها بلامبالاة. ولو كنت أفغانياً لغضبت من ذا التصرّف". فأوضح الزائر بأنّه لم يقصد قواعد السير، ل العدد الكبير من الضحايا المدنيين، وهل يشعره ذلك تأنيب الضمير.

كابوس المرعب الذي يخيفني هو أن يصوب عليّ طفل لعبة مسدس، ومع ذلك لا أعتقد بأنني سأطلق عليه رصاص. لكن الزائر تعرّض إلى عمليات القصف لجويّ، لأن قصف قرية من الجوّ مختلف تماماً عن مواجهة شخص يصوبّ سلاحه نحو هدف ما. ثمّ إنّ سلاح الجوّ لأمريكي قام بـ ٢٠٩٥ غارة جويّة من حزيران إلى أيلول ٢٠٠، أكثر بكثير ما كان سابقاً. ومقارنة بالعراق فقد نّ سلاح الجو هناك ٨٨ غارة جويّة في الفترة نفسها. قال الملازم: "صدقني أنّ كلّ غارة هي قرار معقد للغاية." لكن ما هو موقفك عندما يتضح بأنّ هذا القرار كان خاطئاً؟ فأجاب الملازم: "لا أعلم كيف يمكن للمرء أن يبرر ذلك." بيد أنّه أضاف بعد صمت قصير مبرراً الهجمات الجوية بضرورة الدفاع عن النفس عندما يتعرض المرء إلى هجوم: "فأنا أعلم بصفتي جندياً بأن هناك مواقف قد تخذلني بها وحدتي عندما تعلم بأن إنقاذي يشكّل عليها خطراً. وهناك مواقف يُضحي فيها بحياة بعض الأفراد لإنقاذ الكثيرين".

الزائر ودّع الضبّاط الذين رافقوه في رحلته واستقل سيارة أجرة من الشارع الذي يمرّ أمام مقر قوات حفظ النظام. كان عليه أن يتحرر من الحكايات الشخصية للجنود، فهو يصدق نواياهم الطيّبة، لكنه يريد أن يفهم لماذا لا تسير الأمور في صورة جيّدة.

حياة عادية مقفرة، كان هذا هو الانطباع الأوّل الذي تولّد لديه: اختناق في حركة السير وأنقاض وغرف من الإسمنت بدل المنازل، والفقر. فلا أشجار هناك ولا مقاه ولا من يضحك. الوحيدون الواقفون على حافة الشوارع هم من المعوقين أو الأطفال المدمنين على شم المواد اللاصقة المخدرة. غير أن هناك الكثير من النساء يقفن في الشوارع بلا نقاب وتلاميذ مدارس وفتيات وفتيات صغار. وكان التلاميذ يضحكون في الواقع! وعلى المرء أن يتطلع إليهم لئلا يصاب بالكآبة والإحباط. وكلّ من قرأ في كتب الرحلات عن كابول قبل خمسة قرون أو خمسين أو حتى عشرين عاما فإنه سوف لا يسعد اليوم بمنظرها. فكابول كانت جنّةً في الماضي، حيث كان المرء يرى أشجار العنب والرمان والمشمش والسفرجل والتفّاح والكمثرى والخوخ واللوز، مثلما سجّل القيصر بابور في مذكراته ١٥٠١. فأريج الهند كلّها التي غزاها لم يضاه أريج أصناف الخزامى البرية الثلاثمئة التي كانت تزهو بها كابول. والجوز كان وافراً وكذلك النبيذ. وحتى نيكولاس بوفير السويسري وجد منظر كابول التي زارها عام ١٩٥٤ يطابق «صورة المدينة الفاتنة» التي رسمها بابور. وثمة كتاب إرشاد سياحي من عام ١٩٧٤ يعد الزائر "بمشاهد فريدة لا يقدمها أيّ بلد آخر بهذا الغنى". فالشوارع المعبدة جيّداً وشبكة الملاحة الجوية الكثيفة تسهّل التنقّل داخل البلد. بينما وصف كتاب السياحة الحاضر آنذاك ممثلاً بمباني الإسمنت والمرمر الحديثة وواجهات الزجاج، وشكا الكتاب السياحي من أن كابول تحولت إلى قبلة لمدمني المخدرات الذين يضرّون بسمعة الأوروبيين ضرراً بالغاً. ولم يعد «الهيبيز» يمثلون اليوم مشكلة في أفغانستان. بل العكس من ذلك، إذ أنّ أفغانستان هي التي أصبحت تصدّر مشاكلها إلى الخارج. فقد لاحظ خبراء الأمم المتحدة بأنّ زراعة الخشخاش لم تبلغ قطّ هذا المستوى الذي وصلته الآن تحت مرأى الدول

الغربية وبعد خمس سنوات من سقوط نظام طالبان. إذ أن ٩٢ في المئة من الأفيون على صعيد العالم قادم من هنا. والانتعاش الاقتصادي الذي تشهدة البلاد يعود جزء ضئيل منه إلى إعادة الإعمار. في حين تمّ تمويل الجزء الأعظم من المنازل الفخمة والمكاتب والمراكز التجارية الموجودة في كابول من تجارة المخدرات. ويعتبر الجنرال داوود المسؤول عن محاربة المخدرات في أفغانستان أكبر تاجر للمخدرات في البلد.

الزائر رافق الكاتب الشاب مسعود حسن زاده الذي يعمل مراسلاً لإذاعة «صوت أمريكا» إلى مبنى البرلمان، حيث أجرى حسن زاده مقابلة مع رجل الدين الشيعي أحمد عليّ جبرائيليّ، ممثل مدينته هرات في البرلمان، والذي يحسب حالياً على ما يسمّى «بكتلة الإصلاحيين». فهو يطالب ببناء دولة القانون وحماية الأقلّيات. لكنه لا يطالب بتغيير الدستور، بل بتطبيقه. فخاطب رجل الدين الكاتب حسن زاده وهو ينظر إليه بألم: "في الوقت الذي أتحدث فيه أليك تنظّم ٨٠ في المئة من شؤون الدولة حسب العلاقات الشخصية وليس حسب القانون". كما أن أفغانستان دولة إسلامية، لكنها لا تسير وفق النموذج الثيوقراطي المعمول به في إيران. ورداً على سؤال حول هل أنّ البرلمان يمثّل الشعب الأفغاني قال جبرائيليّ إنّ الانتخابات لم تجر بصورة سليمة تماماً، لكن النتيجة جاءت مطابقة مبدئياً لإرادة الشعب. وأضاف لكي يفنّد اتهامات طالبان: "نحن ندافع عن أنفسنا ضد النقد التعميمي الموجه للبرلمان. ولن يستفيد من تخريب البرلمان إلا أعداء أفغانستان داخل البلاد وخارجها".

وما قاله رجل الدين يبدو معقولاً. بيد أن الزائر لم يسمع شيئاً عن الموقع الذي تحتله «كتلة الإصلاحيين»، فهل هي تقف في المعسكر القومي أم في صفوف المعارضة أم إلى جانب الحكومة؟ فقال الكاتب مسعود حسن زاده، لا عجب في ذلك، لأن الكتل النيابية تردد الشيء ذاته. فكلها تقف إلى جانب الإصلاحات: التكنوقراطيون الذي يشكلون الحكومة و «الديمقراطيون» الذين تكوّنوا من الشيوعيين السابقين وقدماء الإسلاميين الذين همّ أول من اطلق على نفسه لقب الإصلاحيين. فقد أجرى يوم الأمس مقابلة مع شيوعي سابق جاء كلامه مطابقاً لكلام للإسلاميين: أيّ أنه تحدث عن دولة القانون ومحاربة الفساد وضد سياسة المحسوبية والمحاباة ومن أجل الديمقراطية. لكن إسلامياً عتيقاً مثل جبرائيليّ لن يتعاون أبداً مع شيوعيّ سابق، ليس لأنه يحمل وجهة نظر مغايرة، إنما لأنه ينتمي إلى معسكر آخر. فليس هناك من يهتم بالمحتوى. الزائر سأل حسن زاده فيما إذا كانت هذه الصعوبات داخل البرلمان طبيعية ومفهومة بعد ثلاثين عاماً تقريباً من الحرب. فأعطى حسن زاده الزائر حقّاً من حيث المبدأ. لكنه أخذ يتحدث عن مجرميّ الحرب الذين يمثلون أمام المحكمة في أيّ بلد آخر، لكنهم في أفغانستان يجلسون في البرلمان، ويجيبون عن الأسئلة المتعلقة بمسؤوليتهم عن آلاف القتلى بأنّ المرء لم يوزّع الحلوى في الحرب. فسأل الزائر من جديد، ألا يعتبر رفع شعار الديمقراطية تقدماً بحد ذاته؟ فهذا الأمر يكشف حقيقة أفغانستان الآن حيث يتحدث الجميع فجأةً عن السلام وحقوق الإنسان ليكسبوا الانتخابات، فربما تغيّر الشعارات السياسةَ على المدى البعيد؟ فأجاب حسن زاده بأن هذا الأمر ممكن، لكن على المدى البعيد جداً. وهل هناك إذن إمكانية أخرى؟ كلا! فإمّا أن تستمر هذه الحكومة الفاسدة بفضل دعم الغرب، أو أن تعود الحرب ومعها حركة طالبان.

ذهب الزائر إلى فريد الذي يعمل محرر محاضر في البرلمان الأفغاني، لكنه يحصل على قوته بدرجة رئيسية من محل لغسل الملابس. وبدا من الصعب العثور على المحل الذي يقع في الحيّ السوفيتي من كابول حيث تقيم بقية الطبقة الوسطى في المباني الجاهزة، إذ ليس هناك إنارة: ولا توجد أعمدة كهرباء ولا إعلانات ضوئية، بل ليس هناك إنارة حتى داخل المنازل، إنما بضعة مصابيح متفرقة تتوهج هنا وهناك، وما عدا ذلك لا يرى المرء إلا مصابيح السيارات التي يسير القليل منها في هذا الوقت، أي التاسعة مساءً: فإلى أين ستذهب هذه السيارات طالما انعدمت الكهرباء والحياة العامة! فالكهرباء متوفرة في مدينة كابول المليونية فقط لمدة ثلاث أو أربع ساعات يومياً وذلك بعد خمس سنوات من سقوط طالبان، وعملية تزويد السكّان بمياه الشرب سيئة للغاية والمجاري تشبه المراحيض المكشوفة. وكثيراً ما سمع الزائر جنرالات الناتو يقولون إنّ نجاح مهتمهم وإخفاقها أمر لاتحسمه ساحة المعركة، إنما العمل في الميدان الإنساني. إذن اسعدتم مساءً أيّها السادة! هكذا فكّر الزائر وهو يسير في سيارة الأجرة عبر شوارع كابول الخاوية المليئة بالحفر، حيث تتجاوزه المركبات السريعة التي تحمل ركاباً غربيين، ماراً بمدن الخيام العملاقة المظلمة التي تأوي اللاجئين للسنة الخامسة، وبالمطاعم الفرنسية والفيلات الحديثة التي يقيم فيها الأجانب وأغنياء أفغانستان الجدد والمزودة بالكهرباء والمياه الساخنة التي تجود بها المنشآت الخاصة، وباطباق الأقمار الاصطناعية التي تربطهم بالعالم الخارجي ليلاً ونهاراً.

فكرة بناء الأمّة فكرة ممتازة بحدّ ذاتها. لكنّها تعني عملياً أنّ إعادة الإعمار ينعش اقتصاد الدول المانحة فحسب. فالولايات المتحدة الأمريكية تمنح عقوداً كبيرة للشركات الأمريكية مثل «هاليبورتن» و «بيرغر» و «كيلوغ»، التي لم

تحصل على هذه العقود عبر عروض مناسبة، إنما بفضل رجال اللوبي والعلاقات الشخصية الوثيقة وتمويل الحملات الانتخابية بالتبرعات المجزية. ومن ناحيتها تساهم الشركات الكبرى بتكليف الشركات التابعة التي تكلّف بدورها هي أيضاً شركات صغيرة أخرى. وهكذا يتوزّع معظم المال بين الشركات باعتباره ربحاً.

وحتى الأموال التي تصل أفغانستان فعلاً يصب القسم الأكبر منها في اقتصاديات الدول المانحة. فالطعام والإدارة والمعماريون والمعدات وأماكن الإقامة والحراس، بل حتى مواد البناء والعمال أيضا، ذلك كلّه يُجلب بالطائرات من الخارج، وكذلك الحال مع المواد الغذائية والأجهزة اللازمة لتوفير الراحة بالطبع مثل التلفزيون وأجهزة التكييف والسيارات المصفحة ومولّدات الكهرباء. فشركة دينكورب المكلفة بتدريب الشرطة تمتلك وحدها أسطولاً كاملاً من عابرات البراري في أفغانستان يضم ٣٠٠ مركبة، كلّ واحدة منها بقيمة ١٥٠ ألف دولار. وكل مستشار أجنبي يكلف دافعي الضرائب في بلده مبلغاً يبلغ معدله نصف مليون دولار حسب تقديرات نيويورك تايمز: منها ١٥٠ ألفا تعطى أجورا له والبقية تنفق على حمايته وعلى تكاليف معيشته وتحتفظ شركته بالفائض. فالماء المستورد الذي يشربه يبلغ سعره يوميا ثلاثة دولارت أكثر مما يتقاضى طبيب أفغاني.

لقد تحوّل مشروع بناء الأمّة إلى قطاع صناعي، وإلى منجم ذهب ينسجم مع عقلية المنقبين عن الذهب بمعنى: إذهب إلى ذلك البلد وحقق ربحاً خاليا من الضرائب ثمّ قل لهم وداعاً. والنتيجة هي مستشفيات في مناطق عديدة لم يبق منها سوى الواجهة سليمةً بعد اليوم الأوّل من افتتاحها، إذ أنها سرعان ما تنهار حالما تهطل الثلوج، وطرق سريعة تستحيل إلى حصى بعد أسابيع قليلة من حفل افتتاحها، ونظام زراعي مصنّع لا يعرف الكثير من الفلاحين كيفية التعامل معه ولم يجر تدريبهم عليه، بحيث أنهم صاروا يقفون عاجزين أمامه في نهاية المطاف. والنتيجة هي بعض المشاريع الناجحة بهذا القدر أو ذاك إلى جانب الطامعين بالأرباح، وكذلك الكثير من الأفغان والأجانب الذين يبذلون جهداً يومياً مرهقاً بغية إنجاز مشروع إعادة البناء، مقابل الخلل الكبير في البنى التحتية. والنتيحة هي أن الكهرباء كانت متوفرة في زمن طالبان ولم تعد كذلك في ظلّ الأمريكيين.

أخيراً عثر الزائر على رقم الدار، فنقر زجاجة النافذة، وفعلاً فتح فريد باب محله، حاملاً فانوس نفط في يده. ثمّ جلب قنينة كوكا كولا من دكّان أبيه المجاور. وكان الزائر يفضّل الشاي الذي هو أقل ثمناً، بيد أن تحضير الشاي يحتاج في الحقيقة إلى كهرباء. فكيف تغسل الثياب يا فريد والكهرباء لا تأتي إلا ثلاث ساعات في اليوم؟ فقال فريد إنّ الدكان مفتوح طوال اليوم، وعليّ أن أسرع في غسل الثياب كلّها خلال ثلاث ساعات. أحياناً ينقطع التيّار كليّاً فيتراكم الغسيل. الزائر سأل فريد عن عمله في البرلمان. فقال إنّه عمل ممتع.

فريد درس العلوم السياسية في جامعة كابول حيث يعمل اليوم مستشارون أمريكيون. قال فريد إنّ الدراسة كانت جيّدة وقد استفادوا كثيراً من هؤلاء المستشارين. فسأله الزائر عن البرلمان، وهل يخاض فيه نقاش جديّ أم أنّه يعطي مجرد صبغة ديمقراطية؟ ففكر فريد قليلاً ثم قال كلا، بل يخاض فيه نقاش جدّي، وليس مجرد استعراض. فهناك أعضاء نزيهون ويعملون لمصلحة أفغانستان إلى جانب الأعضاء الفاسدين. هذا يعني أنكّ مسرور عموماً برحيل طالبان. هنا حدّق فريد في الزائر ووضع يده أسفل صدره. بيد أن الزائر لم يفهم هذه الإشارة. فقال فريد إنّ لحيتي كانت طويلة إلى هذا الحدّ، فهل تتخيل ذلك؟

فتطلع الزائر إلى الجالسين، حيث اجتمع أقرباء فريد من الرجال: أبوه وشقيقه الأكبر وإثنان من أبناء العم. فوضعوا كلّهم أيديهم على صدورهم كما لو أن إشارة صدرت بذلك، ثمّ ضحكوا مع فريد. بلا شكّ أنّ الزائر يعرف قصّة اللحى الطويلة حدّ الصدر المفروضة على على كلّ رجل في زمن طالبان، إلا أنّه عندما تأمل الجمع المحيط به، أي هؤلاء الرجال الحليقيّ اللحى، أدرك معنى الإشارة. وبدا له الرجال بتلافيعهم ومعاطفهم وقبعاتهم الأفغانية التي يرتدونها في المنازل شتاءً وكأنهم فرقة من متسلقيّ الجبال الذين اجتمعوا في خيمة جبلية بعد عملية تسلّق شاقة. ثم عدد فريد العقوبات التي فرضتها طالبان: أي عدد أيام السجن المخصصة لسماع الموسيقى وكم جلدة بالسوط يتلقاها كلّ من يحلق لحيته، وعدد الإعدامات بسبب ممارسة الجنس قبل الزواج.

وفي الأخير سأل الزائر فريد عن الثقب في واجهة المحل والذي غطيّ بالبلاستيك مؤقتاً، فقال إنّ لصاً دخل المحل قبل أيّام. ففي زمن طالبان كان يترك المحلّ مفتوحاً في الليل، فلم يتعرض قطّ للسرقة. والآن ليس هناك حتى من يقدم له شكوى.

وماذا تفعل الشرطة؟

هنا بدأ الجمع يضحك من جديد.

ترجمة: *حسين الموزاني*

نويد كرماني: كاتب وباحث في العلوم الإسلامية. يقيم في مدينة كولونيا. للمزيد: www.navidkermani.de

Tahseen Yaqin تحسين يقين

من فلسطين إلى ألمانيا

معنى الحياة و.. البط!

شكرا للكاتب أكرم مسلم، وللمركز الثقافي الألماني ـ الفرنسي، ولدورية المنارة على منحي الدفء بما يحررني من الجلوس لأصطلي في يوم بارد، وبما يطلق أطرافي من تقلصها، وبما يثير ذكرياتي البعيدة في فصول أخرى في بلاد قريبة وبعيدة..

ها أنذا أرحل إلى البلاد التي مررت منها ذات يوم!

مدن في مصر وتركيا وسويسرا.. وفي القدس أيضا!

نقرأ كي نحس بالدفء! لكن كيف سيعيش نصي هذا في فصل الحر؟

صحيح أن الثلوج لم تكس قريتي الصغيرة بيت دقو التي تحتضنها جبال القدس لأنها ليس مرتفعة بما يمكنها استقبال الثلج، إلا أن الجو بارد، تحت الصفر أو عند علامته!

حظ نفشات الثلج ليس حسنا لتتكاثف، فما أن تحط فراشة الثلج البيضاء حتى يزيل قطنها المطر، أو لعل الماء على الأرض ما يلبث أن يزيل الثلج النازل من السماء!

الثلج الأبيض الذي يسطع من جبال بدو والقبيبة يفرحني، يبشرني بقرب الأبيض إلينا هنا، لكن لنسعد بالبياض من بعيد، ليس بعيدا جدا.

أطلت بطات أكرم مسلم من مجلة المنارة، في تقرير حول استضافة المركز الثقافي الفرنسي الألماني لمسلم، بعد أن شارك ضمن ١٤ كاتبا في المشروع الأدبي الألماني ـ الفلسطيني «مداد»، الذي بادر إليه معهد غوته، من أجل الارتقاء بالتبادل الثقافي بين ألمانيا والعالم العربي، هو مشروع أدبي على الإنترنت، يقوم على دعوة مؤلفين من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلى مدن ألمانية كبيرة، وفي المقابل يتم إرسال كتاب ألمان في إطار برنامج للمكوث في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لجمع انطباعاتهم وتجاربهم وأفكارهم حول هذه المدينة أو تلك على الإنترنت. وعلى خلفية هذه التجارب المعاشة ظهر كتاب «مداد: مشروع رواة المدن الألماني العربي» والذي قدّم خلال معرض فرانكفورت للكتاب في العام ٢٠٠٧.

مكتوب في المجلة أن هذا المشروع هو على غرار «رواة المدينة» أو كاتب المدينة، وهو تقليد تمتد جذوره في ألمانيا إلى القرون الوسطى!

كان حظ البطات البيض الهامبورغيات ذاك الصباح أو ذاك الظهر حسنا، حتى يكتب عنهن الكاتب القادم من بلاد بعيدة ينشغل أهلها بتأمين طرقهم اليومية إلى البيوت!

بطة تعوم في بحيرة داخل حديقة عامة، لا يعتبر شيئا غير مألوف لمن قطن مدينة هامبورغ، لكن بالطبع ليس الأمر كذلك لأكرم مسلم "لا تكف البطة الصغيرة عن السباحة، ما الذي تبحث عنه يا ترى؟ أسأل نفسي، عن الزاد والزوادة؟ أم عما إذا كان للحياة معنى؟" هي من انطباعات أكرم عن هامبورغ العظيمة. علقت في ذهنه.. كما علق شيء ما في ذهن الكاتب الألماني عن فلسطين، عن رام الله مثلا! ثمة تساؤل عن وجه المفارقة بين الحياة والكتابة هنا وهناك.. نقرأ لنحس بالألفة والسعادة واستعادة الشعور..

ربما جاء وقتي كي أترك بطة أكرم الهامبورغية كي أروي عن بطاتي، فكل بما وهب من بطات!

بطاتي من جنس الطير، ومن أجناس أخرى لكن الطير كان أكثر..

ربما يحسن بدئي ببطات قريبات من بطة أكرم مسلم، هن لسن ألمانيات، لكنهن أوروبيات، ومن سويسرا، ومن بحيرة جنيفا بالتحديد!

كان يوما صيفيا، من تموز عام ١٩٩٧، حين زرنا المقر الأوروبي للأمم المتحدة في مدينة جنيف، حيث كان حظي كبيرا أن سنحت لي فرصة زيارة سويسرا التي ربما كان خيالي متواضعا جدا لا يجرؤ على تخيل زيارتها.

كان مبرر الزيارة المشاركة في دورة عن حقوق الإنسان في التعليم، وكانت مكثفة، لدرجة أن تكثيفها استفز موظفة الأمن الإسرائيلية في مطار جنيف في طريق العودة، حين كانت تلح في أسئلتها عن الأماكن التي ذهبنا إليها، ولما أخبرتها أن الدورة كانت في نزل قديم بعيد عن جنيف ١٢ كيلو متر، وأريتها البرنامج حتى تعتقني من كل هذه الأسئلة، والتي لم ينل منها أي راكب آخر من المسافرين، حيث أنني تحملت وزر الآخرين فحملت عنهم آلامهم التي كانوا من المتوقع أن يتعرضوا لها، وبالطبع لم أكن الفلسطيني الأول والأخير الذي يتحمل عن الآخرين مشاق أسئلة رجال الأمن في بلاد الله الواسعة. أستثني موظف الأمن السويسري الذي ابتسم داعيا لنا رحلة سعيدة، ربما لم يكن يدري أن هناك من سيثقل كاهلي بالأسئلة نيابة عنه بما هو مبالغ به حتى السخرية وحد القهر!

هل تنقلت في جنيف؟

كررت: لم يكن هناك وقت، فالدورة مكثفة.

قالت وهي تقرأ البرنامج بتأن مشيرة إلى يوم زيارة الأمم المتحدة بعد ظهر هذا اليوم:

لم يكن لديكم نشاط بعد الظهر، فماذا فعلتم في جنيف؟

- تمشينا في المدينة..

- أين؟

- عند البحيرة..

استعادة حواري معها، والذي هو تحقيق أمني ممل ساخر، لا يسعدني، رغم أدبها الظاهر.. لكنه أسعدني حين أعادت لي مشهد البحيرة، ونافورتها العالية وعمرانها القديم المميز وحدائقها الغناء المرسومة بالزهر والورود.. وبطات البحيرة!

حين انطلقنا صباحا، جيء لنا بطعام، مكون من جبن ومربى وبيض وماء وخبز، ليكون بديلا عن وجبة غداء اليوم، وبعد أن تجولنا في المقر الأوروبي للأمم المتحدة، وزرنا الصليب الأحمر، وشاهدنا رسائل الجنود إلى أهلهم من عقود، وشيئا عن الحرب والسلام، وعن فلسطين، ووكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، وكيف تم سلخها عن بنية الأمم المتحدة العام لتأخذ شكلا خاصا يوحي ببطول حل هذه القضية، وإبقائها مجرد قضية إنسانية! طحين وسردين.. أمر جيد.

انتهينا من الزيارة، وجلسنا تحت الشجر المقابل نأكل طعامنا، ولما كنت إنسانا شرقيا فقد آلمني منظر الخبز الذي سيلقى إلى سلال المهملات.. فأنقذته في اللحظة الأخيرة، أنا الفلسطيني واللاجئ القادم من بلاد يتصدق العالم عليها بالطحين، فكيف أرمي هذا الخبز الجميل الرقيق الرائع؟!

سرنا والبحيرة، مررنا مقابل حديقة تعب مهندسها المعماري في تصميمها، وتعب النحاتون في نحت كل شيء. اقتربنا من البحيرة أكثر، ونافورة جنيف مقابلنا، البنايات المصنوعة، جمال المدينة يطل علينا من كل حدب وصوب، الهدوء الذي قد يوصل إلى الملل.. ثم ماذا؟! أنا وجنيف من وراء ظهري، وأمامي البحيرة، طبيعة صامتة لكنها تتكلم، أجمل مما صنعه الإنسان بكثير، سرت وعدد من الأصدقاء من فلسطين واليونان وإيطاليا.. لم نكن كثرا، كنت أحمل كيس الخبز، وكلما رآني أحد الزملاء حريصا على حمله أثناء تنقلنا لامني لأنني أتعبت نفسي!

اقتربت منا بطة أو بطتان، ببياضهما، ومنقاريهما العريضين وصوتهما يسبقهما، لم أجد نفسي إلا وأنا أتذكر المصرية التي كانت تطعم بطاتها الصغيرات أو كما يقول المصريون "تزلط البط" أسفل شقتنا حين كنا طلبة في مصر، أطل شارع دسوق، وبنايتنا وبلكوننا القبلي والمصرية كثيرة البياض خصوصا بياض الساقين على غير عادة ألوان المصريات!

وسبب تذكري تلك السيدة أننا هنا في فلسطين، أو في بيتي على الأقل لا نربي البط، كما يفعل المصريون..

"لأزلط البط" لكن ليس بيديّ، فهذا البط كبير وليس كفراخ البط ذلك..

بدأت بتقطيع الخبز وتدويره ورميه للبطتين الزائرتين شاطئ البحيرة، كرة خبز وراء أخرى، أو قطعة وراء قطعة، فسعدت البطتان وابتهجتا وازدادت حيويتهما وهما يتناولان طعام الخبز.. ثم تركتا الشاطئ.. ولم تمر سوى دقائق حتى قدمت بطات أخريات يسبحن نحونا، فالتهمن الخبز المرمي في الماء.. ثم تركت الشاطئ.

كتابات للصيف ..

أسفر الصبح فنشر الله رحمته

انصرف الرحالة المسلمون إلى وصف المواقع والأحوال والمشاهدات أكثر مما تحدثوا عن الرحلات نفسها وتفاصيلها كما فعل الغربيون. وكان أحد الذين توقفوا عن هول البحار العالية والغيوم الساقية والرياح العاتية، الأندلسي أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الذي ولد في بلنسية عام ١١٤٥ وعاش في غرناطة وعمل كاتم سر أميرها أبو سعيد بن بحر أمير الموعدين. وقد قام بن جبير بثلاث رحلات إلى الشرق الذي أحب، لكنه لم يدون سوى رحلته الأولى في «تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار» عام ١١٨٣م، وأما الرحلة الثانية فقام بها لما سمع بأخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في بيت المقدس، والثالثة لما توفيت زوجته التي أحبها حبا جما وأحزنه غيابها فجاء إلى مكة يصلي ويجاور. وبعد مكة سافر إلى الاسكندرية التي توفي فيها عام ١٢١٧، بعدما كان ترك من وصفها الكثير. وقد طاف في آثار مصر، ويقال انه هو الذي أطلق لقب «أبي الهول» على تمثال الصمت العظيم.

يبدأ ابن جبير بوصف خروجه من الأندلس "في يوم الجمعة من شوال قابلنا بر جزيرة وبعده قابلنا جزيرة منورقة (مايوركا) ومن سبتة إليها نحو ثمانية بحار والمجرى مئة ميل. وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة وقام معنا بر جزيرة سردانية (سردينيا) أول ليلة الثلاثاء، وهو الثامن من مارس، دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل. وبين الجزيرتين نحو الأربع مئة ميل فكان قطعا مستغربا في السرعة. وطرأ علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم، عصم الله منه بريح بريح (...) فأخرجنا عنه. وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة الثلاثاء فبقينا مترددين بسببه حول بر سردانية يوم الأربعاء بعده فأطلع الله علينا في حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء فلا نميز شرقا من غرب، مركبا للروم قصدنا حتى حاذانا، فسئل عن مقصده فأخبر أنه يريد صقلية وقد جاء من قرطاجنة، فأخذنا عند ذلك في اتباع أثره، والله الميسر لا رب سواه (...) وفي ليلة الأربعاء بعدها استشرت الريح والمطر عصوفا حتى لم يثبت معها شراع، فلجأ إلى استعمال الشرع الصغار. فأخذت الريح احدها ومزقته وكسرت الخشبة التي ترتبط الشرع فيها، فحينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء لله عز وجل. وأقمنا على هذه الحال النهار كله. جنّ الليل مترددين بين اليأس والرجاء صوب صقلية فلما أسفر الصبح نشر الله رحمته".

سمير عطا الله، الشرق الأوسط ٢٠٠٨/٨/١

قلت لصاحبي: "البط أفضل منا، لأنه حين يشبع يترك مائدة البحيرة تاركا المجال لبط آخر!"

أعجبته الملاحظة . . فذكرته بنصيحته بأن أرمي الخبز هناك مكان تناول الطعام تحت الشجر . . ها هو الخبز كان من نصيب بط جنيف!

قلت له مداعبا: هل يمكننا خطف بطتين؟

فقال ضاحكا: المهم ألا يرانا أحد!

فقلت ساخرا: سيقولون عربا إرهابيين اغتالوا البطات!

مررنا على الجسر، فتجادل زميلي حول ميلان البحيرة أو عدمه . .

قلت وقد مررنا بجانب شاطئ السباحة: أرونا ناس سويسرا، فأنا أزور البلاد الأوروبية أول مرة . . كان يوما تموزيا عام ١٩٩٧، دخلنا البلاج، وكان مليئا بالبطات . .

ـ وهذه البطات لمن؟

ضحكنا ثم نظرنا، فمللنا الصدور ثم رحنا جماعة العرب نضحك على عري الصدور . .

. . . .

البط يقود للبط

إسكندرية عام ١٩٩٢، كنا نزورها فنقيم فيها يوما أو يومين. قال هيثم: ماذا تريدون من طعام . . هنا سيدة مصرية تعمل عندنا ماهرة في طبخ البط . .

قال بلال: دكر بط! ونطق الذال دالا كما ينطق المصريون!

فضحكنا كونه طعام العريس في مصر . . مع الفراخ بالطبع!

وما أجمله من بط، دسم ومشبع، فعلا يلائم العريس!

كانت السيدة القروية دائما حين نمر من أمام بيتها تنادي على ابنتها: بطة . . هي يا بطة، وقد كنت أحسب أن اسم تلك الفتاة هو كذلك، ولم أعرف إلا فيما بعد . . مرور وقت طويل وبالصدفة، فقد كانت تدللها بناداتها ببطة . . ولربما عقدت نوعا من المشابهة بين البطة واستدارة ابنتها . .

لكن بطات إسكندرية أجمل من بطات مصر (القاهرة) . .

كنا نتمشى قليلا مع البطات رغم أنها ليست أرض نفوذنا نحن القادمين من القاهرة وطنطا في الدلتا . .

في طنطا (١٩٩٠ ـ ١٩٩٢)

كنت أقيم فيها قبل هذا الزمن بعامين . . ولم يكن للبط من وجود في ثقافتي، حتى كان يوما انتقلنا فيه للسكن في شقة في الطابق الرابع من شارع أبو فريخة . .

يوم وراء يوم وأسبوع وشهر . . بدأت أنا وطارق نألف المكان، البلكون القبلي (يشتهر المصريون بوجود بلكونين قبلي وبحري، أي جنوبي لزوم شمس الشتاء، وشمالي لزوم هواء الشمال البارد المنعش) يطل القبلي على مدرسة قاسم أمين الثانوية للبنات!

أما البحري فيطل على سطح بيت جارتنا التي كانت تربي الطيور والدواجن على سطح البيت، كانت صاحبة دجاج وحمام وبط . .

لم يكن الدجاج يثيرني كونه كان موجودا في بيتي القروية في بيت دقو ـ من قرى القدس، أما الحمام فكنت من عشاقه وأنا طفل، حيث اعتدنا تربية الحمام البري للجمال والصوت لا للطعام!

لكن لفت نظري من طول معاشرة الحمام المصري حيث كنت أقضي الساعات في الدراسة أو التسلية صيفا على البلكون البحري، عاداته في الحب والغزل، من مداعبة بالمنقار والأرجل والجناح والجسد والالتصاق، وكيف كان الذكر يعلو الأنثى، وكنت أستغرب كيف تحتمله وهو أكبر منها وأضخم . . كنت ألومها على تحمل الذكر الضخم . .

لكنها لم تكن تشكو . . بل تسعد بهذا الثقل!

كنت أقضي ساعة أو أكثر وأنا أتأمل مشهد الغرام . .

أما البط فكان شيئا آخر . .

كان كثير الطعام . . و . . كثير الحب، ما إن ينتهي من ممارسة حبه حتى يبدأ من جديد، ففهمت لم يفضله المصريون طعاما للعرسان! حتى أصبح جزءا لا يتجزأ من ثقافة العرس والصباحية . .

وعندما وصلت أنفلونزا الطيور إلى مصر، شكا المصريون من صعوبة الزواج من دون الفراخ ودكر البط!

كان ذكر البط يضحكني، فما أن ينتهي من بطته بعد اهتزازه وعضه البطة المسكينة بمنقارها يمسكها حتى لا تتحرك، حتى يقع على جانبه بدون حراك، كأنه مات، ويظل على هذا الوضع عدة دقائق!

ولم نكن نحن الطلبة تنقصنا الجرأة والضحك على دكر البط، حتى سخر منه صاحبنا مستنكرا ضرب المصريين به المثل، فقلت له: لكنه يقوم بذلك كثيرا . . انتظر وترى!

في الربيع، كانت السيدة المصرية تنتش ريش طيورها، ولا أدري لماذا؟ ومن بين المنتوش كان البط، لكنه أقل تألما من الدجاج الذي كان يفضح تلك السيدة عندما تنتشه من الذنب، وبما أننا قضينا هناك عامين، فقد كان سهلا عليّ في العام الأخير حين سمعت صراخ الطيور أن أعلم بمجيء موسم النتش!

في صيف طنطا، كنت أقرأ كثيرا، وحينما تزدحم الشقة بالأصدقاء، كنت أهرب إلى كازينو صغير، فيه حديقة، فيها بركة صغيرة، فيها بطات ماهرات في السباحة، وكن

كالدبابات البرمائيات، يعشن في البركة والحديقة .. وقد أمكنني التعرف على كيفية سباحة البط وكان ذلك بالنسبة لي مدهشا..

كنت أتساءل إن كانت بطات الكازينو مثل بطات جارتنا؟ وكثيرا ما خفت أن يتم سرقة البطات، كما سرقت دجاجات عم أحمد من فوق سطح شقتنا!

كانت سهيلة تأتي لمقابلتي هناك حيث اعتدت المطالعة، وفي مرة جاءت أختها، فأحبت أن تمازحني، فوضعت يديها على عيني، ولما كنت قد قابلت أروى هناك فقد نطقت اسما غير اسم أختها سهيلة، ثم اسما آخر، ولما علمت بأنني وقعت، رحت أسرد عدة أسماء لأدلل على براءتي وأن نطقي الاسمين كان من باب المزاح!

على شاطئ البوسفور رحت أبحث في اسطنبول عن بط أستمتع بسباحته وبياضه الثلجي، فلم أرى إلا طيور النورس وطيورا أخرى تأكل مخلفات السمك، فقد كان باعة السمك راضين عن طيور التنظيفات، وكانت تلك الطيور ذكية بمكان أنها لم تكن تأكل إلا مما سمح لها البشر أن تأكله!

حين زرت اسطنبول الآسيوية، سعدت بالعشاق الجالسين بين صخور الشاطئ، كان كل ذكر وبطته!

قلت وقد خلت الشواطئ من البط، البط يعيش في البرك والبحيرات!

لم أجد بطا هنا لأتحدث عنه، فلماذا إذن أحضر اسطنبول هنا؟

حضرت لأنني بحثت فيها عن البط!

القدس ١٩٧٦

رمضان شهر احتفالي، يزور فيه القرويون القدس يوم الجمعة لغاية الصلاة..

كنت صائما فرحا بصيامي..وكان السوق يراودني في ظل إلحاح والدي رحمه الله عليّ حتى أفطر، لأن صيام طفل في يوم صيفي مجهد!

لكن ما كان يصبرني ويذهب جوع المعدة المستفزة من رائحة الفلافل ومنظر الكعك والحلويات والمخللات هو مناظر القدس القديمة، من معمار وبيوت وبشر يتزاحمون وأصوات الباعة ورشاقة الأطفال المقدسيين الفقراء العاملين في البيع والنقل..

في السوق، وقفت قليلا ما أسعفني وقوف الكبار الذي يصطحبونني، وكانت وقفتنا مقابل بائع طيور أو ربما كانت بائعة، أو ربما كانا معا..

لم يثرني الدجاج ولا الحمام..بل البط!

لم أكن قد رأيته من قبل، فقط في الصور، وكم حلمت أن يكون عندنا بطة لأستمتع ببياضها الناصع، وأسعد بريشتها أتباهى بها أمام الطلاب، كي أضعها في كتاب، ثم لأسعد بابنتها الريشة الصغيرة التي ستولد بعد أيام كما كنا نتخيل!

كنت أرى أن البط هو للمنظر لا للطعام بالطبع!

فرحت بمنظر البط، بط، بط، بط، بط...رحت أكرر دون أن أرفع عيني عن البط..

لكن كان ما أحزنني أن البط لم يكن ناصع البياض كما أشتهي، بل مغبرا من رحلة الطريق وغبار السوق..وأحزنني أن يباع ويشترى كالدجاج!

....

جميلة هي بطتك يا أكرم مسلم، وجميلة هن بطاتي الطائرات والبشريات أحيانا..

جميل هو السلام

جميل هو البط.. والأبيض..

جميلة ألمانيا ..هامبورغ...وبرلين وبون وبلاد الله.. وبلادي..

حينما علمت بأمر هذا البرنامج قبل عام، ذكرت لمدير المركز الثقافي السيد فريد معجري رغبتي بالاشتراك بهكذا نشاط أحبه، وأخبرته أنني من بين الكتاب المهتمين بالكتابة عن البلاد والأماكن..فتخيلت نفسي هناك أكتب عن الألمان ومكانهم، لكنني لم أتخيل يوما أنني سأفرد نصا خاصا عن البط تكون بطة الكاتب أكرم مسلم التي تركها تسبح بهدوء وسلام في بحيرتها بهامبورغ هي مثير حبات الكيبورد كي تخط على الشاشة الصغيرة ما خططت...

فهل من معنى للحياة بعد هذا السرد لذكرياتي مع البط والمدن والأماكن؟

ربما هو في اكتفاء بطات بحيرة جنيف وترك الخبز الباقي لغيرها...

ربما هو من الحب والعشق عند البط الطنطاوي...

ربما هو في البط المعد للبيع في سوق القدس القديم...

أو بطات الكازينو الهادئات واللواتي كنت أخشى عليهم من غاز يشتت سلمهن!

بطة في هامبورغ تبحث عن زادها..

وأنا أبحث عن زوادة الطريق الطويل بحثا عن السلام والهدوء!

ولبطتك يا أكرم مسلم مني ومن بطاتي السلام..

رسائل البشرى: رحلة عربي من برلين إلى برلين

رحلة حسن توفيق العدل إلى ألمانيا وسويسرا*

هذا هو أقدم كتاب دونه عربي عن سياحته في ألمانيا وسويسرا، وجمع بين دفتيه يوميات وانطباعات عن رحلة قام بها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. حسن توفيق العدل (١٨٦٢ـ ١٩٠٤) أديب وتربوي من مصر، من مواليد الإسكندرية لأب عمل في القضاء، وكان رئيس محكمة بدمياط. درس العدل في الأزهر وأجيز بالتدريس والرواية على أربعة من كبار العلماء وكان ما يزال دون سن العشرين. تلقى العلوم الكونية: الجغرافية، الرياضة، التاريخ، في مدرسة ليلية قاهرية، وتعلم الفرنسية مع صديقه الشيخ محمد شريف سليم. التحق بدار العلوم ١٨٨٣ وتخرج منها عام ١٨٨٧، وكان ينظم الشعر.



نوري الجرّاح

Photo: Nouri Al Jarrah

تاريخياً يعتبر العدل أول من درس علم أصول التدريس البيداغوجيا في ألمانيا، ففي سبتمبر ١٨٨٧م وعلى إثر اختياره من قبل «نظارة المعارف» في القاهرة لتدريس العربية للطلاب الأجانب في برلين، ركب الباخرة من الإسكندرية متجهاً إلى ألمانيا، وانتهى به المطاف في ٢٠ سبتمبر من العام نفسه في برلين قادماً من فيينا، وكان في استقباله مدير المدرسة الشرقية، الذي عين له مترجماً يرافقه في الأسابيع الأولى من أقامته البرلينية، إلى أن يبدأ في تعلم اللغة الألمانية.

قضى العدل في برلين خمس سنوات مدرساً للعربية، وطالباً في علم البيداغوجيا، وكان من بين طلابه خلال سنوات إقامته مستشرقون ومهتمون بالثقافة العربية لمع أكثرهم في ميادين الدبلوماسة والاستشراق والتجارة. بعد عودته إلى القاهرة وضع في علم التربية عدداً من الكتب منها: كتاب «البيداغوجيا» بشقيه العلمي والنظري، ١٨٩١، ١٨٩٢، كتاب «الحركات الرياضية» ١٨٩٥، كتاب «مرشد العائلات إلى تربية البنين والبنات» وهو كتاب في التربية الجسمية منذ الحمل إلى سن البلوغ ١٨٩٧، وكتب أخرى.

في أكتوبر من سنة ١٩٠٣ وصل إلى إنكلترا لتدريس اللغة العربية في جامعة كامبردج بطلب من الحكومة المصرية، فقضى هناك سبعة أشهر، صرفها في التدريس والبحث، وفي ٣١ من شهر مايو/أيار سنة ١٩٠٤ وبينما هو في قاعة الدرس أصيب بعارض صحي أودى بحياته تحت أنظار طلابه. وقد شكلت وفاته خسارة فادحة لحركة العلم في مصر، ورثاه كبار أدباء عصره، ومشى في جنازته الآلاف، وبينهم المفكر الإسلامي محمد عبده. بعد وفاته اعتُمدت مؤلفاته في علم أصول التربية والتأريخ النقدي في مناهج «دار العلوم» حتى سنة ١٩٤٥.

خلال إقامته البرلينية استقبله إمبراطور ألمانيا فيلهلم الأول (بزيه المصري التقليدي) بعدما اشتهر اسمه كمعلم للعربية، وعلى إثر قصيدة نظمها في مدح الإمبراطور الألماني، فألقى القصيدة في حضرته باللغتين العربية والألمانية، وقام القيصر فقلده وساماً ملكياً. وهناك إشارة إلى أن القصيدة نشرت في الصحافة الألمانية. أما نص رحلته من برلين وإليها وسياحته في المدن الألمانية والسويسرية فهي سياحة بدأها من برلين صباح يوم ١٦ أغسطس سنة ١٨٨٩ وانتهت بعودته إلى العاصمة الألمانية يوم ١٥ سبتمبر من العام نفسه، فاستمرت شهراً كاملاً طاف خلاله عشرات المدن ومئات القرى ما بين ألمانيا وسويسرا. وكتب عن طبيعتها وناسها ومصانعها وعلومها ومدارسها. وقد نبَّه الرحالة المصري أحمد عطية الله الذي سيزور برلين في فترة ما بين الحربين العالميتين، إلى أن العدل قام بسياحته التي نحن بصددها بعلم «نظارة المعارف» وبتشجيع منها.

انطلق العدل في رحلته من برلين صباح يوم ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٠٦ هجرية الموافق ١٦ أغسطس سنة ١٨٨٩ متجهاً إلى مدينة هانوفر، وغادرها إلى مدينة مندن وهي بلدة قديمة في ولاية فستفاليا إحدى ولايات البروسيا يومها، ومنها إلى مدينة كولونيا، وبون وكونيغسفنتر، ومدينة فيسبادن، مدينة مينس التي عاش فيها رائد الطباعة غوتنبرغ، وهايدلبرغ وكانت إحدى مدن غراندوقية بادن بألمانيا، ثم منها إلى مدينة ستراسبورغ عاصمة ولاية الالزاس وقسم لورين الألماني المتنازع عليهما مع فرنسا، ثم عبر إلى الأراضي السويسرية فبلغ مدينة بازل، ومدينة برن، وصولاً إلى مدينتي لوتسرن وزيوريخ، وتجول في مدينة ميونيخ عاصمة مملكة بافاريا، ومدينة نورنبرغ. وفي طريق عودته بلغ مدينة لايبزيغ، ومدينة دريسدن عاصمة مملكة سكسونيا. ورجع من سياحته بعد شهر قضاه في شوارع المدن وأحضان الطبيعة الخلابة، فوصل إلى برلين يوم ٢٠ محرم سنة ١٣٠٧ هجرية الموافق ١٥ سبتمبر ١٨٨٩ ميلادية.

لم يكن رحالتنا أول من دون يوميات وانطباعات عن ألمانيا أواخر القرن التاسع عشر، فقد سبقه رحالة واحد على الأقل هو اللبناني سليم بسترس الذي زار ألمانيا قادماً من بيروت عبر الأستانة سنة ١٨٥٥، وعاصره محمد أمين فكري الذي زارها في سنة ١٨٨٩ وهي السنة نفسها التي دون فيها العدل سياحته، ولحقت بهؤلاء مجموعة من الأدباء والشعراء والباحثين العرب الذين زاروا أوروبا وعرجوا على ألمانيا، فدونوا انطباعات شكلت جزءاً من مجمل انطباعاتهم عن الحياة الأوروبية. ونجد أن العدل يتميز عن هؤلاء أولاً: في أن سياحته انحصرت بألمانيا وبالجزء الألماني من سويسرا، وبأنه قام برحلته خلال إقامة طويلة نسبياً في برلين أجاد خلالها اللغة الألمانية، وقرأ في التاريخ الألماني، وعبر مراراً في كتاباته عن إعجابه بالشخصية الألمانية وبشخصية الأمير بسمارك على نحو خاص، واطلع بصورة عامة على أدب هذه اللغة، وإن كان شاغله الأساسي هو علم أصول التربية، فقد اعتبر العدل وجوده في ألمانيا فرصة لا تعوض لتحقيق هذه الغاية العلمية، إلى جانب مهمته الأصلية التي اختير لها؛ تدريس اللغة العربية لطلاب المدرسة الشرقية في برلين.

الميزة الثانية التي تنفرد بها رحلة العدل بين أخواتها من الرحلات العربية أنه تاريخياً الأسبق إلى تدوين سياحته بين ألمانيا وسويسرا في كتاب مستقل. وهناك ميزة ثالثة هي اشتراكه مع رفاعة رافع الطهطاوي في تكوينهما الأزهري، بينما تحدر الرحالة الآخرون، بمن فيهم المصريون، من مرجعية ثقافية مختلفة.

على أن المشترك بين العدل وهؤلاء الرحالة جميعاً أن نصوصهم تكشف عن طبيعة اهتمام النخب العربية المثقفة بأوروبا، من خلال تأملها في النموذج الألماني، فهي تعبر عن مراحل مهمة من الاتصال المتجدد بالغرب ما بين أواسط القرن التاسع عشر وأواسط القرن العشرين، وتعكس نصوصها انطباعات وأفكاراً وملاحظات لشرقيين ينتمي أكثرهم إلى المجموعات المفكرة التائقة إلى تغيير نمط الحياة في الشرق العربي ليساير التطور ويدخل إلى العصر، وبالتالي تفصح نصوص الرحلة العربية إلى ألمانيا، وأكثرها مجهول، عن رؤية تلك النخبة للحياة الأوروبية؛ العمران، التمدن، الصناعة، الفنون، التعليم، الفكر، التخطيط الاجتماعي، وغير ذلك مما يشكل بنية الحياة الحديثة وتجلياتها في الثقافة والاجتماع، وكذلك نظرتها إلى الشخصية الألمانية وما رأت أنها تتميز به من خصال. وهي نصوص مسافرين لم يهمل جلهم إعمال الفكر في أسباب تقدم الغرب، من دون إغفال أهمية المقارنة بين عناصر الاختلاف القائمة بين الشرق والغرب. وعليه فإن كتاباتهم عن ألمانيا تمثل تطلعات نخبة أملت، بكثير من الرومانسية، في أن تستلهم حداثة الغرب وتحذو حذوه في انتهاج سبيل العصرنة، للانتقال بمجتمعاتهم من حال التخلف، واللحاق بركب المدينة الحديثة.

لم تكن الرحلة من الشرق العربي إلى ألمانيا في القرن التاسع عشر رائجة عندما قام العدل برحلته، فقد كانت أنظار الرحالة والمسافرين العرب مشدودة يوم ذاك إلى فرنسا وبريطانيا. كانت كل من باريس ولندن العاصمتين الأكثر إغراء للنخب المثقفة الشرقية المتطلعة إلى تحصيل العلم في أوروبا والعمل على إحداث تغيير وإصلاحات في نظم المجتمع والدولة،


رسم حسن توفيق العدل

ولاحقاً، المناداة بالاستقلال عن دولة الخلافة ممثلة بالباب العالي بالنسبة إلى العرب الذين رزحوا تحت نير الحكم التركي أكثر من أربعة قرون.

ولعل ما قيض لفرنسا، منذ حملة نابليون على مصر في ١٧٩٨، وحتى سقوط الإمبراطورية العثمانية غداة الحرب العالمية الأولى، من استقطاب لاهتمام الشرقيين، بفعل الدور الاستعماري الذي لعبته في الشرق العربي وفي الشمال الإفريقي، وما حققته منافستها وشريكتها بريطانيا بفعل نصيبها من السيطرة الاستعمارية في الشرق لم يكن في مستطاع ألمانيا القلقة المتطلعة خلال القرن التاسع عشر إلى إنجاز وحدتها. فلم يكن هناك مجال يمكّن ألمانيا من مجاراة الدولتين الأوروبيتين المسيطرتين خارج حدودهما الجغرافية. كان الانشغال الألماني منصباً على جغرافيتها التي تغيرت حدودها، مراراً، خلال القرون الوسطى وحتى العصور الحديثة، وبالتالي فإن عينها كانت، باستمرار، على محيطها الحيوي الذي يمتد شرقاً عبر النمسا إلى البلقان وغرباً نحو بلجيكا والإلزاس واللورين التي نازعت عليها فرنسا، ولم يشغل الشرق ألمانيا أبعد من التحالف غير المقدس مع تركيا واليابان، في حين عني العلماء والمستشرقون الألمان بدرس حضارات الشرق بصورة مركزة طرحت آثاراً فكرية مهمة وقدمت معارف لا يمكن العبور عنها.

كانت الرحلة العربية إلى أوروبا تعني، أساساً، الرحلة إلى باريس، وبدرجة أقل لندن، وهو ما يفسر ذلك الحضور الطاغي لهاتين العاصمتين في نصوص الرحلة المكتوبة بالعربية. والحال أن النخب العربية المثقفة وجدت نفسها منجرة الى التشاكل مع الثقافتين الفرنسية والإنكليزية، ولعبت البعثات العلمية التي قامت من مصر إلى أوروبا، بدءاً من النصف الأول من القرن التاسع عشر، دوراً مؤثراً في انتشار التعليم بهاتين اللغتين في الشرق، وفي ولادة نخبة ليبرالية عربية أخذت تتطلع إلى استلهام تجربة البرجوازية الغربية في تغيير وجه المجتمع، وقد اختلطت لديها خطتان: الإصلاح، والتحديث، ودار النقاش واحتدم من حول هاتين الخطتين بدءاً من الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بين طيف آخذ في التشكل من الأفكار والرجال والتجارب والمحاولات المنقسمة من حول تجربة مصر محمد علي، وتجربة الجمعيات العثمانية في دولة الخلافة، وجرى ذلك في محيط عربي شهد فورة البحث والسؤال من حول هوية العرب وحاضرهم ومستقبلهم.

ولا ينبغي في هذا السياق التاريخي إغفال ما لعبه القناصل الأوروبيون في بلاد الشام خصوصاً من أدوار مؤثرة في الصراع الفكري والسياسي والاجتماعي للولايات، بل وفي نقل جانب من هذا الصراع بين "الدولة العلية" والشرائح الاجتماعية المحلية المتطلعة إلى التغيير في بلاد الشام ومصر وحتى الحجاز ونجد، إلى صفوف النخب التركية نفسها المتطلعة، بدورها، إلى ركوب مركب تحديث الدولة، وتحديد صلاحيات السلطان، وخلق مناخ دستوري في مركز الخلافة. وقد سبق ذلك ما أصاب هيبة الدولة العثمانية من ضعف على أثر هزيمتها في حرب القرم أمام روسيا وتوقيعها مع الأخيرة

على معاهدة سان استيفانو، والتي جرى تفعيلها في مؤتمر *برلين وما رافق ذلك وحقه من توترات ومؤامرات وقعت* في مركز الخلافة بسبب تجريد تلك المعاهدة تركيا جزءاً كبيراً من أملاكها الأوروبية.

على هذه الخلفية كان الهامش الذي تركته الدولتان الاستعماريتان الكبريان للألمان وإمبراطوريتهم المحاصرة في جغرافيتها مع نهاية القرن التاسع عشر، هو هامش التحالف مع الدولة التركية المنهكة من الحروب والصراعات الداخلية، ومع اليابان في جغرافيتها البعيدة عن التأثير في مركز النشاط الاستعماري، يومذاك، ومحاولات فاشلة هنا وهناك، تارة لمد خط حديدي في أرض السواد، وأخرى في البحث عن موطىء قدم في ثغر إفريقي. وعلى رغم احتفاظ تركيا بعلاقات طيبة مع ألمانيا، وهو ما سوّغ لهما للتحالف في ما بينهما خلال الحرب العالمية الأولى، فإن النخب المثقفة، ولأسباب جمة، لم تتطلع نحو هذه الجغرافية الأوروبية، فما خلا قلة من ضباط الحربية العثمانية العرب الذين درسوا في المدارس العسكرية الألمانية، فإن نفراً آخر قليلاً آثر نيل العلم في ألمانيا، أو حتى زيارتها، في وقت كانت باريس بالنسبة إلى هذه النخب عاصمة النور المتألقة على الدوام.

والغريب أن حركة الاستشراق العلمي والأدبي في ألمانيا التي التي أسلفنا الإشارة إليها كانت في ذروة نشاطها وعطائها، فأخرجت عدداً من ألمع المتضلعين بالثقافة العربية، من أمثال بروكلمان الذي وضع تاريخ الأدب العربي، وغيره عشرات من الباحثين في التراث العربي والشرقي الذين حققوا مخطوطات ومصنفات جغرافية وأدبية وشعرية وعلمية، وفي الطب والفلك والرياضيات، ووضعوا دراسات محكمة في الاركيولوجيا والإثنوغرافيا مسدين بذلك خدمات جليلة للثقافة العربية، وبرز هذا الجهد خالياً من الشوائب التي ميزت جهود كثرة من المستشرقين البريطانيين والفرنسيين الذين طالما جرحت أعمالهم غايات غير علمية.

تقع يوميات العدل في طبعتها الحجرية في حوالي ٨٠ صفحة، وهي غير رحلته البرلينية المسماة «رحلة حسن أفندي توفيق» أو «الرحلة البرلينية» وتكشف هذه اليوميات عن نزاع فكري ونفسي عاشه حسن توفيق العدل تجلى في ثنائية الصراع بين الأنا والآخر، بين تقدم الآخر وتخلف الأنا، وهي ثنائية حكمت جيل العدل بأسره والأجيال اللاحقة عليه إلى اليوم، وإذ تكشف انطباعاته ومقارناته عن إيمان بالعلم والتقدم والحرية، وعن تقدير للاختلاف الثقافي والحضاري بين الأمم والثقافات، فإنها لا تختلف عن غيرها من اليوميات العربية في أوروبا في همومها واهتمامات أصحابها، وتكاد شخصية الرحالة تشترك بصورة خاصة مع شخصية الطهطاوي الأزهري في أنها *تعكس هموم شخصية أزهرية في تكوينها الأول بخلاف ما* تعكسه يوميات جل رحالة القرن التاسع عشر العرب التي أثرت المكتبة العربية بانطباعات وأفكار وملاحظات لشرقيين ينتمون إلى النخبة الأرستقراطية القريبة من القصر، في رؤيتهم للحياة الأوروبية، وضمناً النموذج الألماني، وللشخصية الألمانية وما تتميز به من خصال، وقف الرحالة طويلاً عند اختلافها عن الشخصية العربية، وافتراق أحوالها عن أحوال الشرقيين.

ولئلا أصادر على القارىء متعة استكشافه ما احتوت عليه هذه اليوميات من وصف ومعلومات وأخبار وانطباعات وطُرف ومقارنات وملاحظات تجمعت لدى الرحالة خلال سياحته، سأتجاوز التعليق على كثير مما أثارني في النص، لاسيما إشاراته الذكية المشعة هنا وهناك في متن الرحلة لالامس موقفه من المرأة الأخرى، الأوروبية لما في هذا الجانب من إضاءة على جانب من شخصية العدل وتفكيره. فهو محافظ في نظرته إلى المرأة، لكنه متزن رقيق، أنيس في صحبتها كرفيقة رحلة أو دعوة على غداء، من دون أن يترك لنفسه العنان للإفصاح عن مكنونها نحو الجنس الآخر. فالعلم ومجد العلم هما ما يسرق فكره ونفسه، بحيث لم يبق هذا الشاب المتطلع إلى تحصيل العلم، وبثه في طلبته من غير العرب مساحة لذاته، فظلت هذه الذات محتجبة أسيرة قيمها التقليدية. وفي مكان ما من أوراقه الشعرية دوّن أبياتاً تكشف عن انحيازه الكلي للعلم، وفيها تصريح مباشر يعلل فيه عزوفه عن الاتصال العاطفي بالمرأة، وهو مايزال في شرخ الشباب:

وأنا امرؤ لا يستميل بي الهوى
لذوي القدود ولا ذوات المحجل
أُمسي وأُصبح في العلوم، ولم أقل
يا أيها الليل الطويل ألا انجلي

لكن هذا التصريح لا يفلح في إخفاء كل ما يعتمل في النفس، وها هو الشاب في سنواته التي لم تزد على خمس وعشرين سنة يصف الفتيات الجميلات اللواتي رافقنه في سياحته في قارب وقطار ومشياً على الاقدام في الطبيعة الخلابة، فيأسره جمالهن ويفاعتهن فتكاد نفسه تجيش بعاطفتها وتنطلق من أسر قيم رآها على حد من التناقض مع أهواء النفس: "ولو لا المجد والفضائل لأصبح مثلي أسير تلك الحبائل".

ولعل التربية الشرقية المحافظة التي نشأ عليها العدل في بيت يقيم للعلم والأدب المحل الأرفع كانت وراء كلٍّ ذلك الانضباط الصارم الذي ألزم به نفسه بإزاء المرأة، حتى إذا خالجه شعور ونمّ عنه أخذ يواري ويعلل الأشياء في غير عللها: "فوقع عندي ذلك موقعا لا تظنوه موقع استحسان

بل موقع طرب لا لجمالها بل لفضلها وعلمها". وعندما تسأله فتاة شاركته مائدة الطعام في مطعم باذخ الجمال في قلب الطبيعة، وبادلها الحديث عما في خاطره عن المرأة، وكيف لا يتطلع إليها تطلع عاشق وهو القادم من ثقافة لم تغفل أدبياتها ما للمرأة من حضور في نفس الرجل، إذ ذاك نرى ذاته الحضارية تتقدم وتتسابق مع ذاته المفردة لتقول كلاماً فصيحاً، إنما ينم عن اضطراب عميق: "فقلت لها وكنت بها ولهاً: أما الهوى فنحن أهلوه، والهيام نحن بنوه، ونرى خمر الغرام حلالاً، وأما الصهباء فلا لا، وما كان من أحاديث السالفين فما هي إلا أساطير الأولين تتلى لنفي الأتراح وانتعاش الأرواح". وكأني به يتحصن بالبلاغة اللغوية ليدفع عن شخصيته الحضارية ما ألحق بها المستشرقون الغربيون من صور وسرود لم تر في الشرق والشرقيين إلا تلك الصور الأيروسية المتجلية في قصص ألف ليلة ولية. لكن العدل لا يفلح، هنا، في إقناع قارئه بما حاول ستره من انفعالات الشعور المربك بإزاء الجمال الغربي الجريء. لقد بالغ العدل في تقيُّده بما أوصاه به وكيل نظارة المعارف يعقوب أرتين باشا عشية سفره من أن "يكون ما يستفيده منهم أكثر مما يفيده لهم".

لعل من المفيد، هنا، مع هذا الكتاب النادر في وصف الآخر، الإشارة إلى أنني خلال محاضرة لي في معرض فرنكفورت للكتاب سنة ٢٠٠٤ حول «الرحالة العرب إلى أوروبا في القرن التاسع عشر وسؤال الحداثة» حضرها لفيف ألماني أوروبي، تطرقت إلى تجربة العدل بين أمثلة أخرى ضربتها على موضوعات وصف الآخر الغربي في المحاضرة، وقد أثارتني أسئلة الحضور وطبيعة انتباهاتهم في ما يتصل برؤية العربي للآخر الأوروبي. والواقع أنه باستثناء نصوص قليلة، بل ونادرة من أدب الرحلة العربي نشرت في اللغات الأوروبية وسلط عليها الضوء، يمكن القول إن نظرة العربي إلى الآخر، وإلى ذاته من خلال الآخر هي «النظرة الغائبة». نحن نعرف أن التاريخ هو روايات مسرودة، ومن يصف ويسرد رواية عن ذاته أو عن الآخر يتحقق في التاريخ، بهذا المعنى يتحول السرد إلى وثيقة. وبالتالي فإن الرواية الغائبة تخلي مكانها لصمت التاريخ. لقد تمكن الغرب من الهيمنة على الشرق ليس فقط بالأدوات العسكرية والاقتصادية، وإنما من خلال الصور التي ابتكرها ولفّقها له، ومن ثم أمكنه الترويج لها في عالمه بمنتهى الاقتدار. وما يبدو لي مفزعاً، اليوم أكثر من أي يوم مضى، أن عدم استحضار السرود الشرقية عن الآخر الغربي من عتمة الإهمال والنسيان لتكون دليلاً ووثائق على وجود محاولات شرقية فعالة للاتصال الحضاري بالغرب، إنما تساوي في قيمتها السلبية طغيان حضور ورواج الرواية الغربية عن الشرق والشرقيين والعرب والمسلمين التي أنتجتها كتابات الرحالة والمستشرقين الغربيين على مدار ثلاثة قرون من «المغامرات» في الشرق. ولا يفسر هذا الغياب لتلك النظرة الشرقية كسل الشرقيين وحدهم، وإنما يبدو لي كذلك أن المسعى الأوروبي للوقوف على نظرة الآخر العربي والشرقي تبدو ضعيفة. ويبدو لي من خلال احتكاكي المتواصل بالأوروبيين أنهم مازالوا غير مكترثين بالمسؤولية الأخلاقية لمعرفة تطور نظرة العربي إلى الآخر الغربي. وإلا بم يمكن تفسير الفقر المدقع لحقل دراسات الآخر في الغرب من نصوص الرحلة العربية إلى أوروبا في القرون الثلاثة الأخيرة على الأقل، على خطورتها كوثائق؟

لا أقصد بملاحظتي هذه أن أبرىء العرب من التقصير المزري بحق ثقافتهم، على هذا المفصل من عمل الفكر وعمل الثقافة، والبديل من الكسل الفكري هو بذل مجهودات حقيقية لإحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي وبنصوص أدب الرحلة العربية إلى العالم من خلال تحقيق المخطوطات المجهولة ووضع الأبحاث والدراسات حول الصلات والعلاقات بين الشرق والغرب، وتنشيط أعمال البحث والتأليف في هذا الحقل الذي يزداد الاهتمام به يوماً بعد يوم في العالم أجمع.

أخيراً، أشير إلى أن هذه الرحلة، وقد كتبت بلغة سلسة بعيداً عن التقعر الذي طبع جزءاً غير قليل من النتاج الأدبي للنصف الثاني من القرن التاسع عشر، إنما حفلت بوصف الطبيعة ومناظرها البديعة الرائقة، وحركة الناس في المدن والأرياف، وانفعالات النفس بإزاء ما ترى من مشاهد، ولم تخل من شاعرية في الوصف إلى استشهاد بأبيات من التراث الشعري العربي، واعتماد على كتب التاريخ الألماني في رسم صور حيّة للأمكنة المطروقة واستعادة الوقائع والأزمنة، والأعلام الذين ارتبطوا بهذه الأمكنة وأثروا في تاريخها القريب والبعيد.

نوري الجرّاح: شاعر سوري مشرف على مشروع أدب الرحلات المعروف بـ «ارتياد الآفاق». والنص مقدمة لرحلة حسن توفيق العدل إلى ألمانيا وسويسرا.

سيصدر ضمن هذه السلسلة أيضا كتاب «أنطولوجيا الرحلة العربية إلى الجغرافيا الألمانية ١٨٥١ ـ ١٩٤٦». وتغطي هذه الأنطولوجيا، التي جمع نصوصها وحققها وقدم لها نوري الجراح نحو مئة سنة من التجوال العربي في الجغرافية الألمانية. وتتضمن نصوصا لحوالي خمسة عشر رحالة عرب منهم: حسن أفندي توفيق (مصر) ومحمد كرد علي (سوريا) وشكيب أرسلان (لبنان) وغيرهم.

شتيفان فايدنر Stefan Weidner

في مديح الرواية العربية

بمناسبة حصول علاء الأسواني على جائزة روكرت

في السادس عشر من مايو/ أيار، وبمناسبة مرور مئتين وعشرين عاما على مولد المستشرق والمترجم الألماني فريدريش روكرت، حصل الكاتب المصري علاء الأسواني الذي اشتهر من خلال روايته الأولى «عمارة يعقوبيان» على جائزة روكرت التي تمنحها مدينة كوبورغ، مسقط رأس المستشرق الألماني.

لا أستطيع ولا أريد أن أنكر أنني اعتبر ذلك شرفا لي، أن ألقي كلمة في تكريم علاء الأسواني بهذه المناسبة الاحتفالية. كذلك لا يمكنني أن أنكر أن تلك مهمة عسيرة جدا ولا أحسد عليها، إذ إنه من العسير علي جدا أن أوفي علاء الأسواني المديح اللائق به، بل وأجرؤ على الزعم بأن كاتبنا تسبب عمدا في وقوعي في هذه المشكلة، إذ لا تتجسد مشكلتي فقط في أننا نجد أنفسنا لدى منح الجائزة مواجهين بالسؤال: من يكرِّم من؟ هل نكرم أو تكرم مدينة مدينة كوبورغ علاء الأسواني بجائزة روكرت، أم أن علاء الأسواني هو في الحقيقة من يشرف جائزة روكرت باعتباره أول من يحصل عليها؟ من يمنح اسمه لمن؟ ويجوز لنا أيضا أن نتساءل، من سيكتسب شهرة أكثر عبر هذا التبادل؟ على أية حال يمكننا الإجابة على هذا السؤال على النحو التالي وهو أن في تبديل الأسماء بين الأسواني وجائزة روكرت مكسبا للطرفين. لكنني لست واثقا من نجاحي في مهمتي كصاحب كلمة التكريم وسبب عدم ثقتي يكمن في أن علاء الأسواني قد نال الكثير من صفحات من المديح والاحتفاء، وبالتالي فهو لا يفتقد إلى المديح لا في وطنه ولا في الغرب.

هل هناك ثمة مديح لم يقل بعد عن علاء الأسواني؟ ألم يقل من قبل عن كتبه أنها حادة ومباشرة في انتقاد المجتمع بشكل لم يعهده الأدب العربي منذ وقت طويل. ألم توصف كتبه آلاف المرات بأنها مشوقة ومسلية بالصورة التي نتمناها نحن نقادا وقراءً؟ أجل لقد انتظرنا طويلا هذا النوع من الكتب، نحن ومئات الآلاف من القراء العرب، نحن وملايين من القراء في مختلف أنحاء العالم. ألم يُقل أيضا أنه قد أنزل الأدب العربي من برجه العاجي ومع ذلك لم يخن لا الفن ولا الأدب، بل وصل بالأدب إلى غايته الأصلية ألا وهي الوصول إلى القراء والتواصل معهم؟ ألم يسبق القول أيضا أن شجاعته في نقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية في مصر وربما في العالم العربي بأسره، تمنح قارئها إحساسا بالتحرر، ليس فقط في موطنه ولكن أيضا لدينا في الغرب، في ألمانيا بل وهنا في كوبورغ؟ التحرر من الأحكام المسبقة الشائعة، بأن العرب لا يعرفون النقد الذاتي، وأن القمع السياسي يحظر حرية الرأي وأن المسلمين مستسلمون استسلاما أعمى لقدرهم، وأنهم لا يستطيعون التعامل مع الأفكار التنويرية وأن الأدب العربي الجيد يكتبه فقط الكتاب المنفيون ـ كتب علاء الأسواني تحررنا

باقتدار ورشاقة من هراء كل الأحكام المسبقة تلك. لكن كل هذا قد قيل مسبقا للأسف، لذلك لا أخجل من القول أنني أقف هنا حيرة من أمري ولا حيلة لي.

اسمحوا لي إذن على الأقل أن أشرح لكم ببعض الأمثلة القليلة، كيف أوقع علاء الأسواني مادحيه ومكرميه في مأزق جعلهم بلا حيلة سوى أن ينقلوا عن بعضهم البعض. إنها روايته الأخيرة «شيكاغو» التي سأقتبس منها بعض الأمثلة، آملا في أن يكون الحديث عن «شيكاغو» أسهل لأنه الكتاب الأحدث ولم يكتب عنه مثلما كُتب عن روايته الأولى «عمارة يعقوبيان».

المشارب، فإن «شيكاغو» تصور مجتمعا مصريا مصغرا ممثلا في طلبة مصريين بقسم الهيستولوجي في جامعة إلينوي. ويعتبر وصف خبرة الطلاب العرب في الغرب موضوعا يظهر بشكل متكرر في الأدب العربي منذ القرن التاسع عشر، وتلتحم رواية «شيكاغو» مباشرة مع هذا النمط من الروايات. فالكواليس الغربية الغريبة للرواية لها دائما مزاياها. فمن ناحية يعتبر المجتمع الموصوف محدودا أكثر مقارنة بالمجتمع المصري بشرائحه العريضة التي عكستها شخوص «عمارة يعقوبيان». ومن ناحية أخرى تبرز الأمراض النفسية والطباع والنماذج الغريبة والمخاوف أمام



غونتر أورت، علاء الأسواني، كليمنس هازة

Photo: Jochen Berger

وبرغم أن الروايتين مسليتين جدا، فإن أكثر النقاد حدة لن يستطيع تصنيفهما باعتبارهما أدبا للتسلية. فمثلا شخصية أحمد دنانه رئيس رابطة الدارسين المصريين، في «شيكاغو»، والذي يضطلع بمهمة كتابة التقارير عن زملائه والذي ظهر في اجتماعهم كطاغية صغير، هذه الشخصية مرسومة بشكل يصعب من خلاله التفريق بين الكليشيه الجاهز وما يتداول من شائعات عن مثل هذه الشخصيات، بين الوصف الهزلي والواقعي. لكن حيثما يبدو أن الواقع يقترب جدا من مطابقة الكليشيه كما هو الحال هنا، تطغى الرغبة في الواقعية على أي نزوع نحو الحس الأدبي المرهف. ومن يصر على هذه الرهافة في ظل الواقع المصري المعاصر يخاطر بإهماله للأوضاع القائمة، ويجعل نفسه في آخر المطاف شريكا للرقابة في عملها. وهذا ما آل إليه مصير كثير من كتب الأدب العربي الراقي، وهذا ما يبرر لنا اختلاف تلك الكتب عن كتب الأسواني ولماذا كاد القراء العرب يتخلون عن قراءة تلك الكتب.

وإن كانت «عمارة يعقوبيان» تتحدث عن مبنى في وسط القاهرة يربط بين المصائر المتشعبة لأشخاص من مختلف

الكواليس الأمريكية بقوة أكبر مما هو عليه الحال في موطنها، القاهرة.

من خلال زيارة الرئيس تتلاقى في الرواية مصائر شخوص الرواية المختلفة. ففي حين يسعى الانتهازي الكبير أحمد دنانه لحث زملائه على إظهار الولاء للرئيس بمناسبة زيارته لشيكاغو. يحاول طالب البعثة ناجي عبد الصمد القيام بمظاهرة مناهضة. ويمثل ناجي الأنا الأعلى للكاتب، من خلال كتابته ليومياته برواية الأنا. فيما عدا ذلك تُروى الأحداث بشكل يوحي بأن الراوي يهيمن بمعرفته الكلية على مجرى الأحداث، ما قد يترك انطباعا مرعبا، ومحررا في الوقت ذاته، إذ يصعب على أي شخصية الاختباء من الراوي، ولا أمل لأي منها في الإفلات منه. علاء الأسواني هو الكاتب الذي يبدو مثل مونتير إلهي، يقدم لنا من وسط زخم عالم غريب، المشاهد التي يستخلصها من هذا العالم. وكثيرا ما يتبين لنا أن فصول الرواية المنفردة التي تركز على خط ما من خطوط الأحداث المتشابكة، تصلح في حد ذاتها كقصة قصيرة.

مقارنة بـ «عمارة يعقوبيان» التي تناولت موضوعات المثلية الجنسية والتعذيب في أجهزة الأمن والإرهاب الإسلامي



والجنسانية العنيفة والمحسوبية، لم يترك الأسواني في «شيكاغو» أي محرمات متخيلة إلا وتطرق إليها، بدءا من استخدام قضيب اصطناعي اسمه «الأرنب جاك المعدل» لممارسة الاستمناء، مرورا بعلاقة حب مع طالبة يهودية، والاغتصاب الزوجي المبرر باسم الدين وتقديم وصف للرئيس يتطابق تماما مع الرئيس مبارك دون ذكر اسمه، ووصولا إلى اضطرار فتاة متزمتة دينيا إلى الإجهاض برغم أنها لم تضاجع صديقها المتدين أيضا بالشكل الذي يُوصف به الزنا في الحديث النبوي: "دخول اللحم في اللحم كالمرود في المكحل".

وإذا أخذنا الآراء الشائعة عن الرقابة في العالم العربي كمعيار، فعلينا إذن أن نتساءل كيف أمكن نشر هذا الكتاب. هل كان الرقباء غافلين لدى صدور «عمارة يعقوبيان»، وحتى اشتهر الأسواني فأصبح لا يُمس؟ هل لم يعد متشددو جامعة الأزهر قادرين على مصادرة أعمال كاتب يتمتع بمثل هذه الشعبية؟ أم أنه حان الوقت لندرك أن الرقابة على الأعمال الأدبية لم يعد لها وجود فعلي في العالم العربي؟ بيد أن علاء الأسواني ليس كاتبا عميق الخبرة فحسب، بل وعادلا أيضا، لذا فانتقاداته لا تنطوي فقط على مراجعات لا هوادة فيها مع الإسلام والعرب ومصر. فمثل هذه الانتقادات الأحادية الجانب لم تكن تكتسب مصداقيتها (في العالم العربي على وجه الخصوص) لو لم تتم تعرية نقاط الضعف الغربية والأمريكية. ولا ينكر حتى أكبر أصدقاء أمريكا وجود نقاط الضعف تلك. لكن المقالات النقدية التي كتبت عن "شيكاغو" في ألمانيا تبين أن ثمة ابتهاج بانتقاد العرب، فيما واجه النقاد صعوبة في تقبل الانتقادات الموجهة للغرب في كتابات الأسواني. واشتكوا من أنه يصور الولايات المتحدة بصورة غير عادلة ومبسطة. ولا بد لي أن أعترف أنني أحسست بذلك في بعض المواضع خلال قراءتي للرواية. وحدثت نفسي قائلا: "إنه يبالغ هنا" أو "أن في ذلك تعميم مبالغ فيه" باختصار لقد أحسست بتوحدي مع الغرب في هذه المواضع وشعرت كغربي بأنني عُوملت بشكل غير عادل. يا للعدالة الغربية الذاتية المقدسة! بالطبع حينما يوجه النقد لك شخصيا، يصبح على الفور مبسطا وعموميا جدا، ويمكن لك أن تقول باستمرار أن به شيئا غير سليم، وتشعر بأن النظرة

علاء الأسواني مع حفيد كلاوس روكرت أمام تمثال فريدريش روكرت في كوبورغ

Photo: Jochen Berger

إليك ليست قادرة على التمييز بالقدر الكافي. إنه هذا الشعور المميز للعدالة الذاتية وعدم القدرة على النقد.

فلنتجاوز أنفسنا هذه المرة ونثق في هذا الكاتب ونجعله يمسك بأيدينا ويقودنا، وسنلحظ سريعا أن انتقاداته لمجتمعه لا تقل حدة عن انتقاداته لنا، بل وسندرك من خلال ذلك مدى صعوبة وقسوة أن يضع غريب، ولا سيما عربي، إصبعه على جروحنا ومواضع ضعفنا. وإذا كان هذا هو رد فعلنا على نقد من شخص درس في الولايات المتحدة، فكيف يمكن للنقد الغربي المتعالي والجاهل للعرب أن يبدو! وكم هي ضئيلة مصداقية الغرب الذي دائما ما يشير بوضوح إلى عيوب الشرق، لكنه يثور لمجرد قيام كاتب شرقي، ينتقد مجتمعه بلا رحمة، بانتقاد العنصرية في الولايات المتحدة ويستعين في نقده بالوسائل نفسها التي يستخدمها في انتقاد مجتمعه والتي نسعد بها طالما بأنه ليست موجهة ضدنا؟

من خلال هذا المثال نرى أن كتب علاء الأسواني ليست فقط مجرد أعمال أدبية جيدة. بالأحرى يمكننا الحديث عن طريقة للتواصل الدولي تستوعب كل الصراعات في هذا العالم، ولا تستعين في ذلك بالإنترنت ولا بالفضائيات بل بالأدب العتيد. ويُظهر النجاح العالمي لأعمال الأسواني أن الأدب يستطيع أن ينافس وسائل الإعلام الجديدة، لكونه يستطيع أن ينبش باستمرار وبعمق في لا وعي القارئ وأن يجعله يعيد طرح التساؤلات حول مواقفه، أكثر من أية وسيلة أخرى.

وفي الوقت ذاته فإن تأثير طريقة التواصل هذه أكثر فاعلية من كثير من وسائل الإعلام الدولية التي تدعي أنها عابرة للثقافات، أي أنها تؤثر في أكثر من ثقافة، ففي العادة يتابع المرء صفحات الإنترنت أو محطات التلفزة المحلية، فمن من الناس يتابع برامج محطات التلفزيون الأجنبية أو يتصفح مواقع إنترنت بلغات أخرى لو لم يكن من العاملين في حقل الإعلام؟ لكن الكتاب الجيد يحتاج فقط للترجمة، وفجأة يقرؤه كثيرون.

في الحالات المثلى، وهذا ينطبق على كتابات علاء الأسواني، يمكن للأدب كوسيلة اتصال أن يُستقبل ويُستوعب في مختلف الثقافات وأن يقدم باستمرار وعلى نحو أصيل جدا أشياء أكثر عمقا. ويمكننا القول أيضا أن لمثل هذا النوع من الأدب دائما جانبين، أو توجه مزدوج، فهو يكتسب أهمية إضافية غير متوقعة عند عبوره لحدوده الثقافية، مقارنة بالأعمال الأخرى التي تبقى فقط محصورة في محيطها الثقافي. وفيما يخص علاء الأسواني فإن سهام النقد الاجتماعي تصوب في اتجاهين. نقد مزدوج يتمتع بالمصداقية في جانبيه. ولا يمكن القول إن القارئ العربي يعتبر انتقادات علاء الأسواني للأوضاع العربية مبررة وذات مصداقية، لمجرد أنه ينتقد الغرب أيضا. كما أنه لا يمكننا أن نأخذ انتقاداته للغرب على محمل الجد، لمجرد أنه ينتقد العرب على وجه الخصوص، ولا يمكننا أيضا التقليل من شأن انتقاده للغرب باعتباره مجرد مبالغة أدبية.

إدراك هذه الازدواجية التي يتمتع بها الأدب العابر للحدود، كما تظهر لنا مجددا بوضوح تام بفضل علاء الأسواني، يجعلني وأنا في هذا المقام في كوبورغ أنحني لشخص فريدريش روكرت، فهو كان على وعي بهذه الازدواجية التي يتضمنها العمل الأدبي العابر لحدود ثقافته. بالطبع لم يتولد هذا التأثير، مثلما في حالة الأسواني عبر تلقي أدبه في ثقافات متعددة وانتشاره عالميا. لقد ظهر هذا التأثير لدى روكرت من خلال ترجمته للشعر الشرقي، فهو لم يقدم الشعر الأجنبي باعتباره أجنبيا، بل ـ وهنا تكمن هذه الازدواجية ـ صنع منه شعرا ألمانيا، ألمانيا ليس فقط بمعنى أنه قدم ترجمة جيدة فقط، بل بالمعنى الوطني الخالص، مجسدا فيه قلقه وحبه على وطنه. في إحدى القصائد التي قدم بها لترجمته لديوان الحماسة كتب يقول:

"إنه شعبي العظيم
الذي يرسل يوميا
أبناءه ليجلبوا إلى بيته
الشعوب بكل ألسنتها المختلفة
وكم رائع هو وقع
هذه المحادثة العالمية خلال المأدبة"

العظمة التي يحلم بها روكرت لألمانيا والتي يرغب في تحقيقها عبارة عن وظيفة، وهي نتيجة لما يقوم به الأبناء من جمع ثقافات الشعوب وألسنتها. وهذه المحادثة العالمية ذات الوقع الرائع، أي الأدب المترجم حسب تفسيرنا، تعد بالنسبة لروكرت السمة المميزة لعظمة الأمة. وتتحقق هذه العظمة عندما تتمكن الأمة و«أبناؤها» من منح وطن ولغة لهذه المحادثة. وبغض النظر عن غياب بنات الأمة عن هذه القصيدة، ربما يجوز لي أن أقول أنها تعكس رؤية مبكرة للتعددية الثقافية تعود إلى مئة وخمسين عاما بالضبط من الآن، هذه التعددية الثقافية يريد أبناء وبنات كوبورغ اللحاق بها في هذه اللحظة، بتكريم كاتب أثرى المحادثة العالمية التي كان روكرت يحلم بها، على نحو أصيل، وسيستمر بالتأكيد في إثرائها في المستقبل. فلنمنح وطنا لهذه المحادثة (وهذه المأدبة) اليوم وغدا! فلنهنئ علاء الأسواني على نيله جائزة روكرت الأولى من مدينة كوبورغ.

ترجمة: أحمد فاروق

أحمد حسو Ahmad Hissou

محمود درويش

والانحياز للنثر

قابلت محمود درويش للمرة الأولى والأخيرة في حياتي عام ألفين وثلاثة في مدينة دارمشتات بألمانيا. بالطبع كنت قبلها، كمعظم أبناء جيلي، قد حضرت أمسيات شعرية كثيرة له في مدينتي دمشق وبيروت. لكن لقاء دارمشتات كان الوحيد الذي يجمعني به عن قرب مع مثقفين آخرين. وكنت قد قصدت دارمشتات لتغطية الأمسية الشعرية العربية، التي شارك فيها درويش مع عدد من الشعراء العرب كقاسم حداد وعادل قرشولي وفؤاد رفقة ومحمد بنيس وسلوى النعيمي ونبيلة الزبير وصفاء فتحي، لمجلة «فكر وفن» (راجع العدد ٧٨ صفحة ٧٨: الشعر العربي في الأكاديمية الألمانية). وقد نظمت «الأكاديمية الألمانية للغة والشعر» هذه الأمسية ودعت الشعراء العرب المذكورين وعددا من الشعراء الألمان لهذا اللقاء الشعري المتميز. وبما أن مقر الأكاديمية في دارمشتات فإن الأمسية كانت هناك أيضا. وبالرغم من وجود عدد كبير من الشعراء العرب المهمين ومنهم أحد أعضاء الأكاديمية نفسها، أو لنقل العضو العربي الوحيد فيها، فإن كل الأنظار كانت متجهة إلى شخص واحد، شاعر واحد، إنه محمود درويش. هذا الاحتفاء الخاص بشاعر فلسطين لم يغضب زملاءه الآخرين الذين بدو متفهمين لكل ما يحيط به؛ بل مضت إحدى الشاعرات العربيات إلى أبعد من ذلك حين ميزت بين حضوره «كظاهرة، كنسيج وحده» وبين بقية الشعراء العرب. وهذا ما جعل القاعة، التي ألقى فيها الشعراء قصائدهم، تكتظ بالحضور بالرغم من صغر المدينة وقلة من يرتاد هذه النشاطات عادة في ألمانيا. وحين قدمه رئيس الأكاديمية الألمانية للحضور قال بنوع من الاعتذار إن "الشعراء العرب ملوك في أوطانهم وهذا ما لا نستطيع أن نوفره لهم هنا". لقد كان يريد الاستقواء بالشعراء العرب من طينة درويش ليرفع من مقام الشعر في ثقافة باتت تحتفي بالنثر قبل كل شيء. لكن المفاجأة كانت حين ألقى محمود درويش مداخلة في الجلسة العربية ـ الألمانية المشتركة التي خصصت للشعر ردا على سؤال رئيس الجلسة الذي سأل عن أوجه التشابه والاختلاف بين الشعرين العربي والألماني؟ وفيما إذا كان بمقدور الشعر الألماني التعلم من الشعر العربي؟ لقد خيب الشاعر الكبير ظن مضيفيه الألمان عندما اعتبر أن "سؤال الشعر العربي لم يعد سؤالا عربيا بقدر ما هو سؤال إنساني عام، وأن الشعر العربي يعيش في عزلة وعلى الهامش كما هو الحال مع الشعر الأوروبي والأمريكي". ولدهشة الحضور اعتبر محمود درويش هذه الظاهرة صحية و"أن من حسن حظ الثقافة العربية أن يخسر الشعر تلك المكانة التي احتكرها لنفسه طويلا" لتأتي الأجناس الأدبية الأخرى، كالقصة القصيرة والرواية وغيرها كي تنافسه وتتفوق عليه أيضا. لقد فوجئ الحضور بآراء كبير شعراء العرب وهو ينحاز للنثر على حساب الشعر ويؤكد بأن الحالة النثرية باتت هي السائدة في مشهد الثقافة العربية. لم يكن الاستغراب مقصورا على الشعراء الألمان إذ أصبنا، نحن أيضا به، لكن معرفتنا بدرويش بددت هذا الاستغراب. فقد كنا نعرف أنه أدرك بحسه العبقري أن «قصيدة النثر» وحدت الثقافة العالمية "بحيث لم تعد تعثر في أية قصيدة حديثة على خصوصية وطنية أو ثقافية سوى اللغة"، اللغة التي كتبت بها القصيدة. كما أن دارمشتات لم تكن المكان الوحيد أو المرة الأولى التي يوجه فيها «شاعر الثورة الفلسطينية» سهامه إلى القصيدة. فقد سبق له وأطلق صرخته المعروفة: "أنقذونا من هذا الشعر" كما كانت مقولته الشهيرة قبل ذلك: "أنقذونا من هذا الحب". فهل يفهم من هذا الكلام أن درويش كان يعادي الشعر؟ بالتأكيد لا. فقد بلغ درويش بالشعر مكانة لم يتبوأها شاعر قبله، وبلغ الشعر به مكانة لم يصل إليها من قبل.



محمود درويش
Photo: Stefan Weidner